

Mngool.com

حَيَاة

الإمام ابن قيم الجوزية

تأليف

محمد مسلم الغنيمي

المكتب الإسلامي

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

المكتب الاسلامي

بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥.٦٣٨ - برقياً: اسلامياً
دمشق: ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقياً: اسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

الهدية

الى روح من نحن بسبيل ترجمته ، وجلاء شخصيته ،
علم الاعلام وشيخ الاسلام ، الحافظ ، ناصر السنة ، وقامع
البدعة ، ابي عبد الله محمد بن ابي بكر الشهير بابن قيم
الجوزية ، الذي حُب الي بمطالعتي لكتابه ((روضة المحبين))
الدراسة والمطالعة وطلب العلم .

ثم الى روح اكرم شيوخ علي وافضلهم لدي ، علامة
الشام فضيلة الشيخ محمد بهجة البيطار ، من نهلت من
علمه وعللت قرابة نصف قرن ، جعل الله الفردوس منزله ،
واكرم نزله ، وعوض المسلمين عنه خيراً .

ثم الى روح احب اساتذتي الى نفسي واقربهم الي
روحي ، الفقيد الغالي الاستاذ الشيخ محمد سعدي الياسين ،
جعل الله اسمى الجنان ماواه ، واكرم مثواه بمنه وكرمه .

مسلم الغنيمي

نقد

بقلم

القاضي سعدي أبو جيب

رجل الفكر والاصلاح في أمتي مسكين مسكين . . يحرق
روحه ليضيء لمن حوله درب الحياة المدلهم ، فلا ينال من العامة
إلا الظلم والظغيان ، وألف نعت سوء يعلق باسمه ، وحظه من
سيده السلطان ألف سوط يزين منه الظهر والصدر ، وأياماً
يقضيها في نعيم أقيية السجن . وقد يكون السيد محسناً مفضلاً
فيأمر بأن تأكل الطير من رأسه .

ويظن المسكين أن الظلم قد انتهى ، وأن الاجيال القادمة
لا بد أن تنصفه ، فاذا بها ، واحسرتاد . تشيح الطرف عن سيرته ،
وعن آثاره ، وقد كان من الواجب عليها أن تنصفه ، لو عرفت
الواجب .

وما هكذا تفعل الامم بعباقرتها . . إنها تكرمهم أحياء ،
وتعظمهم أمواتاً ، لأنها تعتبر كل واحد منهم هدية سامية من
العناية الإلهية .

وإني لأترب من أمتي أن تعيد لأهل الفكر اعتبارهم .
وتنفذ عن آثارهم تراب السنين . وتحيي سيرتهم . حتى يكونوا
ترنيمة على كل لسان وخفقة في كل جناح ، وتلك أول خطوة على
درب النهضة والمجد .

واحد من هؤلاء أذكره . ونحن نظن أننا كتبنا عنه الكثير .
ولكن هيهات . . فشخصيته لم تسبر أغوارها بعد . وآثاره
ما تزال تتلهم إلى الدرس والبحث . .

إنه شيخ الاسلام العلامة ابن تيمية . .
قالوا عنه ما قالوا . . وما خطر ببال أحد أن يدرس
ابن تيمية كرجل من رجال الفكر السياسي في أمتي . .

ونحن نعتقد أنه رجل من الطراز الأول في هذا الميدان .
فقد عمل في دنيا السياسة عسره ، وليس بعيدا - في نظرنا - أن
تكون دعوته إلى السلفية دعوة إلى فكر سياسي اسلامي . .
وإليك التفاصيل . .

دعا ابن تيمية إلى عقيدة السلف ، والوقوف عند نصوص
الكتاب والسنة ، وما كان عليه الصحابة الكرام . وأوتي الصبر
والجلد على تلك الدعوة ومقارعة كل من خالفها من أهل العلم
والتصوف ، ومن أتباع الفرق الضالة التي ترعرعت في المجتمع
الاسلامي ، فضلا عن أهل الكتاب والفلسفة .

هو وحده ، وهؤلاء خصومه ، وما أكثرهم وأعتاهم .
وعليه أن يجابه كل فئة بسلاح خاص بها وقد استطاع أن
يترك في ذلك المجتمع بليغ الاثر ، وأن يهزه بعنف حجته ، وقوة
شكيمته . وفيض علمه .

وفي دعوته تلك كان يهدف الى تخليص أمته مما علق في
فكرها الديني من زغل وشوائب تسربت اليه من الفلسفة
اليونانية الوثنية ، ومن فلسفات ذات جذور تمتد الى ديانات
ومذاهب كانت لأهم قبل الاسلام ، ولم تظهر أدمغة أتباعها من
أدناسها ، رغم اعتناقهم للدين الحنيف . .

وكان في سبيل بلوغ هدفه الاسمي يثير مشاعر الأمة .
ويشدها الى مشعل الهدى والخير ، الذي حمله الصحابة الافداد
ورعوه حق رعايته ، وسلموه أمانة عزيزة الى التابعين . . ثم بعد
ذلك لم نعد نجد له أثراً يذكر . . لقد لف نوره ضباب
الانحراف والضلال .

حتى اذا تعلقت الأفئدة بذلك النور الحق اندفعت الامة
تشق طريقها الجديد محاولة اعادة مجد السلف وعظمة الاجداد ،
في دولة جديدة محررة من دخيل الفكر ودخيل البشر .
ولذلك رأينا شيخ الاسلام مجاهدا في سبيل تلك الدعوة

يفكره . ومجاهدا بنفسه يحمل السلاح ليخوض الحرب مطهراً
أرض وطنه من رجس التتر الغزاة . . ولعله ، وهو في سباحة
الوغي ، كان يدرك عمق الالتحام بين تحرير الارض وتحرير
الفكر . . فما أروع الجهاد في سبيل هذا وذاك . . لأنه لا خير
في فكر حر في وطن مستعبد ، ولا وجود لأرض حرة اذا كان من
يدب عليها عبيدا في الرأي والفكر . .

فاذا تم له ما أراد سطعت الشمس من جديد على دولة
جديدة لا أبهى ولا أعظم . .

ولعل ابن تيسية كان يذهب الى أن العرب هم قلب تلك
الدولة ، وأن المسلمين من غيرهم هم الحواشي والاطراف .
ولذلك فانه يتحفنا بتعريف للعربي وللعروبة . . فالعربي
عنده : هو من كان لسانه باللغة العربية ، ومن كان من أصل
عربي . ومن كان مسكنه في أرض العرب . والعروبة عنده تثبت
باللغة ، وبالنسب ، وبالوطن (١) . . .

(١) اقرا - إذا شئت - تفصيل هذه النظرية محاضرة
استاذنا الكبير العلامة السيد محمد المنتصر الكتاني ، وهي
بعنوان : (العروبة عند ابن تيسية) وهي منشورة في كتابه : فتية
طارق والفاقي . نشر دار ادريس - بيروت سنة ١٩٧٢ .
ولعل استاذنا الجليل أول من تطرق الى هذا البحث .

مفهوم فريد للقومية العربية ، في عصر لم يعد فيه للعرب دولة ، وعلى أرضهم انساح المد الشعوبي ، وجحافل جراحة من التتر والصليبيين تعيث في الارض المباركة فسادا ..

وضع شيخ الاسلام هذا المبدأ ، لا للرفاه الفكري ، وانما ليكون قلبا للآطار السياسي الذي كان يرسمه لدولة المستقبل ، ذات المجد المتألق والسيادة الخالدة .

هذا جانب من الفكر السياسي عند ابن تيمية .. ولو رحنا تنقب في آثاره الرائعة لوجدنا كل أبعاد ذلك الفكر ..

ألم أقل لكم إن في آثار هذا الامام العظيم ما يدهش ، وهو مغيب عنا لم نشعر عن ساعد الجد بعد لإحياء فكره .

وما أعظم ذلك اليوم الذي نشهد فيه ميلاد جمعية تسمى (جمعية ابن تيمية) تحمل على عاتقها هذه المهمة (١) .
إنه اذن يوم خالد من أيام هذه الامة الخالدة .

(١) لقد أنشأ المستشرقون في ألمانيا جمعية تحمل اسم (جمعية محمد بن الحسن الشيباني - للحقوق الدولية) ترمي الى احياء تراث هذا الامام العظيم في ميدان الحقوق الدولية ، لأنه وضع أسس تلك الحقوق يوم كان الغرب يرزح تحت ديجور الجهل والتخلف .. فتأمل .

وابن القيم واحد من قبيل ضوئل من رجال الفكر والعلم
والاصلاح لا يعرفه إلا طبقة أهل العلم ..

أما الناس ، سواد الامة ، فلا يدرون على أي أرض كان
يمشي . ولا في أي زمان كان يعيش ..

وعذرهم أننا لم نكتب لهم عن أعلام أمتهم بلغة حيية
الى نفوسهم وقلوبهم ..

وفي سبيل أداء هذه الرسالة قدم صديقنا الكبير وعالمنا
العامل فضيلة الشيخ مسلم الغنيمي ، سفره النفيس عن شيخ
الاسلام ابن القيم هدية لأمته ، يعرفها فيه بعصره ، وبسيرته ،
وببعض آثاره .

وكانت خطة المؤلف أن يأخذنا الى رياض ابن القيم .
واصفاً أبرزها ، منتقيا بعض ورودها مع شرح يليق بها
وتحليل ..

ولم يكن في خلال شرحه بالذي يخفي نفسه ، بل كان
يكسو النص الذي يعرض من سعة علمه وغزير أدبه وثاقب
فكره ..

حين تحدث عن عصر ابن القيم المفعم بالحوادث والنوازل
التي دعت هذه الامة، في هجمة الوحشية والهمجية والاستعمارة،
في حروب سسوها ، سترأ لحقيقتها ، بالحروب الصليبية ، لم

يتركنا المؤلف وحدنا نسيح في زمن ولى وغبر ، بل ذكرنا
بواقعا المر في اثاره للشاعر يقتضيها المقام (١) .

وأنى له أن يفعل عن ذلك ، وهو الذي أعرفه من أشد
الناس تألماً لما يصيب الناس . لا في بلده . ولا في دنيا قومه
العرب فحسب ، بل في كل العالم الاسلامي من أقصاه الى
أقصاه . . .

فحين يذبح مئة ألف من العرب والمسلمين في زنجبار تحت
سمع العرب والمسلمين في كل الدنيا ، وحين يصب الطغاة
الكفرة بجان غصبيهم على الفئة المسلمة في الهند والحبشة
ونيجيريا والفيليبين وفي بقاع أخرى من هذا الكوكب . . .
وحين يجري ما يجري في قضية الارض المقدسة فلسطين . . .
حين يسمع صديقنا المؤلف بكل ذلك يكاد الالم يعتصر قلبه
ويهد حسه . . .

نفس مرهفة ، وحس شفاف ، وقلب لا يريد أن يعيش في
هذا الكون مقوقعا على ذاته ، بل يريد أن يتسع ويتسع ليعيش
الام هذه الامة . . . انها الشهادة له . . .

وفي حديثه عن عقيدة السلف في ذات الله تعالى وصفاته

(١) ص ٣٣ وما بعدها من الكتاب .

يأتي بدليل بسيط وأروع ما فيه هو هذه البساطة (١) .
قال (ان الله سبحانه وتعالى ذكر لنفسه في كتابه ، وذكر
له رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم فيما نقل عنه في الاحاديث
الصحيحة : صفات تتفق من حيث الأسماء فقط مع صفات
المخاوقين .

فذكر عن نفسه في كتابه أن له سبحانه وتعالى وجهاً وعيناً
ويدين . فقال تعالى : (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام)
وقال : (ولتصنع على عيني) . وقال : (بل يدها مبسوطتان) .
وذكر له النبي صلى الله عليه وسلم من هذه الصفات
الاصبع والاصابع كما ورد في الحديث الصحيح الذي رواه
مسلم من حديث عبد الله بن عمرو وحديث جهنم عندما تطلب
المزيد : فيضع الجبار قدمه فيها فتقول : قط قط . وفي رواية :
قطني قطني . .

ثم قال : من المعلوم البدهي أن الصفات تتبع الذوات
وتختلف باختلافها ، فالانسان والحيوان والجماد والمعاني
ذوات . ولكل ذات منها صفات تلائمها . .

مثاله نقول : وجه الانسان ، وجه الغزال ، وجه السماء ،

(٢) ص ٢٣٦ - ٢٣٩ من الكتاب .

وجه المسألة .. فالإنسان والغزال والسماء والمسألة ذوات ، ولكنها مختلفة الذوات فوجب أن تختلف صفاتها .. فوجه الإنسان لا يشابه وجه الغزال ، ووجه السماء لا يشبه وجه المسألة . فإذا تقرر أن الصفات تتبع الذوات وتختلف باختلافها . فإن كانت الذات معلومة كانت الصفات معلومة ، وإن كانت الذات معنى ، كالمسألة كانت الصفات تابعة لها . فوجهها معنى لا يدرك بالحواس الظاهرة ..

ثم قال : فإذا تقرر لديك ذلك نقول : اننا نؤمن بوجود الله واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . وإن ذات الله مجهولة لدينا وقد أمرنا أن نتفكر في آلاء الله ، ونهينا عن أن نتفكر في ذات الله .. كما صح عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإذا كانت الذات الالهية مجهولة لدينا فكذلك كيفية صفاتها مجهولة لدينا . فنحن نؤمن بكل ماورد في صفات الله سواء بكتاب الله عز وجل أم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا كيف ونؤمن بما ورد وصح من المغيبات كالعرش ، والكرسي ، الذي هو موضع قدم الرب ، وسدرة المنتهى ، والحجب ، ونؤمن بصفات الرب سبحانه وتعالى الذاتية كالوجه ، والعين ، واليد ، والقدم ، وصفاته المعنوية كالسمع والبصر والقدرة والعلم والحياة

والرحمة والحلم والغضب ولكن بلا تكيف ، ولا تنفي عنه
سبحانه وتعالى ما وصف به نفسه من صفات

ولقد قرأت الكثير مما استدل به علماء الكلام وغيرهم .
فما وجدت دليلا يتشرب بيسر الى صميم النفس . حاملا اليها
القناعة . مثل هذا العرض البسيط ..

وهل تفتح النفس مغاليقها الا بالكلمة الهينة اللينة ؟ ..
وكم كنت أود أن يناقش المؤلف سبب محنة ابن القيم ،
وأن لا يسلم بما تناقله الاسلاف من أنه الفتوى باشتراط المحلل
في جعل السابقة (١) . لأن هذه الفتوى مهما أشبعناها تحليلا
لم نعر فيها على ما يقلق السلطان ويوجب النكال .

ولعل لهذه المحنة سببا آخر . ربما يست الى السياسة
بنسب ..

والعجيب من تلقي الناس عبر القرون ما تناقله العلماء
عن أسباب بسيطة ينسبون اليها غضبة السلطان على كبار أهل
العلم وساداتهم ..

أبو حنيفة : الامام الاعظم . عليه رحمة الله ، حبسه
المنصور : الخليفة العباسي . أكثر من مرة .. وقيل في سبب
ذلك رفضه لولاية القضاء ..

(١) ص ١٠٧ من الكياب

ونحن نرفض هذا السبب ، ونقول بأن الموقف المناوئ
للدولة الذي اتخذه أبو حنيفة ومالك وغيرهما من كبار العلماء ،
والمؤيد لحركة محمد ذي النفس الزكية وأخيه إبراهيم ولدي
عبد الله بن الحسن المثنى هو السبب الحقيقي للتكيد بأبي
حنيفة ومالك ..

ومعلوم أن السلطان قد يتساهل بأمر الدين وبأمر
المسلمين ويفرط بذلك ولا يبالي . الا أنه مستعد لسحق كل
رأس تخرج من صاحبه هسة تس عرشه ..

وكم كنت أود لو أن المؤلف الحبيب قدم لنا تقويماً
للعالم الجليل ابن القيم . وناقش ما أورده أهل العلم في وصفه
من أنه عالم : مفسر . محدث ، فقيه مجتهد ، أصولي ، أحاط
بكل علوم عصره .. الى آخر هذه الاوصاف ليعرف مدى
واقعيته . أم أنها المنقوية التي ألصقت بكل أهل العلم ..

ونحن نعتقد أن ابن القيم عليه رحمة الله تعالى كان في
كل ذلك مثل العديد من علمائنا ، ولم يكن مبرزاً في كل فن
مثل جهابذة ذلك الفن ..

الا أن له في نظرنا ميزة لا يجاريه فيها الا قلة قليلة من
أهل العلم .. وقد يجيب في ذروة الذروة من هذه القلة ..
فقد أوتي عقلاً منظماً ، منسقاً فريداً . وفي كل ما كتبه

نجد الدليل على ذلك .. حتى مع خصومه في الرأي والفكر
تراه يعرض حججهم المؤيدة لأبيهم بصدق ودقة ونظام ومنطق ،
وربما زاد في تلك الأدلة ما لم يكن يخطر ببال الخصوم
أنفسهم .. وانك لو حاولت أن تبحث عن أكثر مما استدل به
لأعياك .. وحتى يخيل اليك أن الحق الذي لا يدحض هو
ما عليه هؤلاء ..

وحين يبين رأيه يفند تلك البراهين بروية وأناة ، وما هو
الا القليل حتى ترى الصرح الذي بناه لدعم أقوال خصومه
ينهار ، كأن لم يكن بالامس .

هو في ذلك بين العلماء كابن الرومي بين الشعراء ..
فابن الرومي اذا التقط صورة راح يصف كل دقيقة فيها ، ولا
يترك زيادة لمستزيد .. فلو أردت أن تقتش عن زاوية منها ،
ولو مهلة ، لتصفها ، لوجدته قد سبقك الى ما تريد . وهذا
العقل الفريد هو الذي خدم فكر ابن تيمية وتراثه خدمة
عظيمة ..

ولكي يظهر لنا ذلك ، نقول بأن ابن تيمية كان عبقرى ،
نبعا ثرا ، ما عنده غير اللؤلؤ ينثره ذات اليمين وذات الشمال ،
في بعثرة عز نظيرها .. حتى اذا حاولت أن تصل الى الدررة
المطلوبة نفد منك الصبر ، أو كاد ..

أما ابن القيم فقد أخذ الابرّة أخذ الحكيم ، وراح ينظم
درر شيخه ، الواحدة الى جانب شقيقتها ، لا غربة ولا وحشة
في عقود هي آية الابداع والفن ، معروضة بترتيب عبقرى بهر
أعين الناس فقالوا : ما أعظم ابن القيم .. وجاء البعض فقال :
هو تلميذ لشيخ الاسلام ابن تيمية .. فراحوا بعدها يبحثون
عما تركه الشيخ وينقبون ...

كان هذا هو الدور الذي قام به ابن القيم في خدمة علم
شيخ الاسلام ابن تيمية .. وأكرم بها من خدمة ..

قلت : كم كنت أود أن يستوفي المؤلف كل هذا .. ولكنه
قطع علي ما كنت أود حين أعلن أنه يقدم كتابه للجمهور يعرفهم
فيه بامامهم الكبير وبآثاره القيمة ..

وهو في اطار ما أعلنه ملتزم غاية الالتزام ، وقد أدى
رسالته على خير ما يرام .. فكان في ذلك فضله وفضل
كتابته ...

بيد أن ما كنت أوده لا بد من استدراكه في مؤلف جديد
كما وعد الكاتب الصديق ..

وبعد :

اننا نترقب ذلك اليوم الذي تكون فيه آثار علماء هذه.

الامة ، ورجال الفكر فيها ، زينة كل عقل ، وتكون سيرتهم
العطرة ترنيمة كل لسان ..

وفي ذلك فليعمل العاملون ..
وبالله المستعان .

سعدي ابو جيب

المقدمة

الحمد لله حمدا طيبا مباركا فيه كما يحب ربنا ويرضى ،
حمدا يليق بجلاله عدد كماله . وصلى الله على سيدنا محمد
خاتم النبيين ، وامام المرسلين . اللهم صل وسلم وبارك عليه
صلاة ترضيك وترضى بها عنا .

ربنا افتح لنا أبواب رحمتك . وسهل لنا مقاصدنا ، وهَيِّءْ
لنا من أمرنا رشدا .

وبعد فقد اطلعت في مطلع حياتي على كتاب روضة
المحبين ونزهة المشتاقين ، للامام الحافظ - ابن القيم -
فأعجبت به غاية العجب وحل في نفسي المحل الاسى ، ولم
يحظ كتاب عندي ما حظي به هذا السفر النفيس ، ولئن
كنت آنذاك أدرس الفقه واللغة والتفسير والحديث ومصطلحه ،
لأكون فيما بعد إماماً وخطيباً ومدرسا أسوة بأسلافي ،
كنت ميالا في طبعي للأدب بكل أفئانه شعراً وقصصاً

ونثرا ، ومقالات ومسابجات وفكاهات ونوادر ، وقد أدرك
أفضل شيوخه الاستاذ الشيخ محمد سعدي الياسين ميلي نحو
هذا الاتجاه فكان يذكي في نفسي حب الادب، ويعمق جذوره ،
وكان - مد الله في حياته - ^(١) أديب النفس والدرس - وقد
خصص لنا في منهاجه ساعات لقراءة أمهات كتب الادب القديم ،
وساعات لمطالعة كتب الادب الحديث، وكان رائده آنذاك المرحوم
مصطفى لطفي المنفلوطي . فكان يسلي علينا المقال تلو المقال من
نظراته ، وأحيانا يرغنا على حفظ الجيد منها - وكلها جيد -
ويقرئنا القصة تلو القصة من عبراته ، ويدفع اليها الكتاب تلو
الكتاب من رواياته ، لهذا طغى علينا اسلوب المنفلوطي في
الكتابة لأن حبه خالط اللحم والعظم .

كنت أطوف على المكتبات أبحث عن كتب الادب سواء
منها القديم والحديث أشتري ما أستطيع شراءه من نفقتي
الخاصة - دراهم معدودة - حتى تجمع لدي منها عشرات ،
وكنت أراها كنزا ثميناً ، وكلما اشترت كتاباً أعرضه على
أستاذي الشيخ محمد سعدي لأدخل السرور على نفسه بعمله

(١) كان يوم ذاك على قيد الحياة ، وقد انتقل الى رحمته
تعالى يوم الاربعاء ١٤ ربيع الآخر عام ١٣٩٦ تغمده الله برحمته
وادخله فسيح جنته وعوض الله المسلمين على فقدته خيراً .

المبرور ، وجهدي المشكور ، ولأخذ رأييه فيما اقتنيت فيتصفحها
ثم يردها الي مشجعاً مثنيّاً ، وقد أبقى لديه كتابين قائلاً : ان
هذين الكتابين لا يحسن بك مطالعتهما الآن فعندما تكبر وتدخل
في طور الرجولة سأعيدهما اليك ، فدهشت لتصرفه وقلت : أليست
كتب أدب؟ قال: بلى ولكن الأدب يا بني فنون ، فمنه الرفيع ومنه
الوضيع ، وفيها الغث والسمين ، والهزيل والسمين ، كما أن
الاحاديث شجون فمن الكلام در منشور ، ومنه بحر منشور .

وقد ردها الي بعد ربع قرن وقد أصبحت كهلا رأيتهما
والله تكاد تكون كتباً مقدسة اذا قارناها بما نراه بين أيدي
الطلاب والطلبات ، والمراهقين والمراهقات ، مما يسمونه الادب
المكشوف ، كتباً ومجلات وصور عارين وعاريات يطلقون عليه
أدب الجنس .

وقد رأى بعض أوليائي - وكنت يتيماً آنذاك - اتجاهي
في هذا السبيل وانصرافي عن مكتبة أسلافي والتي فيها من
كتب الفقه الحنفي ما لم تره العيون ، ولم يرد ذكره الا في
(كشف الظنون) ومعظمها مشترى من تركة المرحوم ابن
عابدين صاحب الحاشية ، وقد حوت من تفائس المخطوطات
نوادرها ، ومعظمها بخطوط مؤلفيها . ولا أزال أذكر وأنا
أبحث فيها عن كتب الادب أنني عثرت على تفسير للقرآن الكريم
نظماً بعشر مجلدات ورأيت فيها معجماً للغة العربية : اسمه

(السبعة أبحر) بخط فارسي جميل على ورق حريري ، وقد ذهبت هذه المكتبة النادرة طعنة لنيران الافرنسيين في أثناء ثورة ١٩٢٥ كما ذهب كثير من آثار دمشق الخالدة تحف فنية وبيوت أثرية ورجال زماننا بشلهم ضنين ولا يزال آثار هذا العدوان والطغيان شاهد عيان بعد مرور نصف قرن من الزمان .

كُتبت هذه الصفحات وأنا أضغط على الجبل ، وأشير الى الحوادث من طرف خفي ، وأختصر المعاني لئلا يظن أنني أترجم لنفسي ، ولكن الغاية من ذلك اعطاء القارىء صورة عن الدافع الذي دفعني للكتابة عن ابن القيم الاديب .

فبعد مطالعتي لروضة المحبين ارتسم في ذهني صورة لابن القيم كأنه شيخ الادباء ، أو أديب الشيوخ ، لانه كتب عن الحب والمحبة والعشق والعشاق ونوادرهم العذرية بسداد الشرع ولسان الدين ، ولغة وأسلوب الادباء ، ولم أكن اطلعت له آنذاك على كتاب سواد ، وكنت قرأت سابقا طوق الحمامة للامام ابن حزم بجهد عظيم ، لأن ابن حزم كتب عن الحب بلغة الفلسفة ، والفلسفة تتاج العقل ، أما الحب فتتاج العاطفة والشعور والوجدان وبينهما بون بعيد .

فبعد أن قرأت الكتابين طالبتني نفسي أن أكتب لها مقارنة بين الامامين ابن القيم ، وابن حزم ، والرسالتين، روضة المحبين ،

وطوق الحمامة • فكتبت منذ أربعين سنة ما أربي على مائة صفحة ثم طويت ما كتبت كما انطوت أيام الشباب ولكن شغفي بابن القيم جعلني أتبع آثاره فما ان أعثر على كتاب له حتى أبادر لاقتنائه ، وعلمت بعد ذلك أنه تلميذ شيخ الاسلام ابن تيسية فدفعني ذلك لاقتناء كتب الشيخين ، ولكني كلما حاولت القراءة لهما وجدت صعوبة في فهمها فشكوت أمري لاستاذي الجليل الشيخ محمد بهجة البيطار ، وكان مجلسه حافلاً بنخبة ممتازة من علماء دمشق الاعلام ، منهم القاضي والمفتي ومن يشار اليه بالبنان ، فأجابني أحد القضاة قائلاً : يا بني ، لو كان شيخ الاسلام ابن تيمية حاضراً مجلسنا هذا يتكلم لما أدركنا وفهمنا من كلامه سوى عشرين بالمائة ، ثم سكت فلم يعلق أحد من الحاضرين على كلامه بشيء ، وفيهم — والله — علماء من المشرق والمغرب ممن طبقت شهرتهم أرجاء العالم الاسلامي ، وكان هذا عام ١٩٣٣ أي منذ أربعين سنة •

لم يفت هذا التثبيط في عضدي أو يفل من عزمي عن متابعة السير في السبيل الذي انتهجته لنفسي في تتبع آثار الشيخين ، وكان ألقى في روع أكثر طلاب العلم أنهما خالفا الأئمة المجتهدين في بعض مسائل ، وردا بعض آرائهم ، وكان الناس يومئذ أشد تقديساً لآراء المجتهدين ، وفنقات المتحذلقين؛

من كلام رب العالمين ، لأن القرآن الكريم في رأيهم أسى وأعلى من أن تناله الافهام أو تدركه الاوهام ، ومثله سنة خير الانام فاذا ما تلي القرآن وقرىء الحديث فلتتبرك فقط . هذا في زعمهم ، واشتغلوا بكتب المتأخرين وحذقات المتكسبين ، هكذا كان شأن الناس عدة قرون ، وعندما أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية في أواخر القرن الثالث عشر أمر شيخ الاسلام علماء المسلمين أن يقرؤوا صحيح البخاري في المساجد على نية النصر ، ولكن روسيا انتصرت ببوارجها البخارية على دولة آل عشان في حرب القرم وأرغمتها على قبول الصلح بشروط أملتها ، فكتب يوم ذاك أحد الاحرار مقالا بعنوان [النصر بالبخار لا بقراءة البخاري أوضح فيه أسباب تأخر المسلمين وانهزامهم ، فكان لمقاله من الدوي ما أيقظ النيام من سباتهم ، وأثار طريق الخلاص من ظلمات ظل العالم الاسلامي يتخبط فيها خمسة قرون ، وكان من تأثير المقال على السلطة القائمة يومها ما دفعهم للحكم على كاتب المقال بالاعدام] .

وبعد : فليست رسالتي هذه دراسة لآثار ابن القيم العلية ولا للمقارنة بين آرائه وآراء من خلفهم من الائمة الاعلام ، وسرد أدلة الفريقين وترجيح الأصح منها على الصحيح ، ولا لجلاء آراء المعتزلة والقدرية والجبرية ومقارنتها بعقيدة أهل السنة

عن السلف والخلف ، ولا لبحث القضاء والقدر وهل الانسان مسير أم مخير ... الخ ما أفاضت به مؤلفات هذا الامام العظيم .
وانما هي تلخيص لبعض آثار هذا الامام العظيم ، مما يمت لجمهور القراء بصلة وثيقة ، ويعود عليه بفوائد عظيمة ، وقد اخترت من آثاره كتاب (روضة المحبين) و (عدة الصابرين) و (الروح) و (حادي الارواح) لأن لكل كتاب من هذه الكتب تأثيره الخاص في نفس مطالعه .

فروضة المحبين يعمل على كبح جماح هذا الحب الشهواني المنتشر بين جيل اليوم .

وعدة الصابرين ، ينشر الطمأنينة والهناء في نفوس الجماهير الكادحة التي تمنى بالسعادة والسيادة ، وهي كما هي لا تزال في الحضيض ترزح تحت نير الكد والتخلف .

والروح ، يأخذ بأيدي الحيارى ممن شدا بنصيب من المعرفة لساحل الطمأنينة والراحة النفسية والاستقرار ، وليعلم جواب : [من أنا وأين كنت وإلام المصير] .

وحادي الارواح ، ليسكب في قلب المطلع على هذا الكتيب سلسيل الامن على مصير من أضنى جسده الفاني بطلب النعيم الباقي ؟ .

ثم أترك البحث والكلام عن جلاء شخصية ابن القيم لمن يحب أن يضطلع بهذا العبء الجسيم . وأرجو أن يوفقني المولى عز وجل في فرصة أخرى للكتابة عن هذا الامام العظيم ، الذي

الف في كل فن من الفنون المعروفة في عصره . ألف في الشريعة والحقيقة ومازج بينهما في منهجه الخاص فجعلها علما واحدا . أي أنه ليس للشريعة باطن وظاهر . وأسرار ومردوز . ولكن من تعمق في فهم أسرار الشريعة فتح عليه من الفهم ما اغلق على سواه .

كتب في اللغة وأسرارها وآدابها ، فصيح ما أخطأ فيه غيره من أهل اللغة المتخصصين وأظهر من دقائقها نبذا ولطائف يسرها المتأدبون . وكتب في الطب والحب والفروسية - الرياضة - فكأنه فيما كتب : طبيب ، عاشق . مدرب أستاذ رياضة فالاختصاصي في أي علم من العلوم . إذا نظر في كتب هذا الامام تبين له انه ضرب في هذا العلم بسهم وافر كبير . وسينيز هذا للقارئ عندما نشر اشارات لطيفة بلغة سهلة مبسطة بعيدة عن مصطلحات العلوم لبعض ما أدركنا من جوانب شخصيته الفذة وعقله الجبار وعلمه الغزير .

أما سبر أغوار علمه ودراسة آرائه وجلاء شخصيته العلمية فهذا ما كفانيه الدكتور عبد العظيم عبد السلام شرف الدين في رسالته التي كتبها عن ابن القيم لينال بها الماجستير من كلية الشريعة الاسلامية في القاهرة ، فقد عاش مع ابن القيم فترة من الزمن طويلة منقبا عن آثاره المطبوع منها والمخطوط وكتب عن ابن القيم وعصره ومنهجه وآرائه في الفقه والعقائد والتفسير

والتصوف ، وكان يشير في بعض الاحيان الى بعض جوانب تلك الشخصية الفذة ، وترك مجال البحث واسعا لمن أراد أن يكشف عن جوانب أخرى لهذه الشخصية الفريدة من نوعها والتي يضمن الزمان بمثلها فلا يسمح بمثلها الا في القرون .

ولترك الكلام هنا للاستاذ الجليل فضيلة الشيخ محمد الزفراف أستاذ الشريعة الاسلامية ووكيل كلية دار العلوم بجامعة القاهرة يحدثنا في تقديمه لرسالة الدكتور عبد العظيم عن ابن القيم العظيم .

قال : لقد أماطت هذه الرسالة ^(١) اللثام عن الاهداف التي كان يرمي اليها ابن القيم في ثورته الاصلاحية الدينية - والدين عماد كل تسدن - فأبان أن الدعوة الى اصلاح العقيدة (يكون) بالرجوع الى مذهب السلف ، والتحرر الفكري . ومحاربة الحيل الشرعية التي اخترعها المتلاعبون بالدين . وتفهم روح الشريعة .

ولقد كشفت هذه الرسالة عن كثير من أخلاق العلماء التي توافرت في ابن القيم من أمانة في العلم ، وإنصاف للخصم . وهدوء في النقاش ، والتعق في البحث . وكذلك كان ابن القيم فيما عرفنا عنه ، وما خفي علينا فالامر لله فيه اذ ليس لنا الا ما أظهره البحث وأبان عنه الدليل .

(١) رسالة عبد العظيم .

وهذا يؤيد ما سبق ان ذكرته عن ابن تيمية ، من أن
الاحاطة بكل ما كتب أمر مستحيل ، وابن القيم فرع من ذلك
الأصل ، إذ أنه بسط آراء شيخه وأوضحها ببيانها وسهولة
أساوبه .

ثم قال فضيلة الاستاذ الزفزاف : « كما أنها ردت ما زعمه
المتقواون على ابن القيم ، من أنه كان من المجسمة الذين يجعلون
الله شبيها بخلقه أضف الى هذا ما بينت هذه الرسالة من
موقف ابن القيم من المتصوفة وشدته عليهم ، ورد ما ابتدعوه
من قول بأن الحقيقة تخالف الشريعة ، فمن وصل الى ذروة
الحقيقة ما عليه إن يخالف الشريعة ، الى غير ذلك من دعاوى
فاسدة لا بينة عليها الا خيال مريض وهوى مضل ، فانه - أي
ابن القيم - حارب مثل هذه المبتدعات، ورجع بالحقيقة الى منهج
الشريعة فكلاهما مورده واحد فمن لا شريعة له لا حقيقة
عنده » (١) .

هـ هاجي في هذه الرسالة :

١ - عرض آثار ابن القيم العالم المناظر المكافح المجدد
الداعية الذي قضى حياته يحاول ويدعو المسلمين الى الرجوع

(١) ابن القيم - عبد العظيم شرف الدين الطبعة الثانية .

لمنهج السلف الصالح في العقيدة وفهم الدين ، عبادة ومعاملات
وآداباً ، والأخذ بما فهمه السلف والتزموه من عدم التأويل
والتشبيه لآيات الصفات ، والأخذ بما ورد في الكتاب والسنة ،
سواء أكانت الآيات آيات صفات ذات أو صفات معنى ، بأسلوب
سهل مبسط بعيد عن اصطلاح علماء الكلام من معتزلة ^(١) أو
جبرية ^(٢) أو قدرية ^(٣) في مناظرتهم لعلماء الكلام من أهل
السنة .

٢ — عدم الخوض والتعمق في قضية القضاء والقدر ، لأن
الخوض في هذه المسألة بالذات غير مجد لجمهور القراء ، فهي
مسألة حارت فيها الافهام وتاهت في إدراكها الاوهام ، فمنذ أن

(١) فرقة من القدرية زعموا انهم اعتزلوا فئتي الضلالة
عندهم : أهل السنة والخوارج . اسماهم به الحسن البصري لما
اعتزله واصل بن عطاء واصحابه الى اسطوانة في المسجد وشرع
يقرر القول بالمنزلة بين المنزلتين وأن صاحب الكبيرة لا مؤمن مطلق
الإيمان ولا كافر مطلق .

(٢) الجبرية أو المجبرة : يقولون بالجبر أي أن الإنسان
لا قدرة له على أن يفعل الشيء أو يتركه بإرادته بل هو مجبر
على أحد الأمرين .

(٣) القدرية يجحدون القدر فيقولون : إن كل عبد من عباد الله
خالق لفعله متمكن من عمله أو تركه بإرادته .

تفتح عقل الانسان وهو يبحث فيها ولما يصل الى نتيجة ايجابية ،
ولا يزال الخلاف قائماً ، ولكنني سأعرضها عرضاً سريعاً وسهلاً .
معتسداً على قاعدة وضعها الامام أحمد رضي الله عنه في مناظراته
للفرق الثلاث ، وهو قوله : ناظروهم في العلم فان هم أقرأوا فقد
اتفقنا . وإن هم أنكروا فقد كفروا ، وسيأتي تفصيل ذلك في
الكتاب الثاني عن ابن القيم ان شاء الله .

٣ - عرض صور لفهم ابن القيم للقرآن الكريم والسنة
المطهرة وأسرار التشريع ، وأن من أدرك هذه الاصول الثلاثة
سهل عليه ادراك الحقائق وجلاء ما غلق عليه فهمه .

٤ - التركيز على ابراز شخصيته عالماً مستقلاً متضلعا
بجميع العلوم المعروفة بعصره من تفسير وحديث وفقه وتصوف
وسير ومواعظ وحكم وطب وبخاصة اللغة العربية وأسرارها
وما تفرع عنها كالبيان والمعاني والبدیع وما حواه الادب العربي
من فن رفیع .

هذا وقد جعلته أربعة أبواب وكل باب تحته فصول .
الباب الاول عصره ، الباب الثاني حياته ، الباب الثالث أدبه ،
الباب الرابع ابراز بعض جوانب من شخصيته من كتبه التي
اخترت منها : (روضة المحبين) و (عدة الصابرين) و (الروح) و
(حادي الارواح) .

البُتَائِبُ الْأَوَّلُ

عَصْرُ الْإِمَامِ ابْنِ الْقَيْمِ

عصر الامام ابن القيم

ولد ابن القيم - رحمه الله - بعد انهزام الصليبيين والقضاء عليهم بعام واحد ، وكان قد مضى على البلاد الاسلامية قرنان كاملان ، والمسلمون في قتال دائم مستمر وحرب قل أن تخدم ناراها أو ينطفئ أوارها مع الغزاة الصليبيين ، وكانت الامدادات تأتيهم من أوروبا براً وبحراً ، والحملات تتوالى حتى ملكوا الساحل ومعظم الداخل من البلاد .

بعض الدوافع والاسباب للحروب الصليبية :

« وكان الدافع لهذا الغزو الاوربي لبلاد المسلمين سوء الحالة الاقتصادية في أوروبا ، والفقر المدقع ، والعوز والجوع ، وقد أوههم رؤسائهم أن الشرق الاسلامي بلاد الذهب لا يلبث نزيله أن يفتني (١) » .

(١) الاسلام والحضارة العربية لمحمد كرد علي ص ٢٩٤ .

كما أن صاحب القسطنطينية ضاق ذرعا بسوء المعاملة التي كان يلقاها من السلاجقة ، وبالضرائب التي فرضوها عليه ، فاستنجد بسلوك أوروبا واستغاث بالبابا . ووعدته الدخول في طاعة كنيسته والتخلي عن أرثوذكسيته « (١) » .

وكان أن اشتكى بعض حجاج بيت المقدس من سوء المعاملة التي لاقوها في أثناء زيارتهم للأرض المقدسة . فاتخذ البابا من هذه الشكوى ذريعة يحتج بها في تحريض ملوك أوروبا على غزو الشرق وتخليص القبر المقدس ، وكان يثير الحماس الديني في نفوس الجباهير .

انتهر البابا هذه الفرصة فخطب خطبته المشهورة في مدينة كلرمون بفرنسا ، وقد اشتملت خطبته على هذه المبادئ (٢) .

١ - تخليص الاراضي المقدسة من الكفرة الترك الغاشين .

٢ - تخليص أراضي الامبراطورية البيزنطية التي استولى عليها الترك وضربوها بالنار وقتلوا أهلها .

٣ - حث الامراء على توسيع املاكهم في الشرق الغني

(١) الاسلام والحضارة العربية لمحمد كرد علي ص ٢٩٢ .

(٢) خطط الشام ج ١ ص ٢٧٧ .

بدلاً من القتال في أراضيهم الفقيرة . التي يحصرها البحر وتحيط
بها سلاسل الجبال ؛ أما الأرض التي ستفتحونها فستدر عليكم
الخير والنعمة (١) .

أما حجة البابا تخلص الأرض المقدسة والقبر المقدس من
أيدي الوثنيين - كما زعم - فهي من نوع الشعارات السياسية ؛
والبيانات الخلابه ، التي يخدع بها الانتهازيون الوصوليون
غوغاء الجاهل الرعناء . فقد شهد مؤرخ معاصر مشهور
بإستقرار السلام في هذه البلاد بين المسلمين والنصارى ، والامن
المستتب على الاموال والارواح . فقد سجل برفاري فيس في
مذكراته عند مشاهداته زيارته للأرض المقدسة : ان السلام
سائد فوق تلك الربوع بين المسلمين والنصارى ، حتى إنني لو
كنت مسافراً ونفق بعيري أو حماري الذي ينقل أمتعتي على
الطريق وتركتها كلها دون حارس ولا رقيب ، ثم سرت الى أقرب
مدينة لأجلب بعيراً أو حماراً آخر لوجدتها عند عودتي باقية
كما هي لم يمسه أحد (٢) .

وقال منرو : كانت هذه الفظائع المنسوبة للمسلمين

(١) محاضرات الدكتور حلمي .

(٢) الاسلام والحضارة العربية لمحمد كرد علي ، وخطط

الشام ٢٨٢/١ .

مزوجة بكثير من الأفديه لتوافق روح ذلك العصر الذي كان أشد توحشاً من عصرنا هذا ، وكان النصارى يأخذون قصص هذه الفظائع على علاتها ، فعظم تأثيرها في حماسة الكثيرين ولجأ الغربيون الى أنواع أخرى من الدعوة وإهاجة الافكار على المسلمين فاتهمهم بعبادة الاصنام ، وأنهم يعتقدون ألوهية محمد « (١) » .

« لبي المسيحيون دعوة البابا فجاءت الحملة الاولى واستولت على الرها ثم استولت على القدس ، ونكلت بأهلها ولم ينج مسلم ولا يهودي ، ولبت الفرنج يقتلون المسلمين بالقدس اسبوعاً كاملاً وقتل من المسلمين في المسجد الاقصى ما يزيد على سبعين ألف نفس ، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن جاوز في ذلك الموضع الشريف ، وغنموا ما لا يقع عليه الاحصاء » ، فلو قارنا بين معاملة صلاح الدين للصليبيين يوم استرد القدس وبين معاملتهم للمسلمين يوم فتحوه لوجدنا الفرق العظيم .

(١) المصدر السابق .

استرداد بيت المقدس بهمة صلاح الدين :

لم يكن استرداد بيت المقدس من أيدي الصليبيين الذين ملكوه ٨٨ سنة بالامر الهين ، ولكنه عمل - أولا - على توحيد كلمة المسلمين ولمّ شعثهم تحت راية واحدة من أسوان في أعلى صعيد مصر الى الموصل في شمال سورية ، وكان ان استولى على معظم الساحل السوري وهكذا لم يبق أمام صلاح الدين في داخلية فلسطين سوى بيت المقدس ، فأخذ يستعد للاستيلاء عليها .

وكان صلاح الدين قد استقبل وهو - أمام عسقلان - بعثة من أهل بيت المقدس ، فعرض عليهم تسليم المدينة بالشروط نفسها التي استسلمت بها المدن الصليبية في فلسطين ، أي : أنه يؤمنهم على أرواحهم ونسائهم وأولادهم وأموالهم ، ويسمح لمن شاء منهم بالخروج من المدينة سالما ، ولكن أهل بيت المقدس الذين أخذ باليان [ابن بارزان] يقوي فيهم المقاومة رفضوا ذلك العرض ، ورأوا ان « الموت ايسر عليهم من ان يملك المسلمون البيت المقدس » (١) .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب . ج ٢ ص ٢١١ .

وعندئذ اقسم صلاح الدين على ان يسترد بيت المقدس بحد
السيف ، ومع ذلك فقد ظل صلاح الدين محتفظا بكريم أخلاقه ،
فسمح بخروج الملكة ماريّا كوفين زوجة باليان . وأمر بتوفير
الحماية لها من بيت المقدس حتى طرابلس ، كما سح لغيرها من
النساء والاطفال بالخروج من المدينة آمين .

ثم عاد صلاح الدين وكرر عرضه على أهل بيت المقدس من
الصليبيين ، التسليم بشروط طيبة ، رغبة منه في عدم استخدام
العنف مع مدينة لها حرمتها عند المسلمين والمسيحيين سواء ،
ولكنهم أصروا على موقفهم ، وعندئذ قرر صلاح الدين أن لا
يبرح حتى يبر قسمه ويرفع بأعلاه عليه (١) ..

وفي الوقت الذي انتد هجوم صلاح الدين على بيت
المقدس اتسعت رقعة الخلاف داخل المدينة بين طوائف المسيحيين
من ارثوذكس وكاثوليك ، حتى ان الفريق الاول أعلن انه يفضل
الحكم الاسلامي على سيطرة الكاثوليك الغربيين ،

أدرك باليان دي ابلين استحالة المقاومة، بعد أن احس بنقص
الرجال المقاتلين بصورة مخيفة حتى قيل انه كان في بيت المقدس
عندئذ رجل واحد من الصليبيين مقابل كل خمسين من النساء

(١) الفتح القسي لعماد الدين الكاتب ص ٤٣ .

والاطفال ؛ لذلك « ارسلوا جساعة من كبرائهم في طلب الامان وتسليم القدس » بشرط احترام من بالمدينة من الصليبيين . والساح لمن شاء بسفادرتها . وكانت هذه الشروط نفسها هي التي سبق ان عرضها صلاح الدين من قبل ورفضها باليان ولكن صلاح الدين امتنع في هذه المرة وأسر على تسليم المدينة دون قيد او شرط . لانه أقسم على الاستيلاء عليها بحد السيف ، وقال لرسل الصليبيين : « لا أفعل بكم الا كما فعلتم بأهله حين ملكتوه سنة ٤٩١ من القتل والسبي . وأجزي السيئة بمثلها » (١) .

وعندما ساء موقف الصليبيين داخل بيت المقدس ، أخذوا يتدبرون المصير القاسي الذي ينتظرهم ، فخرج باليان بنفسه لاستئناف صلاح الدين . ولما وجده مصرا على موقفه لجأ الى لهجة فيها كثير من الترغيب والتهديد ، فقال لصلاح الدين : « اذا رأينا الموت لا بد منه فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ونحرق ما نملكه من أموالنا وأمتعتنا ولا نترككم تغنمون منا دينارا ولا درهما ولا تأسرون رجلا ولا امرأة فاذا فرغنا من ذلك أخبرنا الصخرة والمسجد الاقصى وغيرها من المواضع الشريفة ثم نقتل من عندنا من اسرى المسلمين وهم خمسة آلاف اسير ولا نترك لنا دابة ولا حوانا الا قتلناه ثم خرجنا اليكم وقاتلنا قتال من يريد

(١) الكامل لابن الاثير حوادث سنة ٥٨٣ هـ .

أن يحيي دمه ونفسه وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله^(١)» .
وكان أن استشار صلاح الدين أصحابه في الموقف فوافقوا
على ترك المسيحيين يغادرون المدينة مقابل فداء عشرة دنائير للرجل
— يستوي فيها الغني والفقير — وخمسة للمرأة وواحد للطفل ،
أما الفقراء والمعدمون من الصليبيين فقد وافق صلاح الدين على
أن يدفع باليان لسبعة آلاف منهم مبلغاً إجمالياً قدره ثلاثون ألف
دينارا ، واشترط صلاح الدين أن يؤدي الصليبيون الفداء
المفروض عليهم في مديى اربعين يوما ، « ومتى انقضت الاربعون
يوما ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكاً » .

خروج الصليبيين :

ويصور المؤرخون خروج الصليبيين من بيت المقدس
عندئذ وقد باعوا متاعهم « بالمجان في سوق الهوان » واضطروا
الى ترك الكثير منه لثقله وصعوبة حمله ، ويطبق أبو شامة عليهم
الآية الكريمة (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم
ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوما آخرين) .

(١) أبو شامة : كساب الروضتين ج ٢ ص ٩٧ ابن واصل :
مفرج الكروب ج ٢ ص ٢١٤ .

وفي يوم الجمعة ١٢ أكتوبر دخل صلاح الدين بيت المقدس ، وشاء الله ان يوافق ذلك اليوم في التاريخ الهجري السابع والعشرين من رجب ، وهي ذكرى ليلة الاسراء التي أسرى الله فيها بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى .

وكان الملك العادل في صحة أخيه صلاح الدين عند دخول بيت المقدس ، فأظهر تسامحا كبيرا تجاه فقراء الصليبيين الذين عجزوا عن دفع الفدية ، وكان من الامور التي ادهشت المسلمين ان يروا هرقل بطريق بيت المقدس يدفع لنفسه الدنانير العشرة ويغادر المدينة حاملا ما استطاع حمله من الذهب والفضة ومن خلفه العربات تحمل نقائس الكنيسة التي استولى عليها ، دون أن يبالي بفقراء الصليبيين الذين لم يجدوا ثمن فدائهم ، ويذكر ابن الاثير ان صلاح الدين رفض ان يتعرض لاموال البطريق التي حملها معه وقال : لا أغدر به^(١) .

وقد نادى بعض المسلمين عندئذ بهدم كنيسة القيامة ومعاملة المسيحيين بمثل ما عاملوا به المسلمين عندما استولوا على بيت المقدس سنة ٩٩٠١ م : وقالوا : اذا هدمت ونشئت المقبرة

(١) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٣ هـ .

وعفيت وحرثت أرضها. ودمر طولها وعرضها انقطعت عنها أمداد
الزوار ومهما استمرت العبادة استمرت الزيارة .

ولكن صلاح الدين نهرهم عن ذلك . وأمر باحترام
الاماكن المسيحية المقدسة ونادى بالتزام روح التسامح تجاه
المسيحيين لانه عندما فتح امير المؤمنين عسر رضي الله عنه
القدس في صدر الاسلام أقرهم على هذا المكان ولم يأمر بهدم
البنيان .

وشهد المؤرخون المسيحيون - المعاصرون وغير المعاصرين -
بكرم أخلاق صلاح الدين وساحته . وبأن صلاح الدين عامل
نساء المسيحيين معاملة حسيدة وسح لهن بالخروج من بيت
المقدس معززات مكرمات ومعهن اموالهن واتباعهن وحشهن .
وكانت زوجة الملك جاي لوزجان الاسير موجودة في بيت
المقدس . فطلبت من صلاح الدين السماح لها بصاحبة زوجها في
الاسر في نابلس فاذن لها . كذلك طلبت الاميرة اتينت أرملة
ارناط من صلاح الدين الخروج كسا طلبت اطلاق سراح ابنها
من زوجها الاول . فأكرمها السلطان وسمح لها بالسفر ، وهي
بنواها محوطة وبرأيها منوطة ، ثم اطلق سراح ابنها بعد استيلاء
العادل على الكرك في نوفمبر سنة ١١٨٨ والشوبك سنة ١١٨٩^(١) .

(١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٧ .

أما اليتامى والشيوخ والارامل من الصليبيين ، فإن صلاح الدين لم يكتف باطلاق سراحهم دون فداء ، بل منحهم ايضا مساعدات مالية من ماله الخاص .

وهكذا بدا الفارق عظيما بين سلوك صلاح الدين عندما استولى على بيت المقدس سنة ١١٨٧ م وبين ما فعله الصليبيون بالمدينة وأهلها المسلمين عندما سقطت في أيديهم سنة ١٠٩٩م، فقد ذبحوا كل من وجدوه فيها من المسلمين .

كتب المؤرخ المسيحي ابن العبري يقول : « ولبت الفرنج في البلد اسبوعا يقتلون فيه المسلمين وقتل بالمسجد الاقصى ما يزيد على سبعين الفا » (١) .

ولو قارنا بين معاملة صلاح الدين لهم يوم استرد القدس ، وبين معاملتهم يوم فتحوا بيت المقدس سنة ٤٩١هـ، لوجدنا البون شاسعا ، ولا عجب في ذلك فهذا روج الاسلام مقتبسة من كلية النبي صلى الله عليه وسلم لقريش يوم فتح مكة : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » . وقد سرت هذه الروح في دماء المسلمين فكانوا اهل عفو واصحاب مروءة .

لكن مما يؤسف له ان الكامل ابن اخي صلاح الدين سلم بيت المقدس للصليبيين سنة ٦٢٥ هـ بعد أن مكث فيه المسلمون

(١) المصدر السابق - انظر الحركة الصليبية لسعيد عبد الفتاح عاشور ج ٢ ص ٨٢٤ وما بعدها .

اثنتين وأربعين سنة منذ أن فتحه عمه صلاح الدين ، ليتفرغ
لنواوة خصومه من بني جلده ، قال شهاب الدين المقدسي :
« وحاء الخبر بأن الكامل اخلى البيت المقدس من المسلمين
وسلّسه الى الفرنج وصالحهم على ذلك وعلى تسليم جملة من
القرى فتسلموه ودخلوه مع ملكهم الانبرور ، وكانت هذه من
الوصسات التي دخلت على المسلمين ، وكانت سببا في ان توغرت
قلوب أهل دمشق على الكامل ومن معه » (١) .

أقول : وهذا ما يحدث في أيامنا هذه ونحن في القرن
العشرين وما نشاهده من خلاقات عربية بين العرب بعضهم مع
بعض . وبين الصهيونية التي مدت سيطرتها على جزء كبير من
البلاد العربية بسبب تفرقهم ، فمتى ينتبه المسلمون من سباتهم ،
ويستيقظ العرب من رقدتهم وتتوحد كلستهم ويكونون صفا
واحدا لمواجهة هذا الخطر - خطر الصهيونية - وليستعيدوا حقهم
المسلوب المغصوب ، ويحفظوا كرامتهم وشرفهم .

وان الامل المنشود - بتحرير الوطن العربي - لا يتم مالم

(١) تراجع رجال القرنين السادس والسابع ص ١٥٤ .

نحرر أنفسنا من الشهوات ، وعقولنا من الخرافات ومجتبنا من
الفساد ، وسياستنا من الانقسامات ، فلا يحارب بعضنا بعضا علنا
أو يكيد لغيره سرا ، فالاهواء مشتتة والغايات مبددة والاهداف
متباعدة والسبل متناقضة •

لا همَّ قد أصبحت أهواؤنا شيئا
فامن علينا براع انت ترعاه
راع يعيد الى الاسلام سيرته
يرعى بنيه وعين الله ترعاه

أراني قد شط بي القلم وسرح بي الخيال حتى بعدت عن
الغاية التي أرمي اليها - الكتابة عن عصر ابن القيم - ولكنها
نفثة مصدور ، وأنة مفؤود يروح بها عن صدره ويريح بها
فؤاده •

نتائج الحروب الصليبية لدى المسلمين والصليبيين

فالحروب الصليبية التي بدأت عام ٤٩٠ هـ واستمرت الى سنة ٦٩٠ هـ والتي ذهب ضحيتها الكثير من الارواح والاموال، قد خرج منها المسلمون وقد صهرتهم التجربة ، والتقوا بالافرنج في ساحات الحرب فعرفوا عنهم الكثير من الفنون الحربية .

فالمسيحيون الذين صبغوا الحروب الصليبية بصبغة دينية وزعموا انهم يحاربون لتخليص بيت المقدس ، واستجابة للعقيدة الدينية فهذا التعصب لدينهم من جانبهم هو الذي جعل في المسلمين رد فعل قوي ، حفزهم على الاستسساك بدينهم والعمل على نصرته . فقد ولدت هذه الحروب في نفوس المسلمين روح الاستبسال والتضحية . وخلعت عنهم ثوب الخمول فاتخذوا الجهاد شعارا لهم | ولا مثل العقيدة حافزا | كما اكتسبتهم سعة طيبة لدى العالم المسيحي ، ونفت عنهم تلك الاقاويل التي كانت تفترى عليهم من انهم وثنيون قساة الاكباد . ورجع الآلاف منهم الى مواطنهم يحملون اخبارا تناقض ما كان ينشره دعاة الحرب من رؤساء الكنيسة ، من أن المسلمين جماعة من الوثنيين غلبوا على الارض المقدسة وأجلوا عنها دين التوحيد ، ونفوا منها كل

فضيلة واخلاص ... وقصوا على قومهم من المسلمين أهل دين
وتوحيد ومروءة وذم وود ووفاء وفضائل جنة (١) .

غزو التتار للاسلامية :

لم تكن الحرب بين المسلمين والغزاة الصليبيين - والتي دامت
قرنين كاملين هلك فيها من الفريقين ستة أجيال أو سبعة - أشد ما
دهمى المسلمين في ديار الشام من غزو التتار القادمين من الشرق
الاقصى . اذ كانت بغداد قد سقطت سنة ٦٥٦ هـ وهي عاصمة
الخلافة الاسلامية . فهذا الحادث الجلل زلزل كيان العالم
الاسلامي وحطم جهاز الدولة الاسلامية . فعندما استولى
هولاكو على بغداد بالتواؤم مع رئيس الحجاب [الوزراء]
ابن العلقمي قتل الخليفة المستعصم بالله شر قتلة . وقتل أهله
وحريسه . وأمر بضرب اعناق الفقهاء والعلماء والاعيان . واستمر
القتل والنهب والسبي في بغداد بضعة وثلاثين يوما . ولم ينج من
هذه الطامة الكبرى الا من اختفى في بئر أو سرداب . ثم أمر هولاكو
بعد القتلى فبلغوا الف الف وثمانمائة الف وكسرا (٢) .

(١) الاسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٢١٧ ونسب
القول الى الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده .
(٢) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٥١٠ .

سقطت بغداد سنة ٦٥٦ هـ أي قبل القضاء على الصليبيين
ب ٣٤ عاما وكانت ديار الشام تعاني الامرين من حربها مع
الصليبيين عندما دهمتهم فاجعة سقوط بغداد ، فأصبحوا بين
مصيبتين اخفها شر من الشر ، حرب في البلاد مع الصليبيين مع
تفرقة في صفوف المسلمين نظرا لطمع كل امير من أمراء المماليك
بالاستقلال بما تحت يده من البلاد ، وخوف من مdahمة التتار
لهم في تلك الايام العصية ، فبالقضاء على الخلافة الاسلامية
انقرط عقد الاسلام ، وأصبحوا لا رابطة تربط بين ولاه الاقاليم
مادامت رابطة العقيدة - وهي العروة الوثقى - انتقضت عروة
عروة - فيما بينهم - وكيف يصلحون وهم كما قيل :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم

ولا سراة اذا جهالهم سادوا

عاشت الامة الاسلامية تلك الفترة في بلاء مستمر وهول
يذهل المرزعة عما ترضع ، يقاتلون الصليبيين في الداخل ،
ويحاولون رد هجمات التتار الذين اكتسحوا الموصل وحلب وحماة
وحمص ودمشق ، فلا يكادون يلمون شعثهم ويوحدون صفوفهم
حتى يفجأهم الصراع بين امراء المماليك على السلطة في مصر
وبلاد الشام .

كان امراء المماليك مستقلين بعضهم عن بعض استقلالاً تاماً
وكانت عروشهم تزلزلها عواصف أربع :

- ١ - خضر المغول القادمين .
- ٢ - خضر النصليين المحتلين .
- ٣ - الخلافات الداخلية على السلطة .

٤ - الخوف من قيام بعض الايوبيين يدعوا لنفسه ، فيتبعه
شعب .

وكان أول ماوك الترك بالديار المصرية ، هو السلطان عز الدين أيبك . فقد اتفق الامراء على سلطنته بعد أن قتل المعظم نوران شاه . وخلفته شجرة الدر على ملك مصر . وكانت بيعته في اواخر شهر ربيع الآخر سنة ٦٤٨ هـ وظل حاكم مصر الى ان قتلته زوجته شجرة الدر بسوء آذرة بعض الخدم في يوم الثلاثاء ٢٣ ربيع الاول سنة ٦٥٥ هـ . ثم خلفه ابنه السلطان الملك المنصور نور الدين علي على ملك مصر في يوم الخميس خامس وعشرون من ربيع الاول سنة ٦٥٥ هـ وظل حاكم مصر الى ان عزل قطز على انتزاع السلطنة منه في ١٧ من ذي القعدة سنة ٦٥٧ هـ وظل حاكم مصر الى أن قتله الظاهر بيبرس في ذي القعدة سنة ٦٥٨ هـ وكان أن هزم قطز التتار في موقعة عين جالوت وهو اول من حكم البلاد الشامية والمصرية . وخلفه السلطان الملك [القاهرة ثم الظاهر ركن الدين ابو الفتوح بن عبد الله البندقداري] سلطان الديار الشامية والمصرية والاقطار الحجازية وهو الرابع من ملوك

أُلتُرك وظل حاكم مصر الى أن توفي في يوم الخميس ٢٩ محرم
سنة ٦٧٦ هـ (١) .

تنصيب خليفة في القاهرة :

حرص الظاهر بيبرس سلطان مصر والشام على تنصيب
خليفة من بني العباس ليظهر بمظهر حامي الاسلام وليستند
سلطته منه فتكون شرعية لا مجال للاعتراض عليها، فما كاد يعلم
أن أحد بني العباس وهو أحد أبو القاسم وصل الى دمشق
فاراً من ظلم وعسف التتر حتى أوصى نوابه بإكرامه وأن
يسير معه حجاب من دمشق (٢) .

وصل أبو القاسم أحمد الى القاهرة في ٨ رجب سنة ٦٥٩ هـ
فقابلته السلطان ، والوزير وقاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب
ابن بنت الاعز والعلماء والمؤذنون واليهود والنصارى .

ثم بعد خمسة ايام من وصوله عقد السلطان الظاهر مجلساً
بالقلعة حضره شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام والامراء
والوزراء والعلماء ، وحضر أبو القاسم أحمد مع العرب القادمين

(١) ابن خلكان ، السلوك قسم / ج ٢ ص ٤٣٩ - ٤٤٢
النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٠٤، ٢٠٥ .
(٢) النجوم الزاهرة ٢٨٦/٧ و ٢٩٢ والسلوك ج/١ القسم
الثاني ص ٤٤٨ .

معه لاثبات نسبه ، فلما ثبت نسبه لدى قاضي القضاة كان اول من بايعه السلطان ، ثم عز الدين بن عبد السلام ، ثم الامراء والوزراء والعلماء .

وبهذا تم للظاهر ما أراد من تنصيب خليفة عباسي ، فلما تست البيعة للخليفة ، قلد الظاهر البلاد الاسلامية وما سيفتحه الله عليه من بلاد الكفار .

وظلت الخلافة لبني العباس في مصر الى تنازل الخليفة المتوكل عن الخلافة للعثمانيين الاتراك ، فانتقلت الخلافة اليهم واتخذوا جميع حقوق الخلافة الاسلامية (١) .

لم يكن الماليك مخلصي النية حين أقاموا الخلافة في مصر ، بل كانوا يهدفون الى تدعيم مركزهم الديني فلم يجعلوا للخليفة من السلطة الا تولية السلطان ؛ فكان الخليفة دمية بأيدي السلاطين يتلهون بها ويخدعون العامة حتى سقطت هبة الخلفاء من نفوس الشعب لما رأوه من استبداد السلاطين بالامر وإهمالهم الخلفاء .

فهذا الملك الظاهر الذي أتى بالخليفة من بغداد كما مر آنفا وأساءه الخليفة الحاكم بأمر الله سجنه في قلعة الجبل

(١) تاريخ دولة الماليك في مصر لسيروليم موير ترجمة محمود عابدين وسليم حسن ص ١٨٤ .

سنة ٦٦١ هـ ولم يسح لاحد بسقابلته مدة ثلاثين سنة^(١) .
وهذا السلطان الناصر محمد بن قلاوون غضب على الخليفة
ابي الربيع سليمان فنفاه الى قوص سنة ٧٣٧ هـ فرحل اليها هو
وأولاده وأسرته^(٢) .

وقد علم الناس ان الخليفة انسان ضعيف لا حول له ولا قوة
فحين عزم الناصر محمد بن قلاوون على استرداد السلطنة اذاع
منشورا على الناس وادعى فيه أن الخليفة أعطاه الحق في السلطنة
قابل الناس هذا المنشور بالسخرية اللاذعة قائلين : الخليفة ! ومن
هو الخليفة ؟ ان هو الارب الرياح وسيدها^(٣) .

إن سبب هذه الاضطرابات هو النزاع بين السلاطين وقادة
الجيش من امراء الماليك اذلك كانت هذه الفترة من تاريخ
البلاد مليئة بالاضطرابات الداخلية فلم يكن السلاطين
آمنين على أنفسهم ما لم يحظوا برضى الأمراء ، فمن رضى عنه
الامراء - أي قادة الجيوش من امراء الماليك - أفسح له في
الحكم ومن سخطوا عليه اوقعوا به الوان العذاب ، وكان سعيد

(١) تاريخ الماليك البحرية للدكتور علي ابراهيم حسن
ص ٢٣٠ لانه تولى الخلافة في المحرم سنة ٦٦١ الى أن توفي
سنة ٦٩٨ .

(٢) النجوم الزاهرة ٢١١/٧

(٣) تاريخ دولة الماليك لسيروليم موير ص ٧٧ .

الحظ من السلاطين من يخلع من السلطنة ، اما من ساء حظه فانه يقتل شر قتلة : كما حل بالاشرف صلاح الدين خليل وهو من اشجع السلاطين ، فقد اجتمع عليه الامراء وكان قد خرج للصيد ، فقد ابتدره أول من ابتدره الامير ببدار ، فضربه بالسيف ضربة قطع بها يده من كتفه ، فجاء الأمير حسام الدين لاجين وهو الذي تسلطن بعد ذلك بمدة وقال لبديرا : يانحس من يريد ملك مصر والشام تكون هذه ضربته . ثم ضربه على كتفه فحلها . ودفع السلطان على الارض . فجاء بعدهما الامير بهادر — وكانت وظيفته الحكم على الممالك السلطانية — وأخذ السيف ودسه في دبره حتى اطلعه من حلقه (١) .

وبعده اقيم اخوه ناصر الدين ابو الفتوح محمد ، وكان عمره تسع سنين ، ويقال : انه عندما اقيمت له حفلة التتويج حمله رئيس الحجاب على عاتقه ليراه الناس ويراهم ، ولما رأى الامراء والاجناد والاعلام والطبول هاب الموقف فبال على الوزير ، ثم خلع سنة ٦٩٤ هـ ثم تولى مكانه زين الدين كتبغا ، فخلع في العام نفسه ثم تولى حسام الدين لاجين فقتل سنة ٦٩٨ هـ ، ثم أعيد الناصر محمد بن قلاوون ، واستمر الى سنة ٧٠٨ هـ ، فخرج من مصر متظاهرا بالحج . ولكنه عرج على الكرك مضطرا لانه كان

(١) النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٧ .

مشلول الحركة ضعيف الارادة فعزل نفسه لان الامراء كانوا مستبدين بالحكم . فتولى مكانه بييرس الجاشنكير . ولكن الناصر حاول الرجوع من الكرك فلما علم بييرس بذلك جدد العهد من الخليفة . فلما قرىء العهد على المنابر في القاهرة صاح الناس وضجوا لميلهم الى الناصر . ولما علم بتأييد الشعب له ونفوره من بييرس طرق الحديد محبياً . وذهب الى دمشق ومنها الى القاهرة . ففر بييرس الى اسوان ، ودخل الناصر مصر ودخل الجميع في طاعته . ولم يعف الناصر عن خصه بل احضره واعتقله ثم خنقه واستمر الناصر في حكمه الى سنة ٧٤١ هـ ، ثم أقيم ابنه ابو بكر فلم يقم في الحكم الا شهرين ثم خلع ونفي هو واخوته الى قبرص . ثم قتل بهاء وبعده اقيم اخوه علاء الدين [كجك] ومعناه الصغير ، وعمره دون ست سنين ، فلم يلبث الا ستة اشهر . ثم خلع واعتقل حتى مات . وبعده تولى اخوه شهاب الدين أحمد الناصر وبقي أربعين يوماً ثم خلع سنة ٧٤٣ هـ وقتل سنة ٧٤٥ (١) .

وهكذا كان الحال الى سنة ٦٩٢ اي بعد تطهير البلاد من الصليبيين ، على يد الملك الاشرف خليل بن الصالح قلاوون الذي قتل غيلة كما مر فاستولى على الملك بيدرا أحد أعيان المماليك

(١) حسن المحاضرة ج ٧ ص ٧٤ الى ص ٧٧ ملخصاً .

ثم خلعوه وبايعوا الناصر بن قلاوون ثم تغلب عليه نائب السلطنة
 كتبغا و ستأثر بالملك وسجن سلفه في قلعة الجبل ، ثم خرج على
 كتبغا نائبه لاجين المنصوري واستولى على الملك ، فلا يكاد
 يستلم النائب زمام الحكم حتى تحدثه نفسه بالاستقلال وشق
 عصا الطاعة والخروج على السلطان ، فالنزاع مستمر بين السلطان
 ونوابه . فان ظفر النائب بالسلطان حل محله ، فخطب باسمه
 وضربت السكة برسه واختار من الالقاب الفخمة الضخمة ما
 يشتهي كـ المنصور . والناصر . والاشرف ، والمؤيد والظاهر ، وان
 ظفر السلطان بنائبه نكل به وجعله عبرة لغيره ثم استبدل
 به سواه .

هكذا كان واقع البلاد ، وهكذا كان شأن الأمة مع ولايتها
 وملوكها وقادة الامر فيها ، ولشدة ما عانت الامة من سوء تصرف
 ولايتها قال ابن الوردي يصف الواقع المؤلم ويصوره اوضح
 تصوير :

هذي امور عظام
 من بعضها القلب ذائب
 ما حال قطر يليه
 في كل شهرين نائب^(١)

(١) نائب : ملك .

الخوارزمية : رأينا - فيما مر - صورة للبلاد من جانب واحد
تشمز منها النفوس ، وهناك صور أخرى من جوانب أخرى
تتشعر منها الابدان ، من فتن داخلية وهجمات مغولية . فكان
كلما تهادن ملوك المسلمين مع الصليبيين ، استجماعا للقوة ،
واستجماما للراحة ؛ كانت الهدنة من حظ الصليبيين اكثر فائدة
منها للمسلمين [كما هو الحال الآن مع الصهيونيين] ، ففي الفترة
بين الحملتين السادسة والسابعة وهي آخر الحملات بينما كان
الصليبيون آمنين في القدس وعكا وصور ينتظرون وصول
النجادات ، كان الدمشقيون يعانون الامرين من حصار الخوارزمية
تلك الفئة المفسدة الباغية الذين قتلوا ملكهم ، والتجؤوا الى كقباز
ملك الروم ، وخدموا عنده فلما هلك هذا وتولى ابنه كبخسرو
قبض على مقدمهم يركت خان ففارقوا خدمته ، فاستمالهم الملك
الصالح أيوب بن الكامل ^(١) ثم فارقهم في شمالي سوريا وعاد الى
مصر ، فكثر عيثهم وفسادهم ونهبهم في بلاد حلب وأحرقوا
الاقوات التي في القرى وارتكبوا من الفواحش والقتل أكثر مما
ارتكبه التتر ، ثم رجعوا الى بلادهم حران وما معها ، وفي سنة
٦٤٢ استدعاهم الملك الصالح أيوب لنصرته على عمه الصالح
اسماعيل صاحب دمشق فانهاجوا نحو دمشق مسرعين ، ولكن

(١) وهو الذي سلم القدس للصليبيين كما مر .

لما تم الامر صلحا بين الصالح أيوب وعنه اسماعيل على أن تكون بيد الصالح اسماعيل بعلبك وبصرى^(١) والسواد . لم يرضهم هذا وخرجوا عن طاعة الصالح أيوب لانهم كانوا يودون فتح دمشق عنوة ليشبعوا نهمهم سلبا ونهبا وتخريبا ، فالتجؤوا الى الصالح اسماعيل وزينوا له استرجاع دمشق وانضم اليهم الناصر داود صاحب الكرك ، وساروا الى دمشق وحاصروها فقاسى اهلها شدة عظيمة ، ولنستمع الآن الى مؤرخ الاسلام الحافظ الذهبي يحدثنا عن فظائعهم في دمشق قال : واشتد البلاء في دمشق واحترقت العقيبة والخوانيق . ودام الحصار خمسة اشهر وهلك العوام موتا وجوعا وقل القوت بالبلد حتى بلغت غرارة القمح الفا وستائة درهم وبيع الخبز كل اوقيتين بدرهم وأكلوا الميتة وبيعت الاملاك والاشياء بالشيء اليسير وبيع رطل اللحم بتسعة دراهم ، وأتت البلد بالموتى على الطرق ، وعظم الخطب^(٢) .

وذكر غيره من المؤرخين قال : وقطعت الخوارزمية الضرق على الناس ، وزحفوا الى البلد من كل ناحية ورموا النيران في قصر حجاج وأحرقوا جوسق الملك العادل والد اسماعيل ، وزقاق الرمان الى العقيبة ، ونهبوا اموال الناس ، واحترق بعضها

(١) اي من بعلبك في لبنان الى بصرى من حوران .

(٢) تاريخ الذهبي .

واستولى الحريق على مساجد دمشق وخاناتها ودورها ، واحترق
الشاغور وحكر الساق وخارج باب النصر ، وباب الفراديس ،
وباب السلامة . ونصبت المجانيق وتراعى الفريقان . وجرت أمور
شنيعة بشعة جدا . لم يجر على دمشق مثلها قط ودام الحال كذلك
حتى جاء الصالح ايوب فشنت شملهم وهزمهم شر هزيمة فلهو
فلاهم بالتر •

استمر الزحف المغولي التتري بعد ان سقطت بغداد عاصمة
الخلافة الاسلامية بأيديهم نحو الشرق ، وكان ان سبق هذا
الزحف اخبار الفظائع التي تجري على ايديهم فيمن يستولون
عليه ، فقد دخل في قلوب الناس الهلع والجزع ما لم يسبق له
نظير في تاريخ البشر . حتى كان المغولي الاعزل يدخل على جماعة
من الناس فيهم بذبحهم فلا يجد معه سكيئا فيأمرهم بالانتظار
ريشا يذهب ويأتي بسا يزهرق ارواحهم فيأتسرون ولا يحركون
ساكنا ولا يتحركون ، ولو لم يكن هذا المخبر من عاين ذلك
وشاهده لعد ذلك من أساطير الأولين^(١) •

قد يكون المصاب أخف والفادحة الطف لو اكتفوا بقتل
النفوس البريئة وهدم المدن العامرة وأبقوا على تراث الامة

(١) صبح الاعشى للقفلسندي .

الاسلامية تراثها العلي [المكاتب الاسلامية] تلك المكتبات التي
صهرت في بوتقتها مدينة الفرس والرومان ، وحكمة الهند وفلسفة
اليونان وصاغتھا وصبغتھا بصبغة عربية اسلامية ، ولكنھم
بزحفھم على بغداد اھرقوا عشرات المكاتب العامة ومئات من
المكاتب الخاصة التي حوت ملايين المجلدات في مختلف العلوم ،
والقوا في دجلة ما غير مدادھا صفاء الماء أياما .

وقد فعلوا في حلب عندما احتلواھا من القتل والتخريب
اکثر مما فعلوا في بغداد ، فقد استباحوها اياما حتى لم يبق بها
احد .

جاء في صبح الاعشى للقلقشندي « ان الله سئم دمشق
من عدوان هولاکو فلو تسكن منها لمحا آثارھا وأنسى أخبارھا »
ولم يدر القلقشندي ما خبا القدر لدمشق من المصائب الفادحة
على يد حفيد هولاکو قازان . والطاغية تيمور ففي سنة ٦٩٩ ،
وكان عمر ابن القيم ثمان سنين لما دخل قازان مدينة دمشق قتل فيها
من شيوخ الحديث ما يربو على مائة نفس وفي سنة ٧٠٣ لما زحف
تيمور على دمشق فعل فيها من الفظائع ماسود وجه الدهر فقد
استصفى الاموال وهتك الاعراض وأزهق الارواح واحرق
المنازل والدور والمساجد والقياصر ، حتى اصبحت البلد اطلالا
بالية ورسوما خالية ، فلم يبق فيها الاطفال الذين سنهم دون

الخمس سنوات فبعد ان سبى النساء أجمع وساق الرجال
والاولاد مقرنين في الاصفاط طرحوا النار في كل مكان وكان يوما
عاصفا فعم الحريق جميع البلد حتى صار لهيب النار يناطح
السحاب •

خلد الشعراء تلك المآسي بمرث حتى ليكاد المرء يسمع
الانات ويشعر بحرارة الآهات من خلال قصيدة بهاء الدين
البهائي التي رثى بها مصاب المسلمين في دينهم ودنياهم ، فبعد ان
رثى حمص وحماة وحلب الشهباء ذكر مصاب دمشق فكان مما
قاله في قصيدته :

فشكا الحريق فؤادها لما رأى
نور المنازل ابدلت بدخان

لم أدر من أبكي وأندب حسرة
للقصر للشرفين للميدان

للجهة الغراء ام خلخالها
للمزة الفيحاً أم اللوان^(١)

(١) لم اذكر المراجع التي نقلت عنها تلك الصفحات السوداء
من تاريخ البلاد لاني عندما كتبتها كنت اكتب لنفسى وذلك قبل
أربعين سنة ولم اكن اقدر اني سوف انشرها على الناس ، وقد
تغير مفهوم التأليف اليوم عنه قبل نصف قرن فلا بد اليوم من ذكر
المصدر ولو كان النقل بضعة سطور .

كان انتصار المباليك في موقعة عين جالوت على يد قطز الذي رمى بخودته في ساحة الوعى وصاح [واسلاماه] دليلا كافيا ليسكن للساليك من سلطانهم وأثبتت تلك المعركة للعالم أجمع أن هناك دولة تستطيع ان تقوم على حياية الاسلام بعد سقوط بغداد ، ففي هذه المعركة يقول بعض المؤرخين : ان معركة عين جالوت انقذت العالم المسيحي من التتر في وقت لم يكن من السهل على بلد في اوربا ان يصمد لهم او يقاومهم (١) .

ومن المواقع التي هزم فيها التتار ايضا على يد المباليك . موقعة مرج الصفر في رمضان سنة ٧٠٢ على مقربة من حصص . التقت جيوش غازان (٢) بجيوش المباليك وعلى رأسهم الناصر محمد بن قلاوون . ومعه الخليفة ، في مرج الصفر قرب حصص فهزم التتار شر هزيمة ومات كثير منهم ظلماً ولم تقم لغازان بعد ذلك قائمة .

(١) من اعلام الاسلام (ابن تيمية) للمرحوم الشيخ عبد العزيز المراغي ص ١٢ .

(٢) قازان أو غازان قائد التتار سنة ٦٩٩ كان يريد فتح دمشق . ففرع القوم وخرج جماعة من العلماء منهم ابن تيمية وابن جماعة الى غازان يطلبون الامان فاعطاهم الامان ولكنه كان سرايا يحسبه الظلماء ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً فقد عاث جنوده في بلاد الشام ، ونهبوا ما شاء .

وصف ابن تغري بردي هذه الموقعة فقال : ومشى السلطان والخليفة بجانبه ومعهما القراء يتلون القرآن - وهم في المعركة لا في المساجد - ويحثون على الجهاد ، ويشوقون الى الحنة ، وسار الخليفة يقول : يا مجاهدون لا تنظروا لسلطانكم قاتلوا عن دين نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم وعن حريمكم ، والناس في بكاء شديد ومنهم من سقط عن فرسه الى الارض ، وكان السلطان والخليفة يكران في العسكر يمينا وشمالا ويقول : ركبهم البلاء من المسلمين ، وأيدهم الله بنصره حتى حصدوا رؤوس التتار عن أبدانهم ، ومروا في أثرهم قتلا وأسرا (١)

ثم كتب بهذا الفتح العظيم الى سائر الاقطار ، وتساقطت عبرات الناس فرحا ودقت طبول البشائر في سائر الممالك •

وقد أراح الله المسلمين من قازان فمات غيظا عقب الهزيمة وهو لا يزال غض الإهاب سنة ٧٠٤هـ ثم تحسن الحال بين المسلمين والتتار ، لما فهم التتار أنهم بعيتهم وفسادهم لم ينالوا خيرا ، منذ أن خرجوا من ديارهم غزاة سنة ٦٥٤هـ أي قبل نصف قرن ، فأينما حلوا حل البلاء والشقاء ، وخلصوا الى السكينة ولكن خمود النار تحت الرماد • فبعد موت قازان بثمانية عشر عاما أي سنة ٧٢٢هـ تفاهم

(١) النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٦٠ نفس المرجع ص ١٦٣ .

الملك الناصر مع أبي سعيد حاكم التتار . وزالت الاحقاد بين
الفريقين وحل الود والصفاء محل الخصام والجفاء (١) .

كان من أثر هاتين المصيبتين - الغربية والشرقية . وانتصار
المسلمين على المستعمرين الغربيين والافزاة الشرقيين . وقد
صهرتهم التجارب وصقلتهم الحروب - أن عادت اليهم عزتهم
وكرامتهم وامتلات نفوسهم حساسة وقوة واعتدادا بالنفس .
فتطلعوا الى الحياة الكريمة ومنها الحرية بكل أشكالها وأبعادها
أما حريتهم السياسية فقد بدت مظاهرها بعلاقتهم مع الحكام .
فلم يعودوا يركنون اليهم الركون التام . وأعانهم على ذلك
العلاء الاحرار الذين هم - وحدهم - الملاذ والملاجئ للشعب في
لياليه المدهشة .

(١) دراسات في تاريخ الممالك البحرية ص ١٥٩ .

اثر هذه الحروب في نفوس المماليك ومواقف العلماء في وجه المماليك :

أما أثر هذه الحروب في نفوس الملوك المماليك فكانت استبدادا بالشعب بحجة أنهم حماة البلاد ، وسادة العباد ، لذلك رأينا الملك الظاهر التقي الورع المجاهد ، يرى أنه يحق له فرض ارادته على الشعب وأخذ أمواله بحجة المصلحة العامة وقتال الاعداء ، وقد ظلم أهل الشام غير مرة ، وأفتاه جماعة بما يوافق هواه . فقام الشيخ محي الدين النووي ، في وجهه وأنكر عليه وقال : أفتوك بالباطل ، ذكر السيوطي في حسن المحاضرة قال :

لما خرج الظاهر بيبرس الى قتال التتار بالشام أخذ فتاوى العلماء بأنه يجوز له أخذ مال من الرعية ليستنصر به على قتال العدو فكتب له فقهاء الشام بذلك فقال - أي الظاهر - هل بقي أحد ، فقليل : نعم بقي الشيخ محي الدين النووي فطلبه فحضر فقال : اكتب خطك مع الفقهاء . فامتنع فقال : ما سبب امتناعك ؟ فقال : أنا أعرف أنك كنت في الرق نلامير .

بندقدار ، وليس لك مال ، ثم من الله عليك وجعلك ملكا .
وسمعت أن عندك ألف مملوك كل مملوك له حياصة^(١) من ذهب
وعندك مائتا جارية لكل جارية حق من الحلي فاذا أنفقت ذلك
كله وبقيت مساليكك بالبندود الصوف بدلا من الحوائص وبقيت
الجواري بشياهن دون الحلي ، أفيتيتك بأخذ المال من الرعية فغضب
الظاهر من كلامه ، وقال : اخرج من بلدي ، يعني دمشق ، فخرج
الى نوى ، فقال الفقهاء : ان هذا من كبار علمائنا وصلحائنا ومن
يقتدى به فأعده الى دمشق فرسم برجوعه فامتنع الشيخ وقال :
لا أدخلها والظاهر بها فمات الظاهر بعد شهر^(٢) .

ومن مواقف العلماء المشرفة ، موقف سلطان العلماء العز بن
عبد السلام يوم مبايعة الظاهر بالسلطنة . فكانت جرأته وصراحته
بقول الحق مثلا أعلى يقتدى به ، فقد ذكر السيوطي في حسن
المحاضرة أن الظاهر يبهرس هم بأخذ البيعة لنفسه بعد أن قتل
قطز ، فجمع القضاة والعلماء والعلية من القوم ، وأوشكت
البيعة أن تتم ، غير أن الشيخ ابن عبد السلام امتنع عن مبايعته
لأنه لم يثبت لديه حرية يبهرس وقال له : يا ركن الدين أنا
أعرفك مملوكا للامير بندقدار ، فاستحضر يبهرس شهودا

(١) حياصة : منطقة .

(٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦٦ المصدر السابق .

شهدوا على خروجه من ملك البندقدار وحريره . فتست
اليعة^(١) .

ولم يقف الامر عند هذا الحد بجرأة ابن عبد السلام على
الملك الظاهر بل تعدى ذلك الى بقية الامراء المماليك .

لما طغى هؤلاء على الناس واستطالوا على الحقوق وثقلت
وطأتهم على الناس حتى استشرت بهم المظالم ، قام الشيخ
ليقف موقفه الفريد في كل عصور التاريخ ، اذ أعلن أن هؤلاء
الامراء ممالك وأن حكم الرق قائم فيهم ، وهم بالتالي من
أملاك بيت المال فلا يجوز تصرفهم ولا معاملاتهم الا باذن
الملك ، لذلك يجب بيعهم شرعا كما يباع الرقيق ، وضرب لبيعهم
موعدا بعد أن يكون قد تعامله الناس ، فهاج الامراء وماجوا
وانحاز السلطان الى جانبهم ، وكان فيهم نائب السلطنة ،
فاحتج العز على تأييد السلطان لهم ، واستقال من رئاسة
القضاء ، وغزم على مغادرة مصر ، وركب حمارا وأركب أهله
على حمار آخر وساروا .

فماذا حدث ؟

لم يبق رجل ولا امرأة ولا طفل في مصر الا وخرج وراءه
وأخذوا كلهم يطلبون منه العودة ، وذهب من يقول للسلطان
متى راح ابن عبد السلام ذهب ملكك فركب السلطان بنفسه

(١) المصدر السابق .

ولحق به وأجابه الى ما يريد وأعاده ، وهكذا لم تزد هذه الضجة كلسة الشرع الا استعلاء ، والشيخ الا اصرارا ومضاء ، وجن جنون الامراء . وعزم نائب السلطنة على قتل العز بسيفه ، فركب في جساوته وجاء الى باب الشيخ والسيف مسلول في يده فطرق الباب ، فخرج ابن الشيخ فرأى من نائب السلطنة ما رأى فعاد الى أبيه . وأخبره في الحال فما اكرث لذلك وما تغير وقال : يا ولدي إن أباك أقل من أن يقتل في سبيل الله ثم خرج ، فكان قضاء الله نزل على نائب السلطنة ، فبيست يده على السيف وسقط السيف منها وارتعدت مفاصله فبكى . ثم سأل الشيخ أن يدعوه له . وقال : يا سيدي ما تصنع بنا ، قال الشيخ : أنادي عليكم وأبيعكم . قال نائب السلطنة : وفيم تصرف ثمننا ؟ قال الشيخ : في مصالح المسلمين . قال النائب : ومن يقبضه ؟ قال الشيخ : أنا ، والحق ان الذي يقول : أنا هو الشرع بلسان العز بن عبد السلام .

وهكذا كان ، فتم للشيخ ما أراد ونادى على الامراء واحدا واحدا واشتط في ثمنهم ، لا يبيع الواحد منهم حتى يبلغ الشن آخر ما يبلغ ، ودفع الظلم والنفاق والتكبر والاستطالة على الناس بهذه الكلمة التي أعلنها الشرع ، (أمراء للبيع أمراء للبيع) .

ليست هذه الحادثة الفريدة من نوعها بين العلماء والامراء بل هناك مواقف كثيرة وقفها ابن عبد السلام وغيره من العلماء المخلصين لدينهم وأمتهم ، وهاك موقفا أشد وأبلغ وقفه العز ابن عبد السلام ، مع الملك الصالح الايوبي ملك دمشق ، عندما اتفق مع الصليبيين على أن يناصروه ضد نجم الدين ملك مصر مقابل اعطائهم قلعتي صيدا والثقيف وأن يسمح لهم بدخول دمشق متى أرادوا •

وفعلا بدأ الصليبيون بدخول دمشق وأخذوا يشترون منها السلاح والعتاد ، فأفتى الشيخ ابن عبد السلام بتحريم بيع السلاح للصليبيين ، فلم يبيعهم أحد من أهل الشام قطعة سلاح قط ، ولم يكتف بهذا الحد بل وقف على المنبر في يوم جمعة مشهود ، وخطب في ذم موالاته الاعداء وتقبيح الخيانة وأوشكت الخطبة على النهاية وحان الدعاء التقليدي للملك ، - والملك حاضر في المسجد - فما كان من العز الا أن أعلن أن الملك قد خان الامانة وأن الخائن لا ولاية له ، وأعلن اسقاطه من الحكم ، ثم قال قبل أن ينزل عن المنبر : اللهم أبرم لهذه الامة أمر رشده تعز فيه وليك ، وتذل فيه عدوك ، ويعمل فيه بطاعتك ، وينهى فيه عن معصيتك ، والناس يعجبون بالدعاء آمين آمين ، ثم نزل ، فألقي القبض عليه ، ووضع تحت الإقامة الجبرية في بيته فهاج

أهل دمشق ، وضع العلماء ، وكثر قتل الصليبيين في الشوارع ،
وخطفهم من المدن ، فسمح له الملك بمغادرة دمشق الى مصر ،
ولكن الثورة بقيت متأججة ، فاضطرب الملك ونكسته الحيرة
على رأسه ، فوجه أمراً لحاكم نابلس أن يبقى الشيخ عنده ،
ثم أرسل إليه الملك رسولا من عنده يتلطف به ويسترضيه ، فقال له
الرسول : بينك وبين أن تعود الى مناصبك وما كنت فيه وزيادة
أن تنكسر للملك وتقبل يده لا غير ، فقال له الشيخ بلهجة
المسلم المؤمن : يا مسكين والله ما أرضاه أن يقبل يدي فكيف
أقبل أن أقبل يده ؟ يا قوم أأنتم في واد وأنا في واد ، والحمد
لله الذي عافاني مما ابتلاكُم به ، فبقي معتقلا في نابلس حتى
خلصه نجم الدين بعد انتصاره على الصالح اسماعيل الخائن ،
بنظر الدين الذي سلم القدس للصليبيين كما مر وسلمهم قلاع
المسلمين وسمح لهم بدخول عاصمته لشراء السلاح والعتاد ،
ليتفرغ لقتال عمه نجم الدين ، ولكن سنة الله في خلقه أنه يسهل
للظالم ولا يهمله فاذا أخذه أخذه عزيز مقتدر .

وموقف آخر للشيخ عز الدين بن عبد السلام لا يقل روعة
عما سبق جرى له مع نجم الدين ملك مصر الذي خُصه من سجن
نابلس . خرج الشيخ في يوم العيد للصلاة فشاهد الجنود
مصطفين بين يدي السلطان نجم الدين وقد خرج غلى قومه في

يوم زينته . وأخذ الامراء يقبلون الارض بين يديه فناده
الشيخ بأعلى صوته يا أيوب : ما حجتك عند الله اذا قال لك :
ألم ابوىء لك ملك مصر ثم تبيع الخصور ؟ فقال الملك : هل
جرى هذا ؟ فقال الشيخ نعم الحانة الفلانية تباع فيها الخصور ،
وغيرها من المنكرات ، وأنت تتقلب في نعمة هذه السلطنة ، قال
الملك : يا سيدي هذا ما أنا عملته ، هذا من زمان أبي فقال
الشيخ : أأنت من الذين يقولون : انا وجدنا آباءنا على أمة
وإنا على آثارهم مهتدون ، فأمر الملك بإغلاقها من ساعته فلما
عاد الشيخ الى مدرسته ، قال له أحد تلاميذه : لم فعلت ذلك
وكان يسعك أن تنصحه بينك وبينه ، فقال يا بني : لقد رأيته في
تلك العظيمة فأردت أن أهينه لتلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه ، قال
التلميذ : يا سيدي أما خفته ؟ قال العز : لقد استحضرت هبة
الله تعالى اذ أخاطبه فصار السلطان أمامي كالقبط !!!

ليس العز بن عبد السلام هو العالم الوحيد الذي له هذه
المواقف من الملوك والسلاطين بل هناك في عصره كثيرون لهم
مثل هذه المواقف المشرفة كالامام النووي وابن تيمية وابن
قيم الجوزية .

ولئن استطرد بي القول فليس هو عن سهو او غفلة
أو شط في القلم ، أو سرح في الخيال ، ولكن ليعلم العلماء

الذين هم في عصر النور - القرن العشرين - سيرة أسلافهم
فيسلكوا سبلهم وينهجوا طريقهم ، بالامر بالمعروف ، والنهي
عن المنكر . وليعلموا أنه مهما عظم سلطان الظالمين فعظمة الله
أعظم وسلطانه أكبر ، وهو وحده الذي يؤتي الملك من يشاء .
وينزع الملك من يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، بيده
الخير وهو على كل شيء قدير .

انتصار العلماء على الامراء وتزلف الامراء الى الشعب والعلماء :

رأى الامراء المماليك أن سلطان العلم أقوى من سلطانهم .
وتفوذ العلماء في نفوس الأمة المؤمنة أكثر مضاء من عدد عتادهم .
فأخذوا يتوددون الى الشعب عامة والى العلماء خاصة ، يتزلفون
لهم ببناء المدارس والمساجد والتكايا والزوايا والمشافي ، ويتقربون
الى الشعب بالاحسان اليهم ، وسد عوزهم ، والنظر في شؤون الفقراء
والايتام والمساكين وابن السبيل ، فهذا الملك الظاهر بيبرس ، بعد
ما أخفق في مصادرة أموال التجار ، بحجة الاستعانة بهذه الاموال
على قتال الاعداء ، كما سبق ذكره ، عاد ورجع الى الصواب ،
والرجوع الى الحق خير من التماذي في الباطل ، كان يتصدق في
كل سنة بعشرة آلاف إردب قمح على الفقراء والمساكين وأرباب

الزوايا ، وكان يرتب لايتم الاجناد ما يقوم بهم على كثرتهم ،
ووقف وقتا خاصا على تكفين أموات الفقراء والغرباء بالقاهرة
ومصر ، ووقفا ليشتري به خبز ، ويفرق في فقراء المسلمين^(١) .

فهذه الاعمال الخيرية التي صدرت عن بيبرس وغيره من
أمراء المماليك ليست سجية في طباعهم ، لاننا رأيناهم ينتهزون
الفرص لمصادرة أموال الاغنياء محتجين بأوهى الاسباب ، كإعادة
فلسطين لاربابها بعد ما احتلها المغتصبون ، فكانت سياستهم
مكافيلية [الغاية تبرر الوسطة] فاذا أخفقوا بظلم الشعب لجؤوا
لتقليد الصالحين منهم ، ورحم الله أبا الطيب المتنبي القائل :

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعله لا يظلم

فهذا الظاهر بيبرس بعدما أخفق في ظلمه للشعب لتوطيد
دعائم ملكه نهج منهج من سبقه من السلاطين الصالحين ، سواء
أكانوا من سلاطين مصر ، أو سلاطين الشام ، الذين كان فعل الخير
سجية لهم ، كنور الدين زنكي ، وصلاح الدين الايوبي .

ولنصنع الى ابن خلكان يحدثنا عن أعمال نور الدين في
ترجمته له اذ يقول : وكان رحمه الله ملكا عادلا زاهدا عابدا
متمسكا بالشريعة ، مائلا الى أهل الخير ، مجاهدا في سبيل الله

(١) النجوم الزاهرة ص ١٨٠ .

تعالى ، كثير الصدقات ، بنى المدارس بجميع بلاد الشام الكبار ، مثل دمشق وحلب وحمص وحماة وبلبك ومنبج والرحبة ، وبنى بمدينة الموصل الجامع النوري ، ورتب له ما يكفيه ، وبحماة الجامع الذي على ظهر العاصي ، وجامع الرها ، وجامع منبج ، وبيمارستان دمشق ، ودار الحديث بها . وله من المناقب والمآثر والمفاخر ما يستغرق الوصف ، وبالجمله فان محاسن نور الدين كثيرة ، وكانت وفاته بعله الخوانيق ، ودفن في بيت بالقلعة كان يلزم فيه الجلوس والمبيت : [يعنى أنه لم يأبه بالدور الفاخرة والقصور العامرة] ثم نقل انى تربته بمدرسته التي أنشأها عند باب الخواصين ، وسعت من جباة من أهل دمشق يقولون : ان الدعاء عند قبره مستجاب ، وقد جربت ذلك وصح ... (١)

ومثل نور الدين زنكي خلفه صلاح الدين الايوبي ، فقد ذكر ابن خلكان أيضا أن صلاح الدين لما ملك الديار المصرية لم يكن بها شيء من المدارس ، فان الدولة المصرية - يعني الفاطمية - كان مذهبها مذهب الامامية فلم يكونوا يقولون بهذه الاشياء ، فعمر في القرافة الصغرى المدرسة المجاورة لضريح الامام الشافعي . رضي الله عنه ، وبنى مدرسة بالقاهرة ، في جوار المشهد المنسوب الى الحسين بن علي رضي الله عنهما . وجعل غليها وقفا كثيرا ،

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٨٧ طبعة احمد الباني الحلبي .

وجعل دار سعيد السعداء خادم المصريين . خاتناه ، ووقف عليها
وقفاً طويلاً . وجعل دار عباس مدرسة للحنفية وعليها وقف جيد
كبير . وخاتناه أيضاً لها وقف كثير ، وبني بمصر مدرسة للمالكية . .
الى أن قال : ولقد فكرت في نفسي من أمور هذا الرجل وقلت :
انه سعيد في الدنيا والآخرة . فانه فعل في الدنيا هذه الافعال
المشهوره من الفتوحات الكثيرة وغيرها ، ورتب هذه الاوقاف
العظيمة . وليس فيها شيء منسوب الىه في الظاهر وهذه صدقة
انسر على الحقيقة^(١) .

موقف أمراء المماليك من العلم وانعلماء ومساهمة انعلماء في اعادة بناء النهضة :

عرف المماليك أن العلم سياج الدولة وعنادها . والعلماء هم
حيلة هذا العلم ورواد الامة ، فعملوا على تشجيع العلوم . والتزلف
الى العلماء فبنوا لهم المدارس . والمساجد ، والخوانق ، والربط ،
وأجزلوا العطاء للعلماء ، وأوقفوا على ما بنوا الاوقاف العظيمة ،
وذلك لانهم كانوا ينشئون دولة ، فرأوا ان خير ما يضمن لهم

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٠٣ .

البقاء هو تشجيع العلوم والظهور أمام المسلمين بأنهم حواة الدين المدافعون عن البلاد والعباد . وقد ظهر هذا من موقفهم مع التتار والصليبيين .

وقد ساهم العلماء في بناء هذه النهضة العلمية فهبوا لآحياء العلوم بعد تلك النكبة التي قضت على الشيء الكثير من التتار العلمي يوم سقطت بغداد . وذهب ضحيتها مئات من العلماء . ومئات الآلاف من الكتب القيصة التي لم يبق منها الا الاسماء في طيات الكتب . لهذا نرى أن الاسباب توافرت على نهضة علمية آتت ثمارها ، فزخرت المكتبة العربية بثمار فكرية في الدراسات المتنوعة . وتنتاج علمي عظيم في ظل حكام مخلصين له مشجعين عليه . فكان للعلماء الحرية التامة في ابداء آرائهم في معالجة الامور السياسية ، والاجتماعية ، والدينية ، تلك الحرية التي ظهر أثرها أكثر ما ظهر في الامور الدينية ، والاجتماعية . ليعالجوا بها ما أصاب الأمة من نكبات التتار والصليبيين . مدة تزيد على ثلاثة قرون .

ولعل هذا ما يفسر لنا هذا الاتجاه الذي سار عليه ابن تيمية ، وتلميذه ابن القيم ، من حرية في البحث العلمي كان من أثرها آراء جديدة لم يسبقهما إليها غيرهما من العلماء والمفكرين

وهو ما دعا العلماء ليشنعوا عليهما عندما أخفقوا في التصدي لهما
بالأبحاث العلمية •

من هذه الآراء ما أثر عن ابن تيمية في السفر الذي يبيح
الفطر . وقصر الصلاة من غير الزام بمدة السفر ، الذي اختلف
فيه الفقهاء فقد رأى أن مطلق السفر يبيح الفطر وجمع الصلاة
وقصرها ^(١) . يؤيد قوله بالبرهان العقلي والنقلي • ومن آرائه
أن طلاق الثلاث دفعة واحدة يقع طلاقا واحدا كما كان على عهد
رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) وأن الحلف بالطلاق
إن لم يقصده يكون يسيئا تجب الكفارة اذا حث به ولا يقع به
الطلاق . الى ما هو مبسوط في فتاواه ومجموعة رسائله ^(٣) •

كما كانت هذه الحروب مجالا للبحث الفقهي في قتال التتر
هل يجوز أم لا ؟ ومن أي قبيل هم؟ فإنهم يظهرون الاسلام وليسوا
بغاة على الامام ، فانهم لم يكونوا في طاعته في وقت ثم خالفوا
وخرجوا عليه ، يا للعجب من جمود هذه العقول !! •

فتعال الشيخ تقي الدين : هؤلاء من جنس الخوارج الذين

(١) مجموعة الرسائل والمسائل ج ٢ ص ٢ و ٣ و ٤ •

(٢) وخلافة ابي بكر وشرطا من خلافة عمر .

(٣) انظر فتاوى ابن تيمية ج ٣ ص ٣ و ٥ و ٢٦ و ٢٦ •

٢٨ و ٤٦ و ٤٧ و ١٣٠ •

خرجوا على عليٍّ ومعاوية ورأوا أنهم أحق بالامر منها . وهؤلاء يزعمون أنهم أحق باقامة الحق من المسلمين . ويعيرون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم . وهم متلبسون بسا هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة . . .

وكان يقول : اذا رأيتُموني في ذلك الجانب — جانب التتار — وعلى رأسي مصحف فقتلوني^(١) ، وقد أقتى بالفطر مدة القتال ، وأفطر هو أيضا وكان يدور على الاجناد والأمرء فيأكل من شيء معه في يده ليعلمهم أن إفطارهم ليقدرُوا على القتال أفضل لهم . وكان يتأول قول النبي صلى الله عليه وسلم : إنكم ملاقو العدو غدا والفطر أقوى لكم^(٢) .

أما الحرية عند ابن القيم فستظهر فيما سيأتي ان شاء الله .

دور التعليم :

كانت المساجد في الصدر الاول هي المصدر الوحيد للعلم وطلابه : فقد كان مسجد الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم هو المنهل الوحيد لطلاب العلم بسائر مراحل من ابتدائي وثانوي وعال ، ففيه تعلم بعض الصحابة القراءة والكتابة والفقه والتفسير وتلقوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديثه

(١) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢٣ و ٢٤ .

(٢) نفس المرجع ج ١٤ ص ٢٦ .

الشريفة ، ومنه تخرج أبو بكر وعسر وعلي وخالد وابو عبيدة
وسعد بن أبي وقاص وعسرو بن العاص ومعاوية ، والعبادلة الاربع
عبد الله بن عسر وعبد الله بن عسرو وعبد الله بن عباس
وعبد الله بن مسعود ، ومنه تخرج القراء والفقهاء وعلى هذا
المنهج كانت مساجد الامصار ، بالبصرة والكوفة وبغداد ودمشق
ومصر ، ومساجد شمال أفريقيا ، كالقرويين والزيتونة وغيرهما
ولا يزال أكثر المساجد المشهورة دوراً للعلم ، ومحلاً للعبادة الى
يومنا هذا وقد تخرج الكثير من كبار العلماء منها كالأزهري ،
والزيتونة ، والقرويين •

وأهم هذه المساجد التي يقصدها طلاب العلم في الديار
المصرية أربعة :

١ - جامع عسرو بن العاص :

وهو أول مسجد أسس بديار مصر بعد الفتح الاسلامي
بمدينة الفسطاط . ثم زاد فيه مسلمة بن مخلد
الانصاري سنة ٥٣ هـ ، وكان يومئذ أمير مصر من قبل
معاوية . وكان الولاة والحكام يتولون ترميمه وإصلاحه الى أن
كانت سنة ٧٠٣ هـ اتفق الاميران ببيرس الجاشنكير . وهو يومئذ
استادار الملك الناصر محمد بن قلاوون ، والامير سلار ، وهو
نائب السلطنة على عمارة الجامعين ببصر والقاهرة ، فتولى ببيرس
عمارة الجامع الحاكي بالقاهرة ، وهو المعروف الآن بالجامع
الحاكم بالنحاسين . وتولى سلار عمارة جامع عسرو ببصر ، وكان

بالجامع زوايا يدرس فيها الفقه (١) منها زاوية الامام الشافعي رضي الله عنه يقال : إنه درس بها الشافعي فعرفت به . وظل الفقهاء والعلماء يعسرون بها مدة طويلة (٢) .

ثم فُتنت الزوايا عن المساجد وبُنيت مفردة لئلا يفتقدوها طلاب العلم وبقيت المساجد للعبادة خاصة .

٢ - الجامع الازهر :

انشأه القائد جوهر . ابتدأ في بنائه سنة ٣٥٩ هـ وأتمه سنة ٣٦١ هـ وفي سنة ٣٧٨ هـ سأل الوزير ابو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلثوم الخليفة العزيز بالله ان يعطي جماعة من الفقهاء . فاعطاهم ما يكفيهم . وبني لهم دارا بجوار الجامع الازهر فكانوا يأتون اليه يوم الجمعة للصلاة ، فاذا فرغوا من الصلاة جلسوا للتدريس حتى صلاة العصر (٣) .

٣ - جامع ابن طولون :

ابتدأ الامير أبو العباس أحمد بن طولون ببناءه بعد بناء القطائع سنة ٦٦٣ هـ وأتمه سنة ٦٦٦ هـ وبعد أن أتمه كان الناس يصلون فيه

(١) الخطط التوفيقية ج ٤ ص ٤ .

(٢) نفس المرجع .

(٣) الخطط التوفيقية ج ٤ ص ٥٤ .

الجمعة ثم يخرجون بعد الصلاة الى مجلس الربيع بن سليمان ليكتبوا العلم . وفي سنة ٧٤٦ كان المنصور حسام الدين لاجين المنصوري سلطان مصر ، وفي عهده عمر الجامع وازال كل ما كان فيه من تخريب ، وبلطه وبيضه ورتب فيه درسا للفقهاء على المذاهب الاربعة ، ودرسا لتفسير القرآن الكريم ، ودرسا للحديث ، ودرسا للطب ، وقرر للخطيب معلوما ، وجعل له اماما راتبا ، ومؤذنين وفراشين وقومة ، وأنشأ بجانبه مكتبا لاقراء أيتام المسلمين كتاب الله عز وجل ، وفي سنة ٧٦٧ جدد الامير يلبغا العمر الخاصكي درسا بجامع ابن طولون ، فيه سبعة مدرسين للحنفية . وقرر لكل فقير من الطلبة في الشهر اربعين درهما وارذب قسح (١) .

٤ - جامع الحاكم :

ابتدأ في انشاءه أمير المؤمنين العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله . ثم اكمله ابنه الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٣ هـ وفي سنة ٧٠٣ أصلحه الامير بيبرس الجاشنكير ، ورتب فيه دروسا اربعة في الفقه على مذاهب الائمة الاربعة ، ودرسا لاقراء الحديث وجعل لكل درس مدرسا وكثيرا من الطلبة ، فكان مدرسا الشافعية قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعي . ومدرس الحنفية شمس الدين احمد السروجي الحنفي . ومدرس

(١) الخطط للمقريزي ج ٤ ص ٣٦ - ٤٢ .

المالكية قاضي القضاة زين الدين علي بن مخلوف المالكي ،
ومدرس الحنابلة قاضي القضاة شرف الدين الجواني ، وكان
مدرس الحديث الشيخ سعد الدين بن مسعود الحارثي ، ومدرس
النحو الشيخ أثير الدين أبا حيان ، ومدرس القراءات السبع
الشيخ نور الدين الشطنوفي (١) .

ومما يستلفت النظر ويسترعي الانباه أن السلف كانوا
لا يعينون للتدريس إلا فطاحل العلماء ممن حاز أعلى مراتب
العلم ، كما رأيت . فكل من درس في هذا المسجد حاز على لقب
قاضي القضاة ، وهي أعلى رتبة في مراتب العلم .

وبنيت المدارس لهذه الغاية أيضا كالمدرسة الصلاحية التي أسسها
الناصر صلاح الدين بن أيوب سنة ٥٧٣ هـ ، وكان ممن تولى
التدريس بها قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الاعز ، ثم قاضي
القضاة تقي الدين بن رزين ، ثم قاضي القضاة تقي الدين بن بنت
الاعز ثم قاضي القضاة شيخ الاسلام تقي الدين بن دقيق العيد ،
وقد توالى عليها العديد من مشاهير العلماء في ذلك العصر (٢) .

أقول لما كثرت المدارس ، كالمدرسة الكاملية في أواخر
أمرها سنة ٨٠٦ هـ والمدرسة الظاهرية ، التي بناها الظاهر

(١) الخطط القرينية ج ٤ ص ٥٧ .

(٢) حسن المحاضرة .

ببدرس البندقداري قبيل انحطاطها ، والمدرسة المنصورية في
اواخر عمرها ، اصبحت هذه المدارس كما قيل :

تصدر للتدريس كل مهوس
بليد يسمى بالفقيه المدرس
فحق لأهل العلم أن يتمثلوا
ببيت قديم شاع في كل مجلس
لقد هزلت حتى بدا من هزالها
كلاها وحتى سامها كل مفلس^(١)

هذه المدارس والتكايا والزوايا بنيت في مصر ، وقد
تخرج منها العلماء الاعلام من حفظ للناس دينهم ولغتهم وتراثهم
المجيد . أمثال قاضي القضاة ابن جماعة وشمس الدين أحمد
السروجي . وزين الدين علي بن مخلوف ، وشرف الدين
الجواني . وكلهم يحمل لقب قاضي القضاة وشيخ الاسلام ابن
دقيق العيد .

أما المدارس في بلاد الشام ، وإن كانت أقل عددا فإنها لا تقل
عنها فضلا وتخريجا لقطاع العلماء الاعلام ، كالامام النووي
وابن تيمية . والعز بن عبد السلام ، وابن القيم ، ولو أتيح

(١) الخطط المقرزية ج ٥ ص ٩٩ الابيات ذكرها المقرزي .

المشاء ما أتيج مصر من حيث الاستقرار والبعد عن مسرح الحروب الصليبية والمغولية التتريّة . وربما كانت تفوق مصر أو تجاريها .
فعين جالوت ومرج دابق ومرج الصفر وعشرات أمثالها كانت بلاد الشام مسرحا لها .

أما المدارس العلمية التي كانت في بلاد الشام ، يقصدها طلاب العلوم المختلفة من شتى الاقطار . لتلقي العلم فيها . فقد ذكر منها صاحب كتاب المدارس في تاريخ المدارس عشرات كما ذكر من الخواص والربط والزوايا والتكايا ما لا يقع تحت حصر (١) .

ومن أشهر هذه المدارس المدرستان : العادلية الكبرى ،
والمدرسة الظاهرية . .

١ - المدرسة العادلية :

أمر بإنشائها نور الدين محمود بن زنكي وهي داخل دمشق تجاه باب الظاهرية . يفصل بينها الطريق العام . وقد توفي ولم يتم بناؤها . ثم بنى بعضها الملك العادل سيف الدين ،
واليه تنسب ثم توفي ولم تتم . فأتسها ابنه الملك المعظم . وأوقف عليها أوقافا كثيرة ، وأول من درس بها جمال الدين المصري في

(١) المدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ٣٥٩ - ٣٦٧ .

حضرة السلطان المعظم سنة ٦١٩ . ثم قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن خليل الحوي المتوفى سنة ٦٢٣ .

ثم درس بها القاضي كمال الدين عمر أبو حفص بن بNDAR ابن عمر التفليسي ، وفي سنة ٦٩٣ قدم القاضي بدر الدين بن جساعة على قضاء الشام ونزل في العادلية ودرس بها ، وكانت تتخذ أحيانا دارا للقضاء .

ومن درس بها شيخ الاسلام قاضي القضاة تقي الدين السبكي ، ثم ولده قاضي القضاة بهاء الدين أبو حامد أحمد المولود سنة ٧١٩ ، ثم درس بها أخوه العلامة قاضي القضاة تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب ثم قاضي القضاة بهاء الدين أبو البقاء السبكي ثم قاضي القضاة سراج الدين الحمي .

فكل المدرسين الذين تولوا منصب التدريس فيها كانوا قضاة ، وهذا يعطينا فكرة عن مدى ما لهذه المدرسة من أثر بالغ في الثقافة (١) .

٢ - المدرسة الظاهرية :

بناها الملك الظاهر بيبرس البندقداري سنة ٦٧٠ هـ وكان فيها فقهاء الحنفية ، والشافعية ، وأول من درس فيها الشيخ صدر الدين سليمان من الحنفية ، وكان شيخ الحنفية وعالمهم شرقا وغربا . أقام مدة بدمشق يتولى التدريس والافتاء ، ثم

(١) المصدر السابق .

انتقل الى الديار المصرية . وكان جريئا لا يحابي أحدا في الحق ولو كان سلطانا •

أراد السلطان مرة أن يفتي بما يوافق هواه فأبى . وقال : « هذه الاملاك بأيدي أربابها ، وما يحل لمسلم أن يتعرض لها ، [انظر] ثم نهض من المجلس وذهب . فغضب السلطان من ذلك غضبا شديدا ثم سكن غضبه . وكان بعد هذه الحادثة يثني عليه ويمدحه ويقول : لا تثبتوا كتابا الا عنده » (١) •

وقد ذكر الدكتور عبد العظيم عبد السلام شرف الدين في كتابه عن ابن القيم من الخواص والربط والزوايا والتكيا الشيء الكثير •

المؤلفات :

كان من نتيجة هذه النهضة العلمية أن ظهرت مؤلفات قيسة في الشريعة الاسلامية واللغة العربية . لا تزال مرجعا للسليين الى يومنا هذا . فكان لشافعية كتب في الفقه والاصول . وللحنفية والمالكية والحنابلة كذلك لا تزال هي المقررة في التدريس ، أو يستند منها المؤلفون المحدثون في انتاجهم العلمي . وقد ظهرت في تلك الفترة تفاسير للقرآن الكريم . وكتب في الحديث ومصطلحه . كذلك ظهرت كتب التصوف والعقائد •

(١) الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ٣٥٩ •

وقد ألف ابن تيسية مئات المؤلفات معظمها في المناظرة والجدل مع الغلاة ومع أهل السنة الجامدين ، فقد كانت فتحا جديدا في عالم التأليف ، اذ خرج من المألوف من التأليف المعاصرة . والتي كانت أشبه بحاطب ليل ينقل المتأخرون عن المتقدمين أقوالهم من غير نظر الى دليل من كتاب أو سنة .

فقد كان حرا لا يتقيد بقول أحد ما لم يعلم دليل القائل من الكتاب والسنة . وهذا ما أضرم نار العداوة والبغضاء بينه وبين الفقهاء .

من هذا الضرب الخلاف بين السبكي وغيره من العلماء حتى جلس السلطان للصلح بينهم ^(١) هذه الخلافات هي التي حاكت الدسائس لابن تيسية وتليذده ابن القيم وسبب له الحبس مرة ، إثر أخرى حتى مات مسجونا . ومن الغريب أنه ظل طول حياته يحارب البدع ويدعو الى التسك بالكتاب والسنة والعمل بهما فلما قضى نحبه اجتمع الشيوخ حول سريره يتلون القرآن الكريم على روحه !! ^(٢) .

(١) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٣١٧ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٩٦ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ .

يقول الدكتور عبد العظيم شرف الدين في كتابه عن ابن القيم : إن حياة جماعة يسودها القلق الاجتماعي . والاضطراب الداخلي . الى جانب الاضطرابات الخارجية : تهدد بالقضاء على كيان الامة وإيقاف الجهاز العام للدولة . ولذا هب ابن القيم يدعو الى الاتحاد ، ونبذ الفرقة والاخذ بالكتاب والسنة النبوية الصحيحة ، عملاً بقول الرسول : « تركت فيكم ما إن تسكتم به فلن تضلوا بعدي كتاب الله وسنتي » (١) .

- « طريقة ابن القيم في التأليف ، وطريقة ابن تيمية . »
- أما تأليف ابن تيمية ، فيغلب عليها صبغة المناظرة والجدل بصورة ظاهرة يدل على ذلك أسماء مؤلفاته فمنها :
- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان .
- التحفة العراقية في الاعمال القلبية .
- الفرقان بين الحق والباطل .
- الواسطة بين الخلق والحق .
- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح .
- اثبات المعاد والرد على ابن سينا .
- ثبوت النبوات عقلاً ونقلًا وفيه كلام جيد عن المعجزات والكرامات .

(١) ابن القيم عبد العظيم شرف الدين ص ٦٦ .

١- منهاج السنة النبوية في نقض الشيعة القدرية ، وهو أشهرها .

وله من المؤلفات المسائل في خمسة مجلدات ، والرسائل في مجلدين ، وكلها في الجدل والمناظرة ، وقرار الحق ، وتدلى على علم غزير وإطلاع ليس له نظير .

أما مؤلفات ابن القيم ، وإن كان فيها شرح للكثير من آراء شيخه ابن تيمية فأسلوبه هادئ سهل رصين ، كما سترى عند الكلام عن مؤلفاته .

وكان الطابع العام للمؤلفات التي ظهرت في ذلك العصر : أولا - المؤلفات الشرعية لما للدين في نفوس الأمة من المكانة السامية ، كالتفسير ، وشرح الحديث ، والفقه ، وكانت اللغة العربية في المنزلة الثانية ، لأنها تخدم العلوم الشرعية .

وقد ظهرت كتب في اللغة ، هي المرجع لعلماء اللغة اليوم ففي النحو والصرف ظهر كتاب :

١ - الألفية لجمال الدين بن مالك الأندلسي (١) .

٢ - كتاب الكافية الشافية .

٣ - تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد .

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ١٢٧ ، ١٢٨ - هو محمد بن عبد الله بن مالك جمال الدين المتوفى سنة ٦٧٢هـ .

وظهر لجمال الدين بن هشام المصري ^(١) المتوفى سنة ٧٢١
كتاب المغني - مغني اللبيب عن كتب الاعراب •

- ٥ - شذور الذهب •
- ٦ - قطر الندى وبل الصدى •
- ٧ - الجامع الصغير •
- ٨ - الروضة الادبية في شواهد علوم العربية •

البلاغة والمعاجم :

فمن أشهر ما ألف في البلاغة :

- ١ - تلخيص مفتاح العلوم للسكاكي لخصه جلال
الدين القزويني المتوفى سنة ٧١١ •
- ٢ - شرح التلخيص للقزويني أيضا •

المعاجم :

- ١ - لسان العرب لابن منظور المتوفى سنة ٧١١ وهو
أشهر من أن يذكر •
- ٢ - المصباح المنير لاحمد بن علي المقري الفيومي
المتوفى سنة ٧٧٠ •

(١) هو جمال الدين عبد الله بن يوسف بن عبد الله المصري
ومن مؤلفاته : موقد الاذهان ، وموقف الوسنان • الاعراب عن
قواعد الاعراب ، حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٣٠/٢٣١ •

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان ج ٢ ص ١٤٣ •

التاريخ والتراجم :

- ١ - وفيات الاعيان وأبناء أبناء الزمان لابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ •
- ٢ - فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي : المتوفى سنة ٧٦٤ هـ وهو ذيل لوفيات الاعيان . ذكر فيه نحو ٥٥٠ ترجمة •
- ٣ - الوافي بالوفيات لصلاح الدين بن أيك الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ وهو في خمسين مجلدا ترجم فيه لاعيان الصحابة ، والأولياء ، والنحاة ، والادباء ، والشعراء ، والاطباء ، والحكماء ، وأصحاب النحل والبدع ، وأعيان كل فن •
- ٤ - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر •
- ٥ - الإصابة في تمييز الصحابة في ثمان مجلدات •
- ٦ - تهذيب التهذيب •
- ٧ - رفع الاصر عن قضاة مصر •
- ٨ - لسان الميزان ، وهذه المؤلفات كلها لابن حجر •

كتب التاريخ العام :

- ١ - منها المختصر في أخبار البشر ، ألفه الملك المؤيد اسماعيل المعروف بأبي الفداء ، المتوفى سنة ٧٣٢ وهو في أربعة أجزاء ، كان أميراً على دمشق وخدم الملك الناصر وهو في

الكرك : فوعده بحصاة ، ووفى له بوعده ، وجعله سلطانا عليها .
ولذلك سميت حصاة بمدينة أبي الفداء .

٣ - تسمية المختصر في أخبار البشر . لزين الدين عسر بن
الوردي المتوفى سنة ٧٧٤ .

٣ - البداية والنهاية . لاسماعيل أبي الفداء الشهير
بابن كثير ، المتوفى سنة ٧٧٤ .

العلوم الطبيعية والرياضية :

وهي تشمل الطب والهندسة والسياسة والاجتماع والفلك
١ - بذل النصائح الشرعية . فيسا على السلطان وولادة
الامور وسائر الرعية لنجم الدين أحمد بن محمد بن ارفعة
المصري ، المتوفى سنة ٧١٠

٢ - محاسن الملوك .

٣ - تقويم البلدان لابني الفداء صاحب حصاة .

الاجتماع :

١ - ان أول من ألف في هذا الموضوع هو ابن خلدون
في مقدمة كتابه التاريخ ، وقد اشتهرت بمقدمة ابن خلدون .

٢ - أخبار النساء لابن قيم الجوزية ، وسيأتي ذكره عند
ذكر مؤلفاته .

التخصص في العلوم :

ان التخصص في العلوم من أكبر عوامل النبوغ لذا رأينا قضاة العلماء . يتخصص بعلم أو فن : فينبغ فيه حتى يكون مرجعاً وموثلاً لغيره يعول عليه في فنه فهناك الحفاظ ، والفقهاء ، وعلماء اللغة . والمفسرون . والمؤرخون ، والقراء ، تعد منهم عشرات وأما سواهم : ممن كان عليه علم الأديب له من كل فن حظ ونصيب فيسكنك ان تعد منهم . مئات ومئات •

أما من نبغ في أكثر من علم : فذاك قل أن وجود الزمان بشله في عدة قرون . وهو من اذا قرأت له . أو قرأت عنه : أو ذاكرته في أي علم شئت حسبت أنه لا يحسن سواه وأنه يفوق المتخصصين في هذا العلم . ومن هؤلاء شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وتلميذه ابن القيم . كما سيأتي معنا في الكلام عنه •

وإن مما تفتخر به . ونعز فيه : أن أول من أرشد الى التخصص . وأمر به . هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . اذ يقول : « أفرضكم زيد ، وأقرؤكم أبي ، وأقضاكم علي » •

الحفاظ :

١ - اشتهر منهم الدمياني : وهو شرف الدين أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الشافعي المتوفى سنة ٧٠٥ ، قال المزي : ما رأيت في الحديث أحفظ منه : وكان فقيها نسابه •

٢ - ابن أبي شامة المتوفى سنة ٧٠٨ هـ كان فقيها حافظا نسابا .
 ٣ - ابن دقيق العيد . كان من المجتهدين الحفاظ توفي سنة ٦٥٢ . وكان ثناء العلماء عليه كثيراً جداً . قال ابن السبكي في طبقاته :
 هو شيخ الإسلام . الزاهد الورع . الناسك المجتهد المطلق .
 وقال أبو حيان : هو أشبه من رأينا يسيل الى الاجتهاد . وقال تاج الدين السبكي : لم أر من أشياخنا من يختلف في أن ابن دقيق العيد هو العالم المبعوث على رأس المائة السابعة .

٤ - السبكي . هو تقي الدين ابو الحسن علي بن عبد الكافي كان فقيها . محدثا . مفسرا . مجتهدا . وقال ابنه : قال الشيخ شهاب الدين : جلست بسكة بين طائفة من العلماء وقعدنا نقول : لو قدر الله بعد الأئمة الأربعة في هذا الزمان مجتهدا عارفا بمذاهبهم أجبعين يركب لنفسه مذهبا من المذاهب الأربعة لازدان الزمان به واثقاد الناس له . فاتفق رأينا أن هذه المرتبة لاتعدو الشيخ تقي الدين السبكي ولا ينتهي لها سواه (١) .

٥ - الشيخ عز الدين بن عبد السلام . شيخ الاسلام وسلطان العلماء ولد سنة ٥٧٨ هـ وتوفي سنة ٦٦٠ هـ برع في الفقه والاصول والعربية . حتى بلغ رتبة الاجتهاد قال ابن كثير : انتهت اليه رئاسة

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٨ .

المذهب ، وقصد بالفتوى من سائر الآفاق ، وقد تمكن من العلم حتى أفنى بما يؤدي اليه اجتهاده ، قال تلميذه ابن دقيق العيد : كان ابن عبد السلام أحد سلاطين العلماء ^(١) (يفهم من هذا ان نلعلم سلاطين ولكن ابن عبد السلام أشهرهم) •

٦ - ابن المنير الاسكندري ولد سنة ٦٢٠ وتوفي سنة ٦٨٣ قال العز بن عبد السلام : الديار المصرية تفتخر برجلين في طرفيها ابن دقيق العيد بقوص ، وابن المنير بالاسكندرية ، أقول : كما ان ديار الشام تفتخر برجلين : ابن تيمية ، وابن قيم الجوزية ومن تتبع سيرتهما يعلم صحة ذلك ، اذ أن علماء مصر والشام في كفة وابن تيمية وتلميذه ابن القيم في كفة ، وكثيرا ما رجحت كفة ابن تيمية منفردا على سائر العلماء مجتمعين ^(٢) •

ثم لو ذهبنا نذكر من اشتهر من العلماء الاعلام ، في تلك الحقبة من الزمان ، لطال بنا القول ، ومن اراد الاستقصاء فليرجع الى كتاب الدرر الكامنة ، في أعيان المائة الثامنة ، والضوء اللامع في تراجم رجال القرن التاسع ، وطبقات الحنابلة لابن رجب ، وطبقات الشافعية للسبكي •

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٧ •
(٢) فتاوى ابن تيمية العقيدة الحموية

الباب الثاني

مولده ، نشأته ، حياته

على يمين الزائر لمدينة دمشق عن طريق الميدان - ميدان
الحصى - من جهة الجنوب ، جانب مدخل مقبرة الباب الصغير
مدفن جددت واجهته حديثا ، على طراز حديث . كتب على واجهته
« هذا قبر الإمام الحافظ ناصر السنة ، صاحب التصانيف المفيدة
أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية ،
تغيبه الله برضوانه ولد بدمشق سنة ٦٩١ هـ وتوفي فيها
سنة ٧٥١ هـ »

يحوي المكان بضع شجرات خضراء وأزاهير ندية ، حول
جدث من التراب ضم جبل علم أشم ، عالي الذرى ، بل طوى
بحر معارف خضم ، يسوج ثبجه بأنوار التقوى ، وأشعة الإصلاح .
وانك لتشعر وأنت واقف أمام هذا المدفن الحديث ،
برمزين اثنين : التجدد ونمو الإصلاح ، فالتجدد من اشادة البناء .
على طراز حديث ، غير ما كان يشاد على قبور العلماء والصالحين
من القباب . ونمو الإصلاح من نمو شجراته المورقة . وأزاهيره
العطرة .

ولئن استلقت الانظار هذا البناء ، بسا يوحيه من أسرار ،
فلا عجب ، فقد استوقفت مؤلفات ساكنه أفكار العلاء المصلحين
بسا حوت من علم جم ، ومعارف واسعة ، واصلاح ديني منشود .

إن الواقف أمام هذا المدفن ليأخذ العجب . ويستشير
الدهش ، عندما يعلم أن ساكنه ابن القيم هذا له باع طويل
في جميع العلوم الاسلامية . ومذاهب أهل الاديان على اختلاف
ملهم ونحلهم . وله في كل فن مؤلفات واسعة . فاذا ما قرأ له
المرء كتابا في أي فن شاء حسب أنه لا يتقن سواه . ثم أيقن أنه
لم يكتب في موضوعه أجود منه ، يظهر هذا جليا في دراستنا
له اليوم .

والذي زاد في تألق كوكب سعده . وتشيد صرح مجده .
بكونه نشأ في منتصف القرون الوسطى ، تلك القرون المظلمة .
التي أخرت مدينة الانسان قرونا طويلا . بسا سببته الحروب
المغولية والصليبية ، مدة قرنين ، قبل مولده وقرون بعده .
وما ذاقته البلاد من ملوك الطوائف - المساليك - والفتن
الداخلية أدهى وأمر .

ولد رحمه الله سنة ٦٩١ هـ وتوفي سنة ٧٥١ هـ كما حققه
الدكتور عبد العظيم شرف في كتابه عنه أي : كانت ولادته بعد
جلاء الصليبين بعام واحد .

في تلك الايام السوداء ، والعصور المظلمة . ولد شيخ الاسلام محمد بن أبي بكر أبو عبد الله الشهير بابن القيم ، فلم تكن لتسعه تلك الاحداث عن ورود منهل العلم العذب ، ولم تصده ظروف الليالي وسوء الحالة الاجتماعية والسياسية ، عن السمو الى سماء المجد ، فبينما الناس في عصره مقبلون على الدنيا ، عن طريق السياسة ومظاهرة الملوكة ، والتزلف اليهم ، نراه يقبل على ربه ويرتسي على عتبات عبوديته عن طريق العلم والمعرفة والمجاهدة ، ولم ينعه العلم والعبادة عن أن ينال نصيبه من الدنيا ، فقد كان رحمه الله ذا حظوة عند الامراء ، محبوبا لديهم ، لما عهدوا فيه من الاخلاص والتقوى ، والصلاح ، والدعوة الى الاصلاح ، مما حصل بعض حساده ومنافسيه على الوشاية به عند السلطان ، فحبس وأهين وضرب وطيف به على جبل . كان ذلك من بعض امراء الماليك . تشبها مع مصالحهم ، لعوامل سياسية يضطر اليها ولاة الامور ، في بعض الاحايين ، وكل ذنب لديهم أنه كان — رحمه الله — قوالا للحق ، صادعا به ، لا تأخذه في قول الحق لومة لائم ، ولا ينفع معه عدل عادل . اذا كان يعتقد ان الحق بجانبه ، ولا يبالى ولو خالفه أهل الارض .

ثم ان ما لحقه من المحن من ولاة الامور — الذين يخشون على مراكزهم المزعومة ، ورؤاستهم الموهومة ، من أن تصيبها

عاصفة حق ، من ذلك المصلح العظيم - قليل بالنسبة لما رأيناه في عصره من قتل الملوك بعضهم بعضا . والغدر بهم بأيدي خدمهم وأرباب نعمهم وماليكهم .

ولد رحمه الله من ابوين صالحين ، ونشأ في بيت علم ودين وورع وصلاح ، وكان ابوه رحمه الله قيما للمدرسة الجوزية الواقعة في آخر سوق البيزورية في دمشق ، وقد افتتحتها جمعية الاسعاف الخيرية، وجعلتها مدرسة لتعليم الاطفال الايتام . ثم انها احترقت سنة ١٩٢٥م أثناء الثورة السورية على الافرنسيين ، ثم اعيد بناؤها الآن .

وقبل ان يبلغ سن الرشد انبرى لطلب العلم . وكان في طلبه للعلم حرا مختارا لا مستعبدا لشيخ من الشيوخ ، كما نرى عند بعض طلاب العلم اليوم . اذ يقتصرون على شيخ واحد أو يحجر عليهم شيوخهم ، فيحتجزونهم لانفسهم ليظهروا بسظهر المرشدين والمربين .

فالطالب الذي يقتصر على استاذ واحد . يتلقى عنه علوم الاولين والآخرين يظل جاهلا بكل شيء عاريا عن كل شيء . وان ما نراه من نبوغ بعضهم مرجعه تلقي العلم من شيوخ كثيرين ، اما مباشرة . واما بالاطلاع على مؤلفاتهم . وان من يدأب على المطالعة في مختلف كتب العلوم والفنون : والمجلات على

اختلاف مناهجها ، يتسع افقه العلمي ويصفو ذهنه ويستتير فكره ويكون لنفسه شخصية علمية فذة ذات ضابع خاص ، فيتصل بعالمه الذي يحيى فيه اتصالا مباشرا ، فيشعر بشعور قومه ، ويتألم لآلمهم . ويرى نواحي الضعف فيهم ، فيعمل على اصلاحهم وارشادهم الى الطريق السوي ، ويصبح جزءا متمما لامته ، بعكس المنقطع في غرفته القابع في عزله المتسم لشخصية أستاذه ، يدفن نفسه بين المتون والحواشي والتقارير ، فسا حياة مثل هذا الا هامش متسلط على حاشية الحياة .

تلقي العلم في زمن ابن القيم

اما في زمن ابن القيم فعنده الله برحمته ، فقد كان تلقي العلم عن العلماء مباشرة أسهل منه في الازمنة المتأخرة لوفرة العلماء آنذاك ، وعدم ارهاق الطالب بالنفقات التي ينوء بها كاهله أو كيس من يعوله ، ولم تكن يومذاك فكرة استعباد الطالب منتشرة بين العلماء . كما هو مشاهد اليوم من بعض من يزعم أنه من العلماء ، اذ يكون حوله عددا من الطلاب فيلقي في روعهم أنه هو المرشد الوحيد . وما عداه فثيطان مريد ، أو ضال عنيد ، فينصبونه العداء . ويظهرون له العداوة والبغضاء ، وهذا من أخط الاخلاق المزرية بالعلماء .

لقد كان علماء السلف يفتخرون بكثرة شيوخهم ، فهذا

الامام البخاري رحمه الله زاد عدد شيوخه عن الالفين ، وبالرجوع الى تراجم اعلام الاسلام ، ترى من هذا النسط العجب العجاب . ولذلك نرى ابن القيم وامثاله من نوابغ الاعلام الذين خلد الدهر أسمائهم ، كانوا يتلقون كل علم عن نوابغ المتخصصين فيه •

شيوخه ومن تلقى العلم عنهم :

١ - اخذ الحديث عن الشهاب النابلسي العابر ، والقاضي تقي الدين سليمان ، وابي بكر بن عبد الدائم ، واسماعيل بن مكتوم ، وفاطمة بنت جوهر ، ومن في طبقتهم •

٢ - وتلقى العربية عن أئمة اللغة ، كأبي الفتح ، والمجد التونسي •

٣ - وتلقى الفقه على المجد الحراني •

٤ - وأخذ الاصول على الصفي الهندي •

٥ - ولما كان والده - ابو بكر - له اليد الطولى في الحساب والفرائض ، اخذهما عنه ، ولما تم تحصيله على كبار شيوخ عصره مباشرة ، واصبحت لديه ملكة علمية يقدر معها على الفهم الصحيح ، وتيسير وترجيح الاصح . أخذ يدرس على من سلف من أهل العلم كل فن بواسطة المطالعة والاطلاع على ماتبقى من كتب السلف - بعد نكبة هولاء الكو العلمية - فقد كان

رحمه الله دؤوبا على المطالعة صبورا مغرما بجسع الكتب ،
ولهذا اجتمع لديه من الكتب ما لم يجتمع عند غيره من العلماء
أو الامراء ، شديد الحفظ لما يقرأ . لا يكاد ينسى معنى ما قرأ .
وان اختلف اللفظ بعض الاختلاف ، وسرى هذا جليا عند
استعراضنا لاقواله ومروياته .

تلاميذه ومن اخذ عنه :

- ١ - من تلاميذه الذين اخذوا العلم عنه الحافظ زين الدين
ابو الفرج عبد الرحمن ابن رجب صاحب الذيل على طبقات الحنابلة .
- ٢ - وتتلمذ عليه . شمس الدين محمد بن عبد القادر
النايلسي . صاحب مختصر طبقات الحنابلة لابي يعلى .
- ٣ - ومنهم ولده عبد الله الذي تولى منصب التدريس
بالتدرية بعد وفاة والده .
- ٤ - ومنهم ابن كثير صاحب البداية والنهاية .

اقوال العلماء فيه وثناؤهم عليه :

وأشهرهم ابن رجب تلميذه الذي اثنى عليه وشهد له
بالتقدم . واعترف بأنه قد تتلمذ عليه واخذ عنه . قال : وكان
رحمه الله ذا عبادة وتهجد وطول صلاة ، الى الغاية القصوى ،
لم أشاهد مثله في ذلك . ولا رأيت أوسع منه علما ، ولا أعرف
بمعاني القرآن والسنة وحقائق الايمان منه ، وليس هو بالمعصوم .

ولكن لم ار في معناه مثله ، ولا زمت مجلسه قبل موته ازيد من سنة ، وسمعت عليه قصيدته النونية وهي « الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية » وفيها يرد على الفرق المختلفة المخالفة لاهل السنة ويثبت مذهب اهل السنة بالادلة العقلية والنقلية ، وسمعت عليه اشياء من تصانيفه وغيرها ، وأخذ العلم عنه خلق كثير من حياة شيخه الى ان مات ، وانتفعوا به ، وكان الفضلاء يعظمونه ويتلمذون عليه ، كابن عبد الهادي وغيره .

٢ - ومنهم ابن كثير : الذي شهد له ، وأثنى عليه . واعترف بصحبته له قال : وكان حسن القراءة والخلق ، كثير التودد ، لا يحسد أحدا ، ولا يؤذيه ، ولا يستغيبه ، ولا يحقد على أحد ، وكنت من أصحاب الناس له ، وأحب الناس اليه .

٣ - قال الحافظ ابن ناصر الدين الشافعي : الشيخ الامام العلامة ، شمس الدين أحد المحققين ، علم المصنفين ، نادرة المفسرين ، له التصانيف الانيقة ، والتأليف التي في علوم الشريعة والحقيقة .

٤ - وقال الحافظ السيوطي : وصار من الأئمة الكبار . في التفسير والحديث والفروع والاصلين والعربية .

٥ - وقال قاضي القضاة عبد الرحمن التفهني الحنفي : تلميذه - أي ابن تيمية - ابن قيم الجوزية ، الذي سارت تصانيفه

في الآفاق . وقال أيضا : ولو لم يكن له من آثاره الا ما اتصف به تليذه ابن قيم الجوزية من العلم لكفى .

٦ - وقال الشيخ ابراهيم الكوراني الشافعي : ثم إن ابن القيم وإن كان على عقيدة شيخه كما عند المشنعين عليها ، فتبرئة شيخه - عما نسب اليه - تبرئة له أيضا . وتصحيح اعتقاده وتطبيقه على الكتاب والسنة وعقيدة السلف تصحيح لاعتقاده وتطبيق .

٧ - وقال ملا علي القاري فيه وفي شيخه : ومن طالع شرح منازل السائرين تبين له أنها كانا من أكابر أهل السنة والجماعة . ومن أولياء هذه الامة .

٨ - وقال محمد المقرئ : هو أكبر أصحاب تقي الدين ابن تيمية .

٩ - وقال صديق بن حسن خان : الحبر العظيم الشأن . الرفيع المكان .

١٠ - وقال السيد نعيان الألوسي : وآخر من سد هذا المذهب « الحنبلي » ونقح وهذب : آل قدامة ، وآل تيمية ، وابن قيم الجوزية ومن أخذ عنهم في البلاد الشامية .

هذا بعض ما قاله فيه علماء عصره ومن بعدهم - مع ما نرى من البغضاء والشحناء بين علماء عصرنا الحاضر ، ولكن سيرة السلف ترينا أن الحسد لم يعرف الى نفوسهم الزكية سبيلا ، وإن ما مر بنا ، وما سراه من مناوأة وعداوة

ووشاية . فالذي قام به وحمل كبره منهم غوغاء العلماء الهزازون
اللسازون الحسادون . الذين لا يطيعون أن يروا نعمة على ذي
نعمة . وإن كان من خلصائهم أو ذوي قرابتهم .

محتته :

مر معنا أنه أهين وضرب . وطيف به على جبل . بسبب
تشييعه لآراء شيخه ابن تيسية وتعصبه لأقواله فقد أصابه ما أصاب
شيخه من أذى فاعتقل معه بالقلعة . وحبس مرة لإنكاره شد
الرحيل الى قبر الخليل . وجرت له محنة مع القضاة - أي
علماء الرسوم أو العلماء الموظفين - بسبب فتواه بجواز
المسابقة بغير محلل ، فأنكر عليه السبكي . وطلبه فرجع عما كان
أفتى به (١) .

ولئن أهين وحبس وضرب ، لتسكه بما يراه الحق فله
أسوة بصالح السلف فقد رأينا الامام مالكا يضرب بأمر أبي
جعفر المنصور ، حتى ينحل صلبه ، فلا يكاد يستطيع أن يمسك
بوله ، ودامت عاهته تلك الى أن لقي وجه ربه ، وهذا الامام
أبو حنيفة النعمان بن ثابت ، يضرب ويحبس ويموت في السجن لامتناعه
عن تقلد القضاء بأمر أبي جعفر المنصور ، وهذا الامام أحمد ، يضرب

(١) وقد اطلال الكلام على محتته ابن حجر في الدرر الكامنة
بما يقرب من أربع صفحات ج ٣ ص ٤٠٠ - ٤٠٣ .

بالبساط ويعذب مدة سنتين ونيف بأمر المعتصم ، والوائق حتى
انخلعت كتفه .

ويحسن بنا ذكر سبب محنته التي أشرنا إليها سابقا - وهي
فتواه بجواز المسابقة بغير محلل - وإيضاح ذلك : أن
الشافعية ، والحنفية ، وأحمد يرون أنه إذا تراهن شخصان على
أمر ، وكان البذل من أحدهما كانت جائزة ، كأن يقول أحد
المتسابقين : إن سبقني كان لك كذا وكذا ، وإن لم تسبقني
لا عليك ولا لك ، أما إذا بذل كل من المتراهنين شيئا ، لم يجز
السباق ، وكان قمارا إلا إذا أدخل بينهما محللا أي : شخصا
ثالثا ، وبدونه يكون كل من المتسابقين عرضة لأن يأخذ إذا سبق
ويؤخذ منه إذا سبق ، فلو أدخل بينهما ثالثا يأتي بفرس كفاء
لفرسيهما ولا يدفع شيئا . فإن سبقهما أخذ ما دفعاه ، وإن
سبق المحلل مع أحدهما ، اشترك والسابق في مال الأخير . وإن
سبقاه ، أخذ كل منهما ما دفعه ، ولم يغرم المحلل شيئا (١) .

(١) الفروسية الشرعية النبوية لابن القيم ١٩ ، وبدائع
الصنائع للكاساني ج ٦ ص ٢٠٦ والمهذب لابي اسحاق الشيرازي
ج ١ ص ٤٢١ .

هذا رأي الشافعية والحنفية والحنابلة . وقد خالفهم ابن القيم . فرأى جواز المسابقة دون محلل !!؟ ، اذا كان الشرط من من كلا المتسابقين : كما ذكرنا ، بل مال الى عدم جواز المحلل ، لأنه رأى لابن المسيب : ولم يعهد عن أحد من الصحابة أنه قال به . ولم يتبعنا الله عز وجل بقول أحد من الناس ، سوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي لا ينطق عن الهوى ، فقال في هذا المقام : والقول بالمحلل مذهب تلقاه الناس عن سعيد بن المسيب . وأما الصحابة فلا يحفظ عن أحد منهم قط أنه اشترط المحلل ولا راهن به . مع كثرة تناضلهم ورهانهم ، بل المحفوظ عنهم خلافه (١) .

مثل هذه الامور الفرعية المختلف فيها لدى الفقهاء : كان العلماء الموظفون لدى الحكام يثيرون المشاكل تعصبا لمذاهبهم أو تزلفا للحكام . وكان الحكام تمشيا مع سياستهم وتزلفا للدهماء من أتباع هؤلاء العلماء يرون حبسه أخف الضررين ، وقد حبس منفردا عن شيخه ابن تيسية . ولم يفرج عنه الا بعد موت الشيخ ، وكان في مدة حبسه مشغلا بتلاوة القرآن بالتدبر والتفكير ، وفتح عليه من ذلك خير كثير وحج مرات

(١) الفروسية الشرعية ص ٣١ .

كثيرة . وجاور بسكة ، وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة
العبادة وكثرة الطواف أمرا يتعجب منه (١) .

ثقافته :

من البدهي - بعد أن عانت بلاد الشام ما عانت . من
حروب طاحنة . دامت ثلاثة قرون ونيفاً . والمسلمون يردون
حملات الصليبيين المستعمرين ، وهجمات التتر المفسدين . وقد
استقرت الامور بعض الاستقرار - أن يتجه المصلحون الى
ما تهدم من صرح الحضارة الاسلامية . فيعملون على اعادة
بناء ما تهدم من ثقافة اسلامية عربية . لهذا قامت في مصر
والشام نهضة علمية ، كان من آثارها أن ظهر علماء أجلاء .
كانوا نجوماً يهتدى بهم . بل كانوا حلقة اتصال بين العصر
الذهبي للحضارة الاسلامية . وبين عصرنا الحاضر . ولو لا
جهودهم ، في الاشتغال بتحصيل العلوم والمعارف . لما تركوا
لنا هذه الذخيرة المباركة من التأليف التي جل اعتسادنا في العصر
الحاضر عليها ، ولا زالت آثارهم شاهدة على ما بذلوه من
وقت وجهد في سبيل الحفاظ على هذا التراث المجيد . وكان
الطابع البارز لهذه النهضة المباركة . هو الطابع الديني . ولهذا

(١) الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب ٢/ ٤٤٨ .

رأينا فضايل العلماء يلقبون بهذه الالقاب ، فخر الدين . وتاج الدين . وعز الدين . وشرف الدين . وبهاء الدين . وزين الدين ، ونور الدين . وأثير الدين . وشمس الدين الخ .

وليس عجيبا بعد ذلك أن نرى رجلا نشأ في تلك الفترة النيرة . والحقبة المزهرة ، وتغذى بهذه الثقافة وتمثلها ، أن يخرج للناس كتبا في مختلف العلوم والفنون . تكون مرجعا للعلماء الى يومنا هذا . ذلك الرجل العلم هو أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية .

ولئن كان الدهر خلد أسماء علماء ، ترك أحدهم كتابا أو كتابين . في علم ما كالتفسير . والحديث ، والفقه . واللغة ، فقد ترك ابن القيم المعالم الاسلامي عشرات من الكتب المتداولة المشهورة المطبوعة . وأضعافها من المخطوطات المبعثرة في رفوف المكاتب الخاصة والعامة . ومثلها ما لم يصل إلينا إلا أسساؤها فقط . وسيأتي مصداق ذلك عند ذكر مؤلفاته .

لقد وجد ابن القيم رحمه الله السبيل أمامه مهذا للدراسة الشرعية والعربية وعلم الكلام والتصوف والفقه والسيرة . وكانت عنده رغبة صادقة للمطالعة وجلد عظيم . فكان يقرأ ما نالته يده من المؤلفات في شتى العلوم والفنون ، وقد حباه الله حافظة واعية . حتى لا يكاد ينسى ما قرأ وإن كان يورد أحيانا بعض ما وعاه بالمعنى . وذلك فضل من الله عظيم .

مؤلفاته في العلوم الاسلامية

١ - ألف في الفقه والاصول : إعلام الموقعين عن رب العالمين في ثلاثة أجزاء . والطرق الحكيمة في السياسة الشرعية ، والصلاة واحكام تاركها .

٢ - وفي التصوف : مدارج السالكين شرح منازل السائرين . وعدة الصابرين وذخيرة الشاكرين . وحادي الارواح الى بلاد الافراح .

٣ - وفي علم الكلام والجدل : شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة . اجتساع الجيوش الاسلامية على غزو المعتلة والجهمية . الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية .

٤ - وفي الفقه والسيرة : زاد المعاد في هدى خير العباد وهو سيرة الرسول الاكرم صلى الله عليه وسلم وغزواته وفيه الى جانب ذلك أبحاث فقهية قيية .

٥ - وفي التاريخ والاجتماع : أخبار النساء وهو يمثل جانباً من جوانب المجتمع ، فهو اذن فقيه متكلم محدث مفسر . مؤلفاته المصبوعة والمخطوطة والمحفوظة في المكاتب العامة والخاصة وما وصل اليها اسمه ولم نر له عينا ولا أثرا .

المؤلفات المطبوعة :

- ١ - اجتساع الجيوش الاسلامية على غزو الفرقة الجهمية ،
طبع في امر تسر الهند سنة ١٣١٤ هـ .
- ٢ - أخبار النساء طبع في مصر سنة ١٣٠٧ وسنة ١٣١٩ هـ
- ٣ - إعلام الموقعين عن رب العالمين . طبع في دلهي الهند
سنة ١٣١٣ وفي مصر سنة ١٣٢٥ وطبع مرة أخرى في مصر بلا
تاريخ .
- ٤ - إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان طبع في مصر
سنة ١٣٢٢ هـ
- ٥ - إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ، طبع في مصر
سنة ١٣٢٠ هـ
- ٦ - بدائع الفوائد ، طبع في المطبعة المنيرية في مصر .
- ٧ - التبيان في أقسام القرآن ، طبع في مكة المكرمة سنة
١٣٢١ هـ .
- ٨ - تحفة المودود في أحكام المولود ، طبع في لاهور الهند
سنة ١٣٣٩ هـ .
- ٩ - تفسير سورة الفاتحة والمعوذتين ، طبع في مصر
- ١٠ - جلاء الافهام في ذكر الصلاة على خير الانام ، طبع
في الهند .

- ١١ - الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، ويسمى الداء والدواء ضبع في مصر سنة ١٣٤٦ هـ وفي الهند سنة ١٣٠٧
- ١٢ - حادي الارواح الى بلاد الافراح . ضبع مع اعلام الموقعين في مصر سنة ١٣٢٥ هـ . وطبع - وحده - منفردا .
- ١٣ - حكم تارك الصلاة : طبع مع كتاب الصلاة وما يلزم فيها للامام أحمد ، باسم الصلاة وأحكام تاركها سنة ١٣٢٣ هـ
- ١٤ - الروح . طبع في حيدر آباد الدكن - الهند - سنة ١٣١٨ و سنة ١٣٢٤ وقد اختصره برهان الدين البقاعي . وأسماه سر الروح طبع في مصر سنة ١٣٢٦
- ١٥ - روضة المحبين ونزهة المشتاقين ضبع في دمشق . سنة ١٣٤٩
- ١٦ - زاد المعاد في هدي خير العباد . ضبع في كانبور الهند سنة ١٢٩٨ وطبع في مصر سنة ١٣٢٤ و سنة ١٣٤٧
- ١٧ - شفاء العليل في القضاء والقدر والحكمة والتعليل ضبع في مصر سنة ١٣٢٣
- ١٨ - الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية ، ضبع في مصر سنة ١٣١٧ هـ .
- ١٩ - ضريق الهجرتين وباب السعادتين . طبع في مصر سنة ١٣٤١ و ١٣٤٩ هـ
- ٢٠ - الفروسية المحمدية طبع في مصر
- ٢١ - الفوائد . طبع في مصر .

- ٢٢ - الفوائد المشوق الى علوم القرآن وعلم البيان ،
طبع في مصر سنة ١٣٢٧
- ٢٣ - الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ،
طبع في الهند ثم في مصر سنة ١٣١٩ هـ .
- ٢٤ - مدارج السالكين بين منازل اياك نعبد وإياك
نستعين ، طبع في مصر سنة ١٣٢٣ .
- ٢٥ - مفتاح باب السعادة ومنشور لواء العلم والارادة
طبع في مصر سنة ١٣٢٣
- ٣٦ - مصايد الشيطان ، طبع سنة ١٣٢٠ (وفي المكتبة
الظاهرية بدمشق نسخة بخط المؤلف)
- ٢٧ - هداية الحيارى من اليهود والنصارى : طبع في مصر
سنة ١٣٢٣ وطبع في مصر مع كتاب الفارق بين المخلوق والخالق
سنة ١٣٢٢
- ٢٨ - الوابل الصيب من الكلم الطيب ، طبع في الهند ، ثم
في مصر ، ثم في دمشق .
- ٢٩ - تهذيب مختصر سنن أبي داوود وايضاح مشكلاته ،
والكلام على ما فيه من الاحاديث المعلولة ، والمختصر للحافظ
المنذري .
- هذا ما وصل الينا علمه من كتبه المطبوعة ولعل هناك من
الكتب ما لم نطلع عليه .

أما كتبه المخطوطة المحفوظة في المكتبات العامة والخاصة ،
والتي تنتظر اليد الكريمة لتخرجها من الظلمات الى النور ،
فإليك جدولاً بأسماء ما عثرنا عليه ، مما ذكرها له المؤرخون :

- ١ - أمثال القرآن جمع مثل .
- ٢ - بطلان الكيمياء من اربعين وجها .
- ٣ - التحرير فيما يحل ويحرم من لباس الحرير .
- ٤ - التحفة المكية .
- ٥ - تفضيل مكة على المدينة .
- ٦ - جوابات عابدي الصلبان وأن ما هم عليه دين الشيطان
- ٧ - حرمة الساع .
- ٨ - حكم إغمام هلال رمضان .
- ٩ - الرسالة الجليلة في الطريقة المحمدية . نظم .
- ١٠ - رفع التنزيل .
- ١١ - رفع اليدين في الصلاة .
- ١٢ - زاد المسافرين الى منازل السعداء في هدي خير
الانبياء .
- ١٣ - السنة والبدعة نقل عن الشيخ داوود النقشبدي
- البغدادي في كتاب صلح الاخوان ' .
- ١٤ - شرح الاسماء الحسنى .

- ١٥ - شرح أسساء الكتاب العزيز •
- ١٦ - الصبر والسكن •
- ١٧ - الصراط المستقيم في أحكام أهل الجحيم •
- ١٨ - الصواعق المنزلة على الجهمية والمعتلة •
- ١٩ - الطاعون •
- ٢٠ - ضب القلوب (ذكر الاستاذ الملعوف أن في مكتبة برلين نسخة منه) •
- ٢١ - عقد محكم الاحياء بين الكلم الطيب والعمل الصالح المرفوع الى رب الساء . ذكر في كشف الظنون أنه شرح الكلم الطيب لشيخه ابن تيسية •
- ٢٢ - الفتح القدسي •
- ٢٣ - الفرق بين الخلّة والمحبة ومناظرة الخليل لقومه •
- ٢٤ - فضل العلم •
- ٢٥ - الكافية الشافية في النحو (ذكرها في كشف الظنون وقال : وله الكافية في الانتصار للفرقة الناجية) وهو المطبوع في الهند ومصر سنة ١٣١٩ كما مر ذكر اسساء كتبه المطبوعة •
- ٢٦ - الكبائر (نقل عن النقشبندي في صلح الاخوان) •
- ٢٧ - الكلم الطيب والعمل الصالح •
- ٢٨ - المسائل الطرابلسية •
- ٢٩ - معاني الادوات والحروف •

- ٣٠ - المهدي .
- ٣١ - المذهب .
- ٣٢ - نقد المنقول والمحرك المميز بين المردود والمقبول .
- ٣٣ - نكاح المحرم .
- ٣٤ - نور المؤمن وحياته .
- ٣٥ - الهدي السوي (هكذا ذكره في كشف الظنون - ولعله الهدي النبوي او زاد المعاد) .

وله رحمه الله تعالى تصانيف غير ما ذكر لا تحصى كثرة . ولكن عز وجودها الآن وعز من يبحث عنها من العلماء الأعلام . فهم في شغل شاغل عن نبش كنوز ما تركه لنا السلف وهي كنوز لا تقدر بشن .

فعلساؤنا اليوم فريقان : فريق جرفته تيار الحضارة المادية فانعس في حساء الشهوات . وملاذ الحياة . يعب منها كسن لا يؤمن بيوم الحساب . يسألون الحكام لينالوا من دنياهم . فلا يعنون بشيء من امر دينهم الا بسا يؤمن لهم دنياهم .

وفريق آخر . قعد بهم سوء الحظ . فلم ينالوا مانال الفريق الاول من حظوة وقربى لدى أولى الامر ، فناصبوهم العدا ، وناذبوهم بالالقاب ، حسدا من عند أنفسهم وبغضا ، لا تدينا واحتسابا . وشغلهم ما هم فيه عن كل أمر مفيد ، مما يرفع لهم في

الدنيا ذكراً ويكسبهم حثاً وثواباً وأجراً ، ولو وجد اليوم علماء
شغفوا بالبحث العلمي لاستخرجوا لنا من كنوز المكاتب أضعاف
ما ذكرنا لابن القيم من مؤلفات ، ولكن عز وجود الباحثين ،
فنسجت على كثير من مؤلفاته عناكب النسيان ، وغابت عن العيان ،
ودرجت في خبر كان .

ركزنا الكلام على تراث هذا الجبر العظيم ، لان مؤلفاته
وتصنيفه مرغوب فيها لدى جميع الطوائف ، لانه لم يكن عالماً
اقليميا بل كان عالماً له اسلوب بالكتابة جميل ، خال من تعقيدات
ومصطلحات العلوم . التي يصعب فهمها على غير اهل
الاختصاص .

وكان - رحمه الله - كثير الاستشهاد بالشعر ، والاقتباس
من الحكم والامثال ، والحديث الشريف والكتاب العزيز ،
حتى لا تكاد تشعر وأنت تقرأ له أن ما استشده به غير كلامه
بله الحديث الشريف والقرآن الكريم ، وذلك لايضاح ما يرمي
اليه من معنى . وهذا يدلنا أيضاً على مدى تضلعه بعلوم اللغة
العربية نظماً ونثراً ، فكان كثيراً ما يستشهد بيت من الشعر
أو آيات تصور المعنى المراد من قوله أوضح تصوير ، وتعبر عن
مراده أبلغ تعبير ، ولا يستشهد بالشعر الا من حفظ منه الشيء
الكثير .

١ - من ذلك ما استشهد به في أفضلية أبي بكر على غيره من الصحابة الكرام وإن كانوا أكثر عملا منه قال ابن عباس : « ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ولكن بشيء وقر في قلبه » قال ابن القيم : وهذا موضع المثل المشهور :

من لي بمثل سيرك المدلل
تمشي رويدا وتجي في الاول

وقال بعد ذكره اختلاف العلماء في استلزام العلم الهداية :
فهل عندك شيء غير هذا يحصل به فصل الخطاب ، وينكشف
به لطالب الحق وجه الصواب ، فيرضي الطائفتين ، ويزول به
الاختلاف من المين ، والا : فخل المطي وحاديها ، واعط القوس
باريها .

دع الهوى لأتلس يعرفون به
قد كابدوا الحب حتى لان أصبعه

٢ - وقال في ذم من حرم العلم والعمل قال الشاعر :
لا تخذعنك اللحاء والصور
تسعة أعشار من ترى بقر
في شجر السدر منهم مثل
له رواء وماله ثمر

وكما قيل :

زوامل للأشعار لا علم عندهم
بجيدها إلا كعلم الإباعر
لعرك ما يدري البعير إذا غدا
بأوساقه أو راح ما في الغرائر

واحسن من هذا كله قوله تعالى : « وإذا رأيتهم تعجبك
أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة » *
فتراه قد استشهد للمعنى الواحد بشعر لشاعرين مختلفين .
وبآية من كتاب الله توضح المعنى أتم توضيح * .

٣ - وقال في بعض الدنيا والزهد فيها لمشاركة الأراذل
الافاضل فيها : « وكثير من الناس حصل له الزهد في المحبوب
والمعشوق منها : وهذا كثير في أشعار الناس ونثرهم كما قيل :

سأترك حبها من غير بغض
وذاك لكثرة الشركاء فيه
إذا وقع الذباب على طعام
رفعت يدي ونفسي تشتهيه
وتجتنب الاسود ورود ماء
إذا كان الكلاب ولعن فيه^(١)

(١) مفتاح دار السعادة ج ١ ص ١٤١ .

٤ - وقال في فضل العلماء وحياتهم في قبورهم ، وذم الجاهل وموتهم في حياتهم . فالعالم بعد وفاته ميت وهو حي بين الناس والجاهل في حياته حي وهو ميت بين الناس : كما قيل :

وفي الجهل قبل الموت موت لاهله
وأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم في وحشة من جسومهم
وليس لهم حتى النشور نشور

وقال آخر :

قدمت قوم وما ماتت مكارمهم
وعاش قوم وهم في الناس اموات
٥ - وقال مبطلا التقليد ، وآخذا بخناق المقلدين ، وسادا عليهم كل مسلك :

فان كنت لا تدري فتلك مصيبة
او كنت تدري فالمصيبة اعظم^(١)
وقال في الوصول الى المعالي ، ببذل المهج الغوالي ، ضاربا
المثل بجهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وما لاقى من
قومه ، في سبيل نشر دعوته ، واحياء أمته ، وانقاذهم من وهدة
الجهل والجاهلية ، وتأسيس دعائم دين متم للمثل العليا من

(١) اعلام الموقعين ج ٢ ص ٣٠٨ و ٣٠٩ .

الاخلاق الفاضلة . والمعاملات الكاملة . التي ات بها الاديان السابقة . ووضع معايير اخلاقية . غير ما كانت عليه أهل الجاهلية من مثل تظن انها بلغت فيها أعلى درجات الكمال : وهل وصل من وصل الى المقامات المحسودة . والنهايات الفاضلة ، الا على جسر من المحنة والابتلاء

كذا المعالي اذا مررت تدركها

فاعبر اليها على جسر من التعب^(١)

٦ - وقال في منزلة العلماء والامراء في توجيه الناس وجهة سالحة مستدلا بقول عبد الله بن المبارك رضي الله عنه وغيره من السلف : صنفان من الناس اذا صلحا ، صلح الناس واذا فسدا فسد الناس ، قيل : من هم ؟ قال : العلماء والامراء مستشهدا بشعر نسبه الى ابن المبارك :

رأيت الذنوب تमित القلوب

وقد يورث الذل ادمانها

وترك الذنوب حياة القلوب

وخير لنفسك عصيانها

وهل افسد الدين الا الملوك

وأجبار سوء ورهبانها

(١) مفتاح دار السعادة ج ١ ص ٣١٣ .

اقتباسه من غرر الشعر :

كان كثيرا ما يقتبس من غرر الشعر وروائعه من المعاني التي يرمي اليها فتأتي عباراته روعة في البلاغة ، وذروة في الفصاحة ، من غير أن يشعر القارئ باضطراب الأسلوب . أو قلق العبارة . كما قال في وصف الرعيل الأول من السلف الصالح : يسرون مع الحق أنى سارت ركائبه . ويستقلون^(١) مع الصواب حيث استقلت مضاربه : اذا بدا لهم الدليل بأخذته طاروا اليه زرافات ووحدانا . واذا دعاهم الرسول الى امر اتدبوا اليه ولايسألونه على ما قال برهانا ، اقتبسه من قول قريط بن أنيف أحد شعراء بلخبر :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم

في النائبات على ما قال برهانا

فأنت ترى بالاضافة الى اقتباسه الرائع . السجع السهل غير المتكلف في قوله : (ركائبه ومضاربه) و (وحدانا وبرهانا) . وترى في قوله : سارت ركائبه ، واستقلت مضاربه ، من التعبير المجازي ما هو آية في فن البلاغة ، وقوله : يستقلون . دليل على مدى تمكنه من اللغة ولو قال : يسرون ، لوضح المعنى ولكنه آثر (يستقلون) لما فيها من معنى السفر والارتحال ، وهكذا اهل الحق والصدق من الرعيل الأول . يؤثرون السفر

(١) استقل القوم : ذهبوا وارتحلوا . القاموس المحيط .

مع الحق مع ما فيه من التعب والنصب ، على الإخلاص الى الراحة
والجأوس على الطراحة (١) وهذا اللفظ (يستقلون) في هذا
الموضع لا يأتي الا على لسان متمكن من اللغة ضليع فيها .

اقتباسه من القرآن والحديث الشريف :

اما اقتباسه من القرآن الكريم . فأكثر من أن يحصى ولا
عجب في ذلك ، فقد كانت دراسته التي وهبها حياته ، ووقف عليها
نفسه . فاليك مثالا مما قاله على لسان اصحاب الحيل لمبطلها .
قال أصحاب الحيل : (قد أكثرتم من ذم الحيل وأجلبتم بخيل
الادلة ورجلها ، وسميها ومهزولها) ففي هذا الاسلوب اقتباس
من الآية القرآنية « واستفزز من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب
عليهم بخيلك ورجلك » (٢) .

ومما قاله في ابطال الحيل ، « فكيف يليق بالشرعية الكاملة
التي اعنت أكل الربا وموكله وبالغت في تحريمه وأذنت صاحبه
بحرب من الله ورسوله . أن تبينه بأدنى الحيل » فانت ترى في
الاسارب اقتباسا من الحديث : « لعن الله أكل الربا وموكله
وكاتبه وشاهديه » ومن الآية القرآنية في سورة البقرة : « فان لم
تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » .

(١) اعلام الموقعين ج ٣ ص ١٥٦ و ١٥٧ .

(٢) سورة الاسراء آية ٦٤ .

ولئن كان متأثراً بأسلوبه الكتابي بروح عصره من كثرة الشواهد والامثال . والاقتباس والسجع ، فإن سجعه غير سجع مسلول ولا هو بالمتكلف المتعسف . بل هو هين لين . له رنين في أذن السامع ومقبول على لسان القارئ لذيد معسول . فإن صدر عنه أحيانا ، صدر دون تكلف او تعسف ، فاستمع اليه يقول . في الرد على المقلدين : (وأين منصب المقلد من منصب المستدل ؟ . وهل ما ذكرتم من الأدلة الإثبات استعرتوها من صاحب الحجة فتجسستم بها بين الناس ، وكنتم في ذلك متشبعين بما لم تعطوه . ناطقين من العلم بما شهدتم على انفسكم انكم لم تؤثوه . وذلك ثوب زور لبستموه ، ومنصب لستم من أهله غصبتموه . فأخبرونا ، هل صرتم الى التقليد لدليل قادكم اليه ، وبرهان لكم عليه . فنزلتم به من الاستدلال أقرب منزل . وكنتم به عن التقليد بعزل . أم سلكتهم سبيله اتفاقا وتخينا من غير دليل . وليس الى خروجكم عن احد هذين القسيتين سبيل . وإيهما كان فهو بذهب التقليد حاكم . والرجوع الى مذهب الحجة لازم . ونحن ان خاطبناكم بلسان الحجة قلتم : لسا من اهل هذه السبل وان خاطبناكم بحكم التقليد فلا معنى لما اقمتموه من الدليل . . . فانهم شاهدون على أنفسهم بأنهم لم يعتقدوا تلك الاقوال لدليل قادهم اليه . وبرهان دلهم عليه ، وانما سبيلهم

محض التقليد والمقلد لا يعرف الحق من الباطل . ولا الحالي
من العاضل (١)

معرفته اللغوية والبيانية :

قبل أن نعرض نماذج من معرفته اللغوية والبيانية ، نورد
ما ذكره عن نفسه في مقدمة كتابه (الفوائد المشوق الى علوم
القرآن . وعلم البيان) قال : « وهذه الجيلة التي تأصلت
وتحصلت . والفوائد التي بعد اجمالها فصلت . نقلتها من كتب
ذوي الاتقان . علماء علم البيان ، التي وقفت عليها . وترقت همة
اطلاعي اليها من كتب المتقدمين والمتأخرين وهي كتاب
البديع لابن المعتز ، وكتاب الحالي والعاقل للحاتي . وكتاب
المحاضرة له أيضا ، وكتب الصناعتين للعسكري . وكتاب اللمع
للعجسي . وكتاب المثل السائر لابن الاثير . وكتاب الجامع الكبير
لابن الاثير أيضا ، وكتاب البديع لاسامة بن منقذ . وكتاب
العدة للزنجاني ، وكتاب نظم القرآن له أيضا . وكتاب نهاية
التأويل في كشف أسرار التنزيل لكمال الدين عبد الواحد بن
عبد الكريم الانصاري . وكتاب التفریع في علم البديع ، لزكي

(١) اعلام الموقعين ج ٢ ص ٣٠٥ و ٣٠٦ .

الدين بن عبد العظيم بن أبي الاصبع . وكل كتاب من هذه الكتب أخذ من كتب شتى مع ما أضفت إليها من فوائد مستعذبة ، وفرائد حسنة المذاق مستغربة ، نقلتها عن الأئمة الاعلام الاكابر ، ونقلتها عنهم من ألسنتهم لا من بطون الدفاتر . وما أضفت الى ذلك مما تفضل الله به ومنح ، من مهمل أبنته . ومجمل فصلته ، وشارد قيده وحصلته . . . الخ » (١)

وسنذكر فصلا خاصا نبين فيه مدى معرفته بالعلوم البيانية ولا يتمكن من الخوض في علوم البيان من لم يكن له باع طويل في معرفة اللغة . نحوها وصرفها وفقها . فكلامه على حديث « من تطب ولم يعلم منه الطب قبل ذلك فهو ضامن » . قال : في هذا الحديث ثلاثة أمور : أمر لغوي ، وأمر فقهي ، وأمر طبي ، فأما اللغوي : فالطب بكسر الطاء في لغة العرب يقال على معان ، منها الاصلاح يقال : طببته ، إذا أصلحته . ويقال : له طب بالامور . أي لطف وسياسة قال الشاعر :

وإذا تغير من تميم أمرها

كنت الطبيب لها برأي ثاقب

ومنها الحذق : قال الجوهري : كل حاذق طيب عند

العرب . قال أبو عبيد : أصل الطب الحذق بالاشياء ، والمهارة

١) الفوائد المشوق الى علوم القرآن وعلم البيان .

بها ، يقال للرجل : طيب ، إذا كان كذلك وان كان في غير علاج المريض . وقال غيره : رجل طيب أي حاذق سبي طبيباً لحذقه وفطنته ، قال علقمة :

فإن تسألوني بالنساء فإني
خبير بأدواء النساء طيب
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله
فليس له في ودهن نصيب

وقال عنترة :

إن تغدني ^(١) دوني القناع فإني
طب بأخذ الفارس المستلثم

أي : فاني خبير حاذق بأخذ الفارس الذي قد تلثم .
ومن معاني الطب : العادة ، يقال : ليس ذلك بطبي ، أي :
ليس ذلك من عادتي قال فروة بن مسيك :

فما إن طبنا جبن ونكن
منايانا ودولة آخرينا

ومن معاني الطب : السحر يقال : رجل مطبوع ، أي
مسحور ، وجاء في الصحيح من حديث عائشة رضي الله عنها

(١) أي ترخي وتسبلي ، أراد : إن تستري وجهك بالقناع .
فإني الخ .

قالت : « لما سحرت يهود رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلس الملكان عند رأسه ورجليه ، فقال أحدهما : ما بال الرجل ؟ قال الآخر مطبوب ، قال : من طبه ؟ قال : فلان اليهودي » قال أبو عبيد : انما قالوا للمسحور مطبوب لأنهم كنوا بالطب عن السحر كما كنوا عن اللدنيغ ، فقالوا : سليم تفاؤلا بالسلام ، وكما كنوا بالمفازة عن الفلاة المهلكة التي لا ماء فيها ، فقالوا : مفازة تفاؤلا بالفوز من الهلاك ، وقال الحماسي :

فإن كنت مطبوبا فلا زلت هكذا
وإن كنت مسحورا فلا برىء السحر

أزاد بالمطبوب الذي قد سحر ، وأراد بالمسحور العليل بالمرض ، قال الجوهري : ويقال للعليل مسحور وأنشد البيت ، ومعناه إن كان هذا الذي قد عراني منك ومن حبك أسأل الله دوامه ، ولا أريد زواله سواء أكان سحرا أو مرضا ، ثم قال : والطب مثلث الطاء ، والمفتوح الطاء هو العالم بالأمور ، وكذلك الطبيب يقال له طب أيضا ، والطب بكسر الطاء فعل الطبيب ، والطب بضم : اسم موضع ، قاله ابن السكيت ، وأنشد :

فقلت هل انهلتم بطب ركابكم
بجائزة (١) الماء التي طاب طيبها

(١) الجائزة : العطية وأصله إن اميرا واقف عدوا وبينهما

وقوله صلى الله عليه وسلم : (من تطبب) ولم يقل : من طب ، لأن لفظ التفعّل يدل على تكلف الشيء والدخول فيه بعسر وكلفة وأنه ليس من أهله : كتحلّم . وتشجع . وتصبر ، ونظائرهما . وكذا بنوا التكلف على هذا الوزن : قال الشاعر :
وقيس غيلان ومن تقيسا (١) .

فهذا الاستطراد والشرح الوافي للحديث الشريف ، يدلنا على مدى تعمق ابن القيم رحمه الله وإطلاعه على أسرار اللغة العربية وفقهها .

ولم تقتصر معرفة ابن القيم باللغة العربية على النحو ، بل له في معرفة المعاني والبيان ، الباع الطويل ، والمعرفة الواسعة . فكتابه « الفوائد المشوق الى علوم القرآن ، وعلم البيان » يدلنا على مدى توسعه وتضلعه بهذا الشأن من علم المعاني والبيان .

— نهر فقال : من جاز هذا النهر ، فله كذا . فكلما جاز واحد منهم اخذ جائزة . واصل الجائزة ، ان يعطي الرجل الرجل ماء ليذهب لوجهه . فيقول الرجل — اذا ورد ماء لقيم الماء : اجزني ماء . اي اعطني ماء حتى اذهب لوجهي . واجوز عنك . ثم كثر هذا . حتى سموا العطية جائزة — لسان العرب ج ٧ ص ٥ فالمراد بجائزة الماء الذي اخذوه جائزة .

(١) زاد المعاد ج ٣ ص ١٤٣ — ١٤٥ .

وقد سبقت الإشارة الى جهوده التي بذلها في تأليفه وترتيبه ، وأن الغاية من معرفة المعاني والبيان . فهم معاني أسرار القرآن الكريم ، كما ذكر في مقدمته حيث يقول : « وحصلته ليكمل بهذا الكتاب النفع ، ويأتي على نهاية من حسن الوصف وبديع الجمع ، وإحياء لعلم البيان . المطلع على نكت نظم القرآن ، الذي قد عفت آثاره ، وقلت أنصاره ، وتقاعدت الهمم عن تحصيله ، وضعفت العزائم عن معرفة فروعه . فضلا عن أصوله ، فما من علم من العلوم الاسلامية رمي بالهجر والنسيان ما رمي به علم البيان . ولو أداموا النظر فيه ، والتسلح لمعانيه . لاطلعوا من الكتاب العزيز على خفايا نهش لها القلوب . ودقائق تسفر لهم عن وجوه المطلوب . ومن لم يعرف هذا العلم . كان عن فهم معاني الكتاب العزيز بسعزل ، ولم يقم ببعض حقوق المنزل والمنزل ، ومن وقف على هذه الاصول التي أصلتها ، والفصول التي فصلتها . ظهر له مصداق هذه الدعوى ، وأخذ من التوصل الى معرفة هذا العلم بالسيف الاقوى ، وحسن عنده موقعه ، وعظم في نفسه محله وموضعه ، وخالطت قلبه بشاشة رونقه ، وجلبت في عينه نضارة نظائره وحسن موقفه (١) .

قبل ان ننهي الكلام على ثقافته ورسومه قدمه في علوم الإسلام

(١) الفوائد المشوق الى علوم القرآن وعلم البيان ص ٨ .

يحسن بنا أن نبرز شخصيته الفذة، وأنه كان عالماً مستقلاً له قدرة فائقة ، على إيراد الحجج الدامغة ، لما يراه أنه الحق بهدوء العالم المطئن المتسكن ، وهبه الله فكراً ثاقباً ولساناً ناطقاً ، يسترسل في إيراد الحجج حتى ليظن من لم يتسن على القراءة له ، أنه خرج عن الموضوع ، فهو يشارك شيخه ابن تيسية بهذه الصفات ، وينفرد عنه بالهدوء والاتزان ، وذلك ناشئ عن نشأة كليهما ، فقد نشأ كل منهما في عصر مليء بالخلافات المذهبية فحاربها ، ودعوا إلى الرجوع إلى ما كان عليه السلف في الاعتقادات والمعاملات والعبادات . فهم أعلم الناس بدين الله ، لقربهم من عهد التنزيل وقبل أن تتسرب الآراء المستورة إلى الدين ، من فرس ورومان ، وهند ويونان .

الفرق بين شخصيته وشخصية شيخه ابن تيسية

تستاز شخصية ابن القيم عن شخصية شيخه ابن تيسية ، بالهدوء واللين بسنازلة خصومه من الفرق المنحرفة ، كالمعتزلة والقدرية والجبرية والجهمية وغلاة المتصوفة من دعاة الحلول والاتحاد ، والجامدين من فقهاء الدين المتعصبين لمذاهبهم .

فشيخ الإسلام ابن تيسية نشأ في فترة كانت الحروب على أشدها بين المسلمين والترك ، وقد خاض معظم هذه الحروب بنفسه

مقاتلا مجاهدا . حاثا المسلمين على قتال التتر وما يؤثر عنه :
سئل شيخ الاسلام ابن تيمية : هل يجوز قتال التتار ؟ ومن اي
قبيل هم ؟ فانهم يظهرون الاسلام ، وليسوا بغاة على الامام ، فانهم
لم يكونوا في طاعته في وقت ثم خالفوه .

فقال الشيخ تقي الدين : هؤلاء من جنس الخوارج الذين
خرجوا على علي ومعاوية . ورأوا أنهم احق بالأمر منها ، وهؤلاء
يزعمون أنهم احق بإقامة الحق من المسلمين . ويعيبون على
المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم . وهم متلبسون
بساو اعظم منه باضعاف مضاعفة فتفطن العلاء والناس
لذلك .

وكان يقول : اذا رأيتسوني في ذلك الجانب وعلى رأسي
مصحف فاقتلوني . فشجع الناس على قتال التتار . وقويت قلوبهم
ونياتهم والله الحمد (١) .

ومثل هذا الموقف كانت مواقفه ضد التتار . فقد كان ثائرا
بطبعه ثورة جسمية . قبل ان يكون ثائرا ثورة علمية . فصفحات
التاريخ تحدثنا عن مواقفه البطولة والشجاعة التي وفقها ابن تيمية
في ساحات القتال . فمن هذه المواقف ما ذكره صاحب العقود
الدرية . قال : قال ابن تيمية في موقعة مرج الصفر - وهي احدى

(١) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢٣ - ٢٤ .

المواقع التي وقعت بين المسلمين والتتار - قال لأحد الامراء :
 يافلان أوقفني موقف الموت . قال : فسقته الى مقابلة العدو .
 وهم منحدرون كالسيل تلوح اسلحتهم من تحت الغبار المنعقد
 عليهم ، فرفع طرفه الى السماء واشخص بصره وحرك شفتيه
 طويلاً ، ثم انبعث وأقدم على القتال ، وقد شوهد في هذه الموقعة
 ومعه اخوه يصيحان بصوت مرتفع يحرضان الناس على القتال
 ويحذرانهم الفرار (١) .

ولهذا كان رده على الفرق المنحرفة عن هدى السلف عنيفاً ثائراً ،
 يرمي خصومه بالكفر تارة . والمروق والفسوق والعصيان تارة
 اخرى ، جريئاً في مناقشة خصومه . ثائراً عليهم ثورة عنيفة ومن
 هذا رده على ابن عربي ما جاء في « فصوص الحكم » من مثل
 قوله :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا

قال ابن تيسية : ما تفسنه كتاب فصوص الحكم وما شاكله
 من الكلام ، فانه كفر باطنا وظاهراً . وباطنه أقبح من ظاهره ، وهذا
 يسمى مذهب أهل الوحدة . وأهل الحلول . وأهل الاتحاد (٢) .

(١) العقود الدرية لابن عبد الهادي ص ١٧٧ - ١٧٨ .

(٢) مجموعة رسائل شيخ الاسلام ابن تيمية الطبعة

الاولى ص ٤١ .

فابن تيسية لا يتورع عن رمي خصومه بالكفر والإلحاد . وهذا اسلوب الثائر الذي ثار في ميدان القتال ، وثار في ميدان الفكر فكانت نتيجة ثورته الاولى نصرا على الاعداء ، وخاتمة ثورته الثانية ثروة قيسة في الفقه والعقائد والتصوف ، لا يغض من قيستها مالاقاد من عنت ، وما تكبده من اذى في سبيل تصحيح العقيدة وايضاح مفاهيم الفقه والتصوف .

وأما ابن القيم فقد عالج هذه الامور بهدوء واتزان كبا سيأتي عند عرض بعض آرائه عرضا وافيا . لجلاء شخصيته الثريدة .

ويرجع سبب الفارق بين الشخصيتين أن ابن تيسية ثائر بطبعه وبيئته التي عاش فيها ، وكذا ابن القيم كان هادئا بطبعه . وقد فترت حدة القتال بين المسلمين والتتار بنصر المسلمين بالقضاء على التتار .

وكذا الظروف التي احاطت بكليهما . والوضع الذي وضعها فيه فابن تيسية هو الذي حمل لواء المعارضة فلا في في سبيلها الآلام والمحن . فالنزاع الفكري كالنزاع المادي يكون في أول الشوط حادا شديدا ، لأن الطرفين المتخاصمين يكونان بكامل عدتها ثم تخف حدة النزاع شيئا فشيئا ، فلما جاء ابن القيم كان النزاع قد فترت حدته وخفت وطأته . ولذا كان ابن القيم هادئا متزنا في معارضته ومناقشته . فأخذ يوازن بين الآراء وبردها في هدوء .

واتزان . ويختار منها ما يراه موافقا للشرع . ويرد ما يخالف الشرع . سواء في ذلك إباحاته الصوفية والفقهية والكلامية^(١) .

وكان ابن القيم أثيرا لدى شيخه ابن تيسية . وكان ينزله منزلة ولده . بل كان ولده الروحي وكان يتوسم فيه الخير والاصلاح . ويراه نعمة من الله ارسله ليتسم ما كان يدعو إليه من تصحيح الافكار ، وتهذيب الدين . وتجريده مما علق به مما ليس منه عبر القرون . والرجوع به لما كان عليه سلف هذه الامة اعتقادا ، وفقها ، وتصوفا ، وتحريرا من ربقة المقلدين التي جعلوها دينا ، وكثيرا ما كان يسدي اليه النصائح كلها وجد لذلك سبيلا .

قال ابن القيم : وقال لي شيخ الاسلام رضي الله عنه . وقد جعلت أورد عليه إيرادا بعد إيراد : « لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة فيتشربها فلا ينضح إلا بها ، ولكن اجعله كالزجاجة المصتة ، تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها . فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته . وإلا فاذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليك . صار مقرا للشبهات . أو كما قال »^(٢) يقول ابن القيم : فسا أعلم أنني انتفعت بوصية في دفع الشبهات كانتفاعي بهذه الوصية .

(١) ابن القيم لعبد العظيم شرف الدين ص ٩٥ .

(٢) مفتاح دار السعادة ج ١ ص ١٤٨ .

ولهذا كان يرى الشبهات بعين البصير ، الخبير ، وتمر على ذهنه دون أن تترك أثرا في نفسه . فيعرض ما يمر عليه من الشبهات على الكتاب والسنة . وهو الشرع المنزل من عند الله ، فيدعو الى ما يراه موافقا لها . وينبذ ما كان مخالفا .

اعتداده برأي شيخه دون تعصب :

كان شديد الاعتداد برأي شيخه ابن تيمية دون تعصب ولا تقليد : بل عن اجتهاد وموافقة واقرار منه لشيخه بصحة ما أدى اليه اجتهاده . وكيف يقلد غيره ، وهو الذي ظل يدعو الى التحرر الفكري . ونبذ التقليد طوال حياته .

ومن أمثلة اعتداده برأي شيخه ما ذكره عنه في الحديث الدال على التحريم برضاع الكبير : ولإيضاح الفكرة نذكر واقعة أبي حذيفة مع مولاه سالم . وهو الحديث الذي دار حوله الخلاف بين القائلين بالتحريم ، وبين مذهب الجمهور الذين يقولون : إن الارضاع بعد الحولين لا يحرم .

روى أبو داود في سننه من حديث الزهري . عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : أن أبا حذيفة بن عتبة ، كان تبني سالما وهو صغير ، فلما بلغ سن الرشد - وكانت الآيات بإبطال عادة التبني قد نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم -

فأبطل النبي عليه الصلاة والسلام تبنيه لزيد بن حارثة ، وكان يدعى زيد بن محمد . فصار يدعى زيد بن حارثة . لقول الله : « ادعوهم لأبائهم » جاءت سهلة ابنة سهيل . وهي زوجة أبي حذيفة . الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله إنا كنا نرى سالما ولداً لنا وكان يأوي معي ومع أبي حذيفة في بيت واحد ، ويراني فضلاً ، وقد أنزل الله - عز وجل - فيهم ما قد علست ، فكيف ترى فيه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرضعيه ، فأرضعته خمس رضعات ، فكان بسنلة ولدها من الرضاعة - لذلك كانت السيدة عائشة رضي الله عنها ترى أن هذا عام - وأبت أم سلية رضي الله عنها وسائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ذلك . ورأت أن هذا خاص بامرأة أبي حذيفة وسالم . فأبين أن يدخل عليهن أحد بشل هذه الرضاعة . الا أن يرضعهم في المهد .

وقد وقف القائلون بالرضاع في الحولين من هذا الحديث مواقف . فمنهم من قال إن هذا الحديث عام . ومنهم من قال إنه مخصوص . ومنهم من قال إنه منسوخ . . وقد أفاض ابن القيم رضي الله عنه في الكلام على هذا الحديث ، في الجزء الرابع من زاد المعاد بسا يزيد على عشرين صفحة ، وأخيراً ذكر القول الفصل . وهو رأي شيخه ابن تيسية . فقال : حديث

سهلة - أي زوجة أبي حذيفة - ليس عاماً ولا خاصاً ولا منسوخاً .
وإنما هو رخصة للحاجة لمن لا يستغني عن دخوله على المرأة ،
ويشق احتجابها عنه . كحال سالم مع امرأة أبي حذيفة . فمثل
هذا الكبير إذا أرضعته للحاجة أثر رضاعه . وأما ما عده فلا
يؤثر . إلا رضاع الصغير فقط . ذكر رأي شيخه وارتضاه ،
ومن هذا يبدو لنا ، أنه كان لا يتخرج من قبول آراء شيخه ،
ما دام مقتنعاً بها ، أما إن لم يقتنع بها فإنه يذكر رأيه مبيناً وجهة
نظره كما مر معنا مراراً . وهذا دليل على أنه أمين في تحقيق
الهدف الذي يرمي إليه ، وهو الدعوة الى الاجتهاد . واعمال
الفكر ونبد التقليد .

وبعد فقد آن الاوان لعرض صور لما حبره قلم هذا الحبر
العظيم ، مما لم يتعرض له الاستاذ عبد العظيم شرف الدين في
رسالته التي أعدها لنيل الماجستير . فقد كان هدفه ابراز
شخصيته العلمية وما أوتي من سعة اطلاع على الفرق والمذاهب
الاسلامية ، وقوة حججه الفعلية والنقلية للدفاع عن الدين
وتجريده من البدع .

الباب الثالث

أدب الإمام ابن القيم

الكلام على كتاب روضة المحبين :

وسأبدأ بكتاب روضة المحبين لأنه جسع فأوعى ، فهو يصلح لسائر الطبقات . من المتخصصين في العلوم الشرعية على اختلافها ، والمغوية على تفرع فروعها . حتى يكاد لا يستغني عنه عالم متخصص . ولا أديب مثقف ولا داعية مرشد . ولا عامي مهذب ، ولنترك الكلام لمؤلفه يحدثنا عنه في مقدمته حيث يقول : « والمرغوب الى من يقف على هذا الكتاب أن يعذر صاحبه ، فإنه علقه في حال بعده عن وطنه وغيبته عن كتبه ^(١) فإعسى أن يبلغ خاطره المكدود . وسعيه المجهود ، مع بضاعته المزجاة ، التي حقيق بحاملها أن يقال فيه : تسع بالمعيدي خير من أن تراه . وها هو قد نصب نفسه هدفاً لسهام الراشقين ، وغرضاً

(١) إن من يطلع على هذا الكتاب ويرى ما فيه من العجب المعجاب لياخذ العجب من هذا الجبر العظيم الذي ألفه في حال بعده عن وطنه وبعدد عن كتبه وأتى فيه بكل معجب مطرب . والأعجب منه تأليفه لزاد المعاد وناهيك أنه ألفه في السفر بين بيت المقدس ومكة المكرمة .

لأسنة الطاعنين ، فلقارئه غنمه ، وعلى مؤلفه غرمه ، وهذه بضاعته تعرض عليك ، وموليته تهدي اليك ، فإن صادفت كفوّاً كريماً ، لن تعدم منه إمساكاً بـ معروف أو تسريحاً باحسان وإن صادفت غيره . فالله تعالى المستعان وعليه التكلان ، وقد رضي من مهرها بدعوة خالصة ، إن وافقت قبولا واستحسانا ، وبرد جليل ان كان حظها احتقارا واستهجانا ، والمنصف يهب خطأ المخطيء لإصابته ، وسيآته لحسناته . فهذه سنة الله في عباده جزاءً وثواباً . ومن ذا الذي يكون قوله كله سديداً ، وعمله كله صواباً ، وهل ذلك إلا المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ، ونطقه وحى يوحى . فما صح عنه فهو نقل مصدق عن قائل معصوم ، وما جاء عن غيره فثبوت الامرين فيه معدوم ، فان صح النقل لم يكن القائل معصوماً ، وإن لم يصح لم يكن رصولة اليه معلوماً . . . » الى أن قال : « وهذا الكتاب يصلح لسائر طبقات الناس فانه يصلح عوناً على الدين . وعلى الدنيا ، ومراقبة للذة العاجلة ولذة العقبى . وفيه من ذكر أقسام المحبة وأحكامها ومتعلقاتها ، وصحيحها وفاسدها وآفاتها وغوائلها وأسبابها وموانعها ، وما يناسب ذلك من نكت تفسيرية ، وأحاديث نبوية ، ومسائل فقهية . وآثار سلفية ، وشواهد شعرية . ووقائع كونية . ما يكون مستعاً لقاريه مروحاً للنظر فيه ، فان

شاء أوسع جـداً وأعطاها ترغيباً وترهيباً ، وإن شاء أخذ من
مـزله وملحه نصيباً ، فتارة يضحكه وتارة يبكيه ، وطوراً يبعده
من أسباب اللذة الفانية وطوراً يرغبه فيها ويدنيه ، فإن شئت
وجدته واعظاً ناصحاً ، وإن شئت وجدته بنصيحك من اللذة
والشهوة ووصل الحبيب مسامحاً » .

بعدما ظهرت لنا شخصية ابن القيم العالم المتقن المتفنن
يجدر بنا أن نريك شخصيته كأديب شاعر . كاتب محاضر راوية .
والادب - كما عرفه أربابها - هو ما أثر عن الشعراء والكتاب
من بدائع القول ، وروائع المعاني ، المشتغل على تصوير الاخيلة
الدقيقة وابرار المعاني البديعة ، مما يهذب النفس ويرقق
الحس . ويشقق اللسان ، ويطلق للخيال العنان ، ولعسري إن
الامام ابن القيم يشمل هذا التعريف . ويحق له أن يرأس أدباء
عصره ، كجمال الدين بن نباته شارح رسالة ابن زيدون المتوفى
سنة ٧٦١ : وابن منظور المتوفى سنة ٧١١ ، وابن سيد الناس
المتوفى سنة ٧٣٤ . وابن الوردي صاحب اللامية المشهورة في
الحكم - اعتزل ذكر الاغاني والغزل - .

ولا يرد علينا أن ابن القيم ليس له ديوان شعر معروف ،
فحسبه كتاب (الكافية الشافية) في النظم ، وقصائده الحسان
في وصف الجنة والحدود الحسان ، وفي الشر كتابه روضة

المحبين . وما ضمنه من شعره الذي يعد من غرر الشعر كما
سيمر بنا قريباً ، ولو كان يعنى بالشعر ، ليتخذ مطيته لدنياء
لبرز فيه على كل من قال شعراً . وإنا لنجد في شعره الادبي من
السهولة والعذوبة ودقة التصوير وسعة الخيال ما يشهد له بدقة
الحس والقوة على تصوير الخيال .

ولا نكون مغالين اذا قلنا : إنه أحد أعلام الأدباء ، وامتاز
عنهم بكونه جمع الى حصافة العلم وتحقيقه ورقة الأدب
وعذوبته ورواية أخباره ، واختيار أشعاره ، ولا ننسى في هذا
المقام أن حسن اختياره للشعر يدل على شاعريته ، كما قيل عن
أبي تمام : إنه في اختياره لديوان الحماسة أشعر من شعره .

ودليل آخر يسوغ لنا عدّ ابن القيم أديباً ، هو وضعه
لكتابه روضة المحبين من حفظه ، بل اعتماداً على ماحوته ذاكرته
من طرائف الأدب ، وأخبار الأدباء والمحبين ، وروائع الشعر
في كل فصول الكتاب على اختلافها ، وما حواه صدره الرحب من
علم غزير ، وإطلاع واسع على شتى فنون الأدب ، وقد أخبر عن
نفسه معتذراً أنه وضع الكتاب من محفوظه كما مر معنا سابقاً .

ويشهد لهذا ناشر الكتاب ، الاستاذ أحمد عبيد فإنه عانى
أثناء طبعه الكتاب وإبرازه للناس بهذا الثوب القشيب شيئاً

كثيراً قال: « ولقد تبين لي في ذلك — في تصحيحه أثناء الطبع — حقيقة ما قاله المؤلف في مقدمته ، من أنه علقه في حال بعده عن وطنه وغيبته عن كتبه ، فأنني لم أجده يذكر الحديث بلفظه ولا القول بنصه ، فربما جسع الآية من آيتين ، والحديث من حديثين ، وربما قدم المؤخر ، وآخر المقدم ، وأبدل كلمة بكلمة وغير حرفا بحرف » .

فمن يضع كتاباً من غرر كتاب الأدب من محفوظه غير مستعين على تأليفه بسفر، ولا مراجعة كتاب. نعهه بحق من أكبر الأدباء ، وما يسعنا من ذلك ؟ ونحن نرى بعض معاصرينا يطلق عليه لقب اديب ، بسجرد كتابة مقال او مقالين في صحيفة يومية ، أو مجلة شهرية ، مستعيناً على تحرير مقاله بكل ما تصل اليه يده من أسفار وآراء الرجال .

مقارنة روضة المحبين بطوق الحمامة لابن حزم :

طوق الحمامة لابن حزم أقدم مؤلف وصل إلينا، يصور الحب بكل حالته وأشكاله، وحلوه ومره ، وعذبه وعذابه ، استقاه من معين نفسه الوالهة المدلّهة ، والتسمه من مكنون صدره المتأجج بنار الحب أسال فوق صفحاته ما أبقي الحب في قلبه من لوعة ، وفي محاجره من دموع، بما أودعه من نظمه، في حوادث وقعت له مع

من يجب وماضنه من نقشات فؤاده الملسوع بسوم الغرام، وقد
كفانا القول عنه: الأديب الكبير الأستاذ البزم في مقدمته التي قدمها
له . للتعريف به . فانا أخص منها . ما يتعلق بموضوعنا ، قال :
« ونوق الحمامة ينفرد بحاسن ، ويعتصم بخصائص ،
تقضي له بالمكانة العليا . فمن ذلك : إمامه ببعض ما يتفاهم به
المتحابون . وتعريجه على الحوض في معرفة سياسة الحب ، وما
يلزم الرجل فيه . من حذر واحتراس ، وعطفه على التماس العلة
في ان النساء أكثر تعرضا للحب ، واشد اشتغالا به لكثرة فراغهن
وزيادة مشاغل الرجال ... كما وأنه نزه كتابه عن كثير مما شاذ
به المؤلفون في الحب كتبهم من أوهام وأباطيل . »

ثم ذكر الأستاذ البزم ما أخذه على طوق الحمامة من هنات
فقال : « أولا — لم يحسن ابن حزم باقتصاره على شعره في طوق
الحمامة فقيده نفسه من هذا بقيد ضيق عليه المضطرب ، وثقل من
خطاه . وقصر من مدى جريه ، وكف من جولانه في طيات
الموضوع . »

ثانيا — لم ينجح ابن حزم من الوقوع في أحابيل الفلسفة
في أول كتابه ، فقد أوشك ان يرتبك بعض الارتباك ، حين قسم
اعراض الحب .

ثالثا — قال : وخرافة أخرى علقت بابن حزم ، في طوق

الحمامة : فلم ير لنفسه متدحا عنها ، وهي ذهاب فلاسفة اليونان الى ان الارواح كان لها قبل اتصالها بالاجسام . وهبوطها من عالمها الأول ألفة وتمازج وحب : فلما باشرت هياكلها من الاجساد كان لها من الحنين ونزوع بعضها الى بعض : بقدر ما وجدته من شفاقة الاجساد ورقتها ولطافتها ومرونتها » (١) .

(١) أقول ان المأخذ الثالث الذي اخذه الاستاذ البزم على الامام ابن حزم لا يسلم له على اطلاقه . فالامام ابن حزم عندما ربط تعلق الاجسام بسابق تعلق الارواح واتلافها . لم يستمد رايه من فلاسفة اليونان . ولكنه اطلع على الحديث الصحيح الوارد في هذا المعنى وشرحه : فقد روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الارواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » ورواه مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده . وأبو داود في سننه عن ابي هريرة رضي الله عنه ، ورواه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود رضي الله عنه .

« وثمة امر هام يجب الإشارة اليه ، ودليل واضح على صدق من لا ينطق عن الهوى وانه وحي يوحى ، إذ من المعروف والمسلم به ان رسول الله صلى الله عليه وسلم النبي الامي . لم يؤثر عنه أنه اطلع على فلسفة اليونان او غيرها من الامم حتى يلخص تلك النظرية بقوله : الأرواح جنود مجندة

أقول : ومن البدهي أنه يحدث لكل انسان في حياته ما يؤيد تلك النظرية فانا وانت وكل انسان . يصادف ان يجتمع بشخص ما فلأول وهلة تراه ينسجم معه في الحديث : وينشرح صدر كل واحد منهما للآخر . ويتفتح كل قلب منهما للآخر ، كأنهما على معرفة سابقة وود قديم . فاذا لم تتكرر تلك المقابلة تظل ذكرها عالقة بالذهن ردحا من الزمن .

وربما كان لي أو لك أخ شقيق، أو جار قريب، تراه كل يوم صباح مساء ، وقد كانت الارواح متنافرة في عالم الغيب، فلا تفيد القرابة ولا الجوار في ربط أواصر المحبة شيئاً ، ويظل تنافر الاجسام تبعاً لتنافر الارواح اه .

هذا ما اخذه الاستاذ البزم على الامام ابن حزم في طوق الحمامة ، ونزید على ذلك ان ابن حزم لم ينظم في سلك طوق حمامته من أخبار المحبين ونوادرهم ما يزيد في رونق الطوق ويرفع من قيسته الادبية ، وينفس عن القارىء بعض ما يجده من عناء في دراسة فلسفة الحب وأطواره . اللهم إلا ما جاء نادراً في بعض ابواب الكتاب من الاخبار مما لايتجاوز الخبر او القصة كما يسميه سطرًا وبعض السطر ، وهذا قليل بالنسبة لما يتشوق اليه المحبون من نكات ونوادر ، وأحاديث وقصص ، يروحون بها عن انفسهم ويطفئون بها لواعج الغرام

المتأججة في صدورهم ، ولم يخرج الكتاب لهذا عن جادة
الفلسفة .

فكان ابن حزم تخيل الحب مرضا لا عرضا — كما هو الواقع
— فكان يشخصه ، ويذكر أعراضه وأدواره وأطواره؛ فيبتدىء
بالنظرة الاولى ، فالتعريض بالكلام ، فالإشارة بالعين ، فالمراسلة
فالتفسير ، فالطاعة ، او المخالفة ، ثم يذكر ما يعرض للمحبين من
اسباب التنغيص فيذكر الرقيب ، والواشي ، والعدول ، والهجر
والبين ، والضنى ، والسلو ، فالموت ، ثم يختم الكتاب
بفصلين اثنين : قبح المعصية ، وفضل التعفف .

وان الامام ابن حزم لم يوفق كل التوفيق بوضعه الكتاب
طوق الحماسة على هذا النحو الفلسفي ، المنافي للروح الادبي ،
والذي لا يلتئم ومزاج الادباء ، لا بروائع شعره ، ولا بسهولة
الفاظه وتعاييره ، وسمو بيانه ، وقد لا يجد حظوة الا عند فئة
قليلة من الادباء والعلماء .

أما روضة المحبين لابن القيم ، فهو كما ذكر مؤلفه في
مقدمته : « انه يصلح لسائر الطبقات من الناس ، فهو يصلح
عوننا على الدين والدنيا ، ومراقبة للذة العاجلة ، ولذة العقبى ،
وفيه من ذكر اقسام المحبة وأحكامها ومتعلقاتها ، وصحيجها ، وفاسدها
وآفاتها ، وغوائلها ، وأسبابها ومواقعها ، وما يناسب ذلك من

نكت تفسيرية وأحاديث نبوية ومسائل فقهية وآثار سلفية ،
 وشواهد شعرية ، ووقائع كونية ، ما يكون متعاً لقاريه مروحاً
 للنظر فيه فإن شاء أوسع جداً ، وأعطاء ترغيباً وترهيئاً ، وإن
 شاء أخذ من هزله وملحه نصيباً ، فتارة يضحكه وتارة يبكيه ،
 وطوراً يبعده من أسباب اللذة الفانية وطوراً يرغبه فيها ويدنيه ،
 فإن شئت وجدته واعظاً ناصحاً وإن شئت وجدته بنصيبك من
 اللذة والشهوة ، ووصل الحبيب مسامحاً » (١)

ولقد أحسن في وصفه الاستاذ أحمد عبيد في تقديمه للكتاب
 أيما احساناً ، وصوره أصدق تصوير، حيث يقول: «ان الكتب
 المصنفة في الحب ، هذا أنفعها لأنه جمع الى لغة الحب وفلسفته
 ومذاهب الناس فيه . لغة الشريعة ، وحكمتها ، فالقارئ ينتقل
 في هذه الروضة الموثقة من فائدة لغوية ، الى قاعدة اصولية . ومن
 نكت أدبية ، الى مسألة فقهية . ومن غيرها الى غيرها ، مما لا سبيل
 الى استقصائه » (٢)

وضعه في تسعة وعشرين باباً ، ضمن كل باب عدة فصول
 توضح المطلوب وقدمه بمقدمة قيمة في فضل العقل وذم الهوى .
 وذكر الصراع القائم بينهما وأن النجاة والسلامة في سلامة دولة

(١) روضة المحبين ص : ١٣ .

(٢) المصدر السابق ص : ز ، ج .

العقل ، وإحالة دولة الهوى ، وأن الحرب بين هاتين الدولتين قائمة على قدم وساق ، دائرة الرحى وما انتصرت احدهما على الاخرى ، إلا وكانت المغلوبة أطرحت من خاتم وأذل من خادم .

وضعه على طريقته المألوفة ، من ذكر أقوال المثبتين والنافين للموضوع ، ثم هو يعقب على قول الفريقين بقوله الفصل .

كتبه بقلم المصلح للاخلاق : المهذب للنفوس ، واستمدته من قلب فاض بسجبة الله ، ونفس لا ترى الانس الا بالله ، سلك في وضعه مسالك الحكماء ، الذين يمزجون درر حكمهم بسا يوافق الامزجة المريضة ، من أساليب الكلام ، ليلغوا من نشر مبادئهم الغاية والمرام، فينما تراه يذكر فصلا طريفا في الحب وأقسامه ، وتعداد صفاته ولوازم أسمائه ، وذكر درجاته ، وقد أخذت سلاسة القول بمجامع قلبه ، وحلت أعماق له ، فلا يشعر القارئ الا ولسان الواعظ ينطق على صفحة من صفحات تهذيب الاخلاق ، وتركبة النفوس ، فكيف ومتى تغير الموضوع وانتقل من بحث لآخر فهذا مالا يشعر به القارئ .

وهذا ظاهر جليا في الباب الثاني من الكتاب الذي وضعه في اشتقاق أسماء المحبة ، التي زادت على الخمسين ومعانيها فقد ابتدأها بذكر اشتقاق المحبة وأقوال أئمة اللغة وحججهم على ذلك

من شعر من يحتج بشعرهم واختلاف الناس في حدها. ثم اخذ في شرح معنى تلك الاسماء واشتقاقها واحداً فواحداً . فذكر بعد [المحبة] العلاقة والهوى والصبوة والشغف والشغف والكلف .. الى ان استقصى حسين اسما من اسماء المحبة . وختم الحسين : بالتعبد . وجعله نهاية الحب ، وأشد انواعه . وهذا معروف مشاهد . من رسائل المحبين الى أحبابهم . فكثيرا ما يفتتح المحبون رسائلهم الى محبيهم بقولهم : معبودتي فلانة. او معبودي فلان . وهم لا يريدون العبادة بسعناها الديني . وانما يريدون اظهار درجة حبهم ، وانها وصلت الى الغاية القصوى من درجات الحب .

والذي يعجب له القارىء لهذا الباب غاية العجب حفظ ابن القيم ، رحمه الله ، لنصوص اللغة ، ولا سيما أقوال الجوهري . ولكأنني به يحفظ كتب اللغة ويتعدها بالقراءة كما يتعهد حفظ القرآن الكريم . والسنة المطهرة ، والفصيح من شعر الاقدمين والمحدثين . فهو يحتج لكل اسم من اسماء المحبة . عند الكلام على اشتقاقه بنص لغوي ، أو آية قرآنية او حديث صحيح . ولنستمع اليه الآن وهو يتكلم عن معنى (التعبد) واشتقاقه وأنه أسس درجات الحب : قال رحمه الله : « وأما التعبد فهو غاية الحب ، وغاية الذل ، يقال : عبده الحب . أي ذلله . وطريق معبد ، أي مذل بالاقدام ، وكذلك المحب ، قد ذلله

الحب ووطأه ، ولا تصلح هذه المرتبة لأحد غير الله عز وجل
 فمحنة العبودية هي أشرف أنواع المحبة ، وهي خالص حق لله
 على عباده ، وفي الصحيح : عن معاذ أنه قال : كنت سائراً مع
 رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا معاذ ، فقلت : لبيك
 يا رسول الله وسعديك ، قال : ثم سار ساعة ، ثم قال : يا معاذ
 قلت لبيك يا رسول الله وسعديك ، قال : ثم سار ساعة ، فقال :
 يا معاذ ، قلت لبيك يا رسول الله وسعديك ، قال : أتدري ما حق
 الله على عباده ، قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : حقه أن يعبدوه
 لا يشركوا به شيئاً ، أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا
 ذلك ، أن لا يعذبهم بالنار ، وقد ذكر الله سبحانه رسوله
 بالعبودية في أشرف مقاماته ، وهي مقام التحدي ، ومقام
 الاسراء ، ومقام الدعوة ، فقال في مقام التحدي : « وإن كنتم في
 ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » ^(١) وقال في
 مقام الاسراء : « سبحانه الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد
 الحرام الى المسجد الاقصى » ^(٢) وقال في مقام الدعوة :
 « وأنه لما قام عبد الله يدعوه » ^(٣) الى آخر ما يراه القارئ في
 هذا الباب .

(١) البقرة / ٢٣ ، (٢) الاسراء / ١ ، (٣) الجن / ١٩ .

وفي الفصل الرابع قال : « إن العالم العلوي والسفلي إنما وجد بالمحبة ولأجلها ، وإن حركات الافلاك ، والشمس والقمر وحركات الملائكة والحيوانات ، وحركة كل متحرك ، إنما وجدت بسبب الحب » (١) ولما كان هذا الفصل من أشرف أبواب الكتاب ، قدم له مقدمة جيدة قبل تقريره له بين فيها أنواع الحركة ، وقسمها ثلاثة أقسام : فحركة إرادية ، وحركة طبيعية ، وحركة قسرية ، وبين أن العالم وجد بالحركة الارادية الصادرة عن فعل مريد مختار محب لإرادته وتنفيذها ، فقال : « لولا المحبة اللازمة عن الارادة لم يحدث هذا الكون ، فالمحبة والارادة أصل كل فعل ومبدؤه ، فلا يكون الفعل إلا عن محبة وإرادة » (٢) ثم استطرد الكلام الى القول في القضاء والقدر ، فبحث فيه بحثاً لطيفاً خفيفاً . بقدر ما اتسعت له فرجة الكلام . وسنوفي هذا البحث حقه فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وفي الباب الخامس ذكر دواعي المحبة ومتعلقاتها . فقال : « إن لها ثلاثة أمور . وصف المحبوب (٣) ، وجماله : والمناسبة ، وهي العلاقة التي بين المحب والمحبوب ، فتمت قويت الثلاثة ، وكملت . قويت المحبة واستحكمت ، فتمت كان المحبوب في غاية الجمال ، وشعور المحب بجماله أتم شعور . والمناسبة بين الروحين قوية ، فذلك الحب الدائم اللازم » (٤) .

(١) روضة المحبين ص ٦٣ .

(٢) روضة المحبين ص ٦٧ .

(٣) روضة المحبين ص ٧٦ .

ثم تكلم على الجمال بكلام غاية في الجمال وتكلم على
الشعور ، وأنه كلما دق ولطف زادت المحبة وزاد المحبوب في
عين محبه كمالات وجمالاً ، وعند الكلام على المناسبة بين الروحين ،
ينزلق بالقارئ من حيث يشعر أو لا يشعر ، ينزلق به من وصف
الحسن والجمال ، الى المناسبة بين النفوس الزكية وصفات الكمال
فيقول : « ولهذا كانت النفوس الشريفة الزكية العلوية ،
تعشق صفات الكمال بالذات ، فأحب شيء اليها العلم والحلم
والشجاعة ، والعفة والجود والإحسان والتصبر والثبات ،
لمناسبة هذه الاوصاف لجوهرها ، بخلاف النفوس اللئيمة
الدنيئة. ، فإنها بمعزل عن محبة هذه الصفات ، وكثير من الناس
يحمله على الجود والاحسان فرط محبته له ، واللذة التي يجدها
في بذله ، كما قال المأمون : لقد حجب الي العفو حتى خشيت
أن لا أؤجر عليه وقيل للإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه
تعلمت هذا العلم لله ؟ فقال : اما لله فعزيز ، ولكن شيء حجب
الي ففعلته ، وقال آخر : إني لأفرح بالعطاء وألتذ به أكبر وأعظم
مما يفرح الآخذ بما يأخذه مني ، وفي هذا المعنى قيل في مدح
بعض الكرماء .

وتأخذه عند المكارم هزة
كما اهتز عند البارج الغضن الرطب
وقال شاعر الحماسة :

تراه إذا ما جثته متهللاً

كأنك تعطيه الذي هو سائله (١)

ثم يضرب لذلك أمثلة من أقوال عشاق العفو وعشاق العلم ،
وعشاق الحلم ، وعشاق الجود ، ويقص علينا من أقوالهم
وحكاياتهم ما يغري بعشق صفات الكمال ، ويجب مكارم
الاخلاق لكل من تصفح روضته .

وبعد أن يبلغ من نفس القارىء ما يريد ، من اغرائه بعشق
جسيل الصفات يقول : (فعشق صفات الكمال من أنفع العشق
وأعلاه ، وإنما يكون بالمناسبة التي بين الروح وتلك الصفات ،
ولهذا كان أعلى الارواح وأشرفها أعلاها وأشرفها معشوقا ، كما
قيل :

أنت القليل بكل من أحبته

فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي (٢)

وعند الكلام على امتزاج الروحين يرد عليه إشكال - وقد
سبق الكلام عليه - وهو أن كثيراً من المحبين غير محبوب بل
يسيف البغض مضروب ، فيجيب رحمه الله أولاً بجواب

(١) روضة المحبين ص ٧٩

(٢) روضة المحبين ص ٨١ .

الامام ابن حزم وهو : « ان نفس الذي لا يحب من يحبه مكتنفة الجهات ببعض الاعراض الساترة ، والحجب المحيطة بها ، من الطبائع الارضية . فلم تحس بالجزء الذي كان متصلا بها قبل حلولها حيث هي . ولو تخلصت لا ستويا في المحبة والاتصال ونفس المحب متخلصة عالمة بمكان ما كان يشركها في المجاورة . طالبة له ، قاصدة اليه باحثة عنه ، مشتتة للملاقاته ، جاذبة له لو أمكنها ، كالمغناطيس والحديد ، أو كالنار في الحجر (١) » .

ولما كان هذا الذي ذكره عن الامام ابن حزم ، من أن الأرواح كان لها قبل حلولها بالأشباح اتصال قريب من أقوال الفلاسفة الذين يزعمون : أن الأرواح خلقت على هيئة الكرة ثم قسمت . فأى روحين تلاقتا هناك وتجاورتا ، تآلفتا في هذا العالم وتحابتا . وإن تنافرتا هناك ، تنافرتا هنا ، وإن تآلفتا من وجه وتنافرتا من وجه كانتا كذلك ها هنا « (٢) » .

فالامام ابن القيم لم يرض هذا الجواب ولا ذاك ، لأن الجوابين من أصل واحد . وهذا الاصل فاسد حتماً ، لأنه من الغيب الذي استأثر الله به . فان جالت العقول بالمغيبات كان

(١) روضة المحبين ص ٨٧ .

(٢) نفس المصدر ص ٨٨ .

جولانها من باب التخرصات إلا اذا قام دليل نقلي صحيح عن
لا ينطق عن الهوى •

قال رحمه الله : فزعم الفلاسفة أن الأرواح موجودة قبل
الأجسام خطأ ، بل الصحيح الذي دل عليه العقل والشرع ، أن
الأرواح مخلوقة مع الأجساد ، ومن قال : إنها مخلوقة قبل ذلك
فقد غلط ، وأقبح منه قول من قال : انها قديمة ، أو توقف في
ذلك ثم يقول : بل الصواب في الجواب أن يقال : إن المحبة
كما تقدم قسمان : محبة عرضية غرضية ، فهذه لا يجب
الاشتراك فيها ، يقارنها مقت المحبوب وبغض للسبب كثير ،
إلا اذا كان له معه غرض مثل غرضه ، فانه يحبه لغرضه منه ،
كما يكون بين الرجل والمرأة اللذين لكل منهما غرض مع
صاحبه •

والقسم الثاني محبة روحانية ، سببها المشاركة والاتفاق
بين الروحين ، فهذه لا تكون إلا من الجانبين ولا بد ، فلو
فتش المحب المحبة الصادقة : قلب المحبوب . لوجد عنده من
محبه نظير ما كان عنده : أو دونه أو فوقه « (١) •

أقول : ولا يرد علينا اشكال في الحديث الصحيح .

(١) الروضة س ٨٨ •

الأرواح جنود مجندة فقد سبق الكلام عليه وأزيد : إن التعارف والتناكر انما هو بعد وجودهما واتصالهما بأجسامنا ، وهذا مشاهد الآن فإننا نرى من اتصال أرواح المنومين تنوياً مغناطيسياً بأرواح المنومين - الوسطاء - وتسلطهم على نفوسهم ما فكاد نلسه باليد فضلاً عن إدراكه بالعقل .

ثم يذكر ابن القيم رحمه الله اختلاف الناس في وصال المحبوب . هل يزيد المحبة أم ينقصها ، فيذكر قول القائلين بزيادتها في الوصال وقول القائلين بنقصانها ، ويسرد حجج الفريقين ويورد من حكاياتهم ما يزيل اللبس ، ويمتع النفس ، ويروح الغم . ويذهب الهم ، ويختم الفصل بقوله : « وفصل الخطاب بين الفريقين : أن الجماع الحرام يفسد الحب ، ولا بد أن تنتهي المحبة بينهما الى المعادة والتباغض والقلى كما هو مشاهد بالعيان . فكل محبة لغير الله آخرها قلى وبغض فكيف إذا قارنها ما هو أكبر الكبائر ، وهذه عداوة بين يدي العداوة الكبرى : التي قال الله فيها : (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) (١) .

ثم ذكر في الباب السادس أحكام النظر وغائلته ، وما يجني

(١) روضة المحبين ص ٩٨ .

(٢) الرخرف الآية ٦٧ .

على صاحبه ، وابتدأ الكلام بالآية الكريسة : « قل للمؤمنين
يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم . ذلك أزكى لهم . إن
الله خير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن
ويحفظن فروجهن » (١) .

ثم ذكر حكمه شرعا . وهو التحريم ضيقا . إلا في حالات
خاصة . ثم ذكر سؤالا وجه للعلماء فقال : « وقعت مسألة :
ما تقول السادة العلماء في رجل نظر الى امرأة فعلق حبها بقلبه
واشتد عليه الامر . فقالت له نفسه هذا كله من أول نظرة . فلو
أعدت النظر اليها لرأيتها دون ما في نفسك . فسلوت عنها . فهل
يجوز تعدد النظر ثانيا لهذا المعنى ؟ » (٢) .

فكان جوابه تغصده الله برحسته : « الحسد لله . لا يجوز
ذلك لعشرة أوجه » (٢) ثم عددها وبين أضرارها وأعقب ذلك
بذكر عشر فوائد يجنيها غضيض الطرف . كتخليص القلب من
آلم الحسرة . فإن من أطلق نظره دامت حسرته . واستشهد
على ذلك بنوادر أدبية . ومقطوعات شعرية . منها ما رواد
الإصمعي قال : « رأيت جارية في الطواف كأنها مهابة . فجعلت
أنظر اليها وأملا عيني من محاسنها فقالت لي : هذا ما شألك

(١) النور : ٣٠ - ٣١ .

(٢) الروضة ص ١٠٣ .

فقلت : وما عليك من النظر ؟ فأنشأت تقول :

و كنت متى أرسلت طرفك رائدا
لقلبك يوماً أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر
عليه ولا عن بعضه أنت صابر

قال : ودخل أصبهان مغن كان يتغنى بهذين البيتين :

ساعاً يا عباد الله مني
وكفوا عن ملاحظة الملاح
فان الحب آخره المنايا
وأوليه شيه بالمزاح
ومن هذه المختارات قول الشاعر :

وشادن لما بدا	اسلني الى الردى
بظرفه ولطفه	وطرفه لما بدا
أردت أن أصيده	فصاد قلبي وعدا
وقال آخر :	

أنا ما بين عدوي	من هـا قلبي وطرفي
ينظر الطرف ويهوى الـ	سـقاب والمقصود حتفي

وقال آخر :

رمت عينها عيني وراحت سليمة
فسن حاكم بين الكحيله والعبرى

فياطرف قد حذرتك النظرة التي
خلست فما راقبت نهيا ولا أمرا
ويا قلب قد أرداك طرفي مرة
فويحك لم طاوعته مرة أخرى
وقال آخر :

ما من يرى سقبي يزيـ
د وعلتي أعيت طيبي
لا تعجبن فهكذا
تجني العيون على القلوب (١)

ثم نحن نلخص هذه الفوائد لعظم نفعها لمن أراد أن
ينتفع قال :

الفائدة الثانية : أنه (٢) يورث القلب نوراً وإشراقاً يظهر
في العين والوجه والجوارح •
الفائدة الثالثة : يورث صحة الفراسة •

الفائدة الرابعة : أنه يفتح له طريق العلم ويسهل عليه
أسبابه وذلك بسبب نور القلب •

الفائدة الخامسة : يورث القلب قوود وشجاعة وثباتاً •

الفائدة السادسة : يورث القلب سروراً وانشراحاً • أعظم

(١) الروضة / ١١٠ •

(٢) البصير في « انه » يعود على غرض البصر •

من اللذة والسرور الحاصل بالنظر .

الفائدة السابعة : يخلص القلب من أسر الشهوة .

الفائدة الثامنة : يسد عليه باباً من أبواب جهنم ، فإن

النظر باب من الشهوة الحاملة على مواجهة الفعل .

الفائدة التاسعة : يقوي العقل ويزيده ويثبته .

الفائدة العاشرة : يخلص القلب من سكر الشهوة ، ورقدة

الغفلة ، فإن إطلاق البصر ، يوجب استحكام الغفلة عن الله

والدار الآخرة . ويوقع في سكرة العشق ، كما قال تعالى عن

عشاق الصور « لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون » ^(١) فالنظرة

كأس من خمر . والعشق سكر ذلك الشراب ، وسكر العشق

أعظم من سكر الخمر ، فإن سكران الخمر يفيق ، وسكران

العشق قلما يفيق . وهو في عسكر الاموات ، كما قيل :

سكران سكر هوى وسكر مدامة

ومتى إفاقة من به سكران

ثم ذكر مناظرة بين القلب والعين ، ولوم كل صاحبه ،

والحكم بينهما ، فبعد أن يقدم لائحة المرافعة التي سوغت انعقاد

الحكمة بين القلب والعين ، وجعل الكبد فيها حاكماً ، يتقدم

القلب فيقول للعين :

(١) سورة الحجر : الآية : ٧٢ .

« أنت التي سقتني الى موارد الهلكات . وأوقعتني في
الحشرات ، بتتابعك اللحظات ، ونزهت طرفك في تلك
الرياض ، وطلبت الشفاء من الحديق المراض . وخالفت قول
أحكم الحاكمين : « قل لـمؤمنين » وقول رسول الله صلى
الله عليه وسلم : « النظر سهم من سهام إبليس . فمن تركه من
خوف الله عز وجل . أثابه الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه » الى
أن يقول : أوما سعت قول العقلاء : من سرح ناظره . أتعب
خاظره . ومن كثرت لحظاته . دامت حسراته . وضاعت عليه
أوقاته . وفاخت عبراته . وقول الشاعر :

نظر العيون الى العيون هو الذي
جعل الهلاك الى الفؤاد سيلاً
ما زالت اللحظات تغزو قلبه
حتى تشحط بينهن قتيلاً

وقول الآخر :

تستعسا يا مقلتي بنظرة
وأوردتسا قلبي أمر الموارد
أعيني كفا عن فؤادي فإنه
من الظلم سعي اثنين في قتل واحد
ثم تتقدم العين بـرافعتها فتقول :

ظلمتني أولاً وآخراً . وبؤت بإشي باطناً وظاهراً ، وما أنا
إلا رسولك الداعي اليك . ورائدك الدال عليك .

واذا بعثت برائد نحو الذي
تهوى وتعتبه ظلمت الرائد

فأنت الملك المضاع . ونحن الجنود والاتباع . أركبتي في
حاجتك خيل البريد . ثم أقبلت علي بالتهديد . فلو أمرتني أن
أغلق علي بابي . وأرخي علي حجابي . لسمعت وأطعت ، ولما
رعيت في الحسى ورتعت . . . الى أن يقول : وبين ذنبي وذنبك
عند الناس . كما بين عساي وعسائك في القياس . وقد قال من
بيده أزمة الامور : « فانها لا تعسى الابصار ولكن تعسى
القارب التي في الصدور » (١) .

فتنبري انكبد للكلام . عندما تسمع حجة الخصمين ،
ومرافعة الطرفين ولكنها قبل الفصل في الحكم تخاطبهما بصوت
خفي . لعلها أن عليها كفلا من الالم الناتج عن تسريح الطرف ،
ومتعة القاب فتقول : « أتتسا على هلاكي تساعدتما ، وعلى
قتلي تعاوتتما . ولقد انصف من حكى مناظرتكما . وعلى
لساني متظلسا منكما :

(١) الحج : الآية ٤٦ .

يقول طرفي لقلبي هجت لي سقما
والعين تزعم أن القلب أنكاهما
والجسم يشهد أن العين كاذبة
وهي التي هجت للقلب بلواها
لولا العيون وما يجنين من سقم
ما كنت مطرحاً من بعض قتلاها
فقات الكبد المظلومة اتدا
قطعتاني وما راقبتسا الله

وقول الآخر :

يقول قلبي لطرفي أن بكى جزعاً
تبكي وأنت الذي حملتي الوجع
فقال طرفي له فيما يعاتبه
بل أنت حملتي الآلام والطعنا
حتى إذا ما خلا كل بصاحبه
كلاهما بطويل السقم قد قنعا
نادتسا كبدي لا تبعدا فلقد
قطعتاني بما لا قيتما قطعنا

وقول الآخر :

عابت قلبي لما رأيت جسي نجيلا
فألزم القلب طرفي وقال كنت الرسولا

فقال طرقي لقلبي بل كنت أنت الدليلا
فقلت كفا جيعاً تركتاني قتيلاً (١)

ثم بعد جلسة المذاكرة مع النائب العام . وهيئة المحكمة ،
حكمت باسم دولة الحب العليا على الطرفين ، وألزمت نصيبا
من التبعة كلا الخصمين . بسوجب المادة قبل الواحد من قانون
الغرام التي تنص على : « أن القلب والعين في البلية شريكان .
كما أنهما في اللذة فرسا رهان . فالعين تلتذ . والقلب يتسنى
ويشتهي . كما نظمها صاحب ديوان الهوى والحرقة والجوى :

ولما سلوت الحب بشر ناظري
لقلبي فقبال القلب لي ولك الهنا
تخلصت من إحياء ليلك ساهراً
وخلصتني من لوعة الهجر والضنا
كلانا منها بالبقاء فإن تعد
فلا أنت يبقيك الغرام ولا أنا

حكمت حكماً وجاهياً قابلاً للتمييز ثم قالت : « والحاكم
بينكما الذي يحكم بين الروح والجسد ، اذا اختصما بين يديه
فانه في الأثر المشهور ، لا تزال الخصومة يوم القيامة بين الخلائق

(١) المصدر السابق .

حتى يختصم الروح والجسد . فيقول الجسد للروح أنت الذي حركتني وأمرتني وصرفتني وإلا فأنا لم أكن أتحرك ولا أفعل بدونك . فتقول الروح له : وأنت الذي أكلت وشربت . وبارشت وتنعت فأنت الذي تستحق العقوبة . فيرسل الله سبحانه اليها ملكاً يحكم بينهما فيقول : مثلكما مثل المقعد بصير . وأعشى يشي دخلاً بستانا فقال المقعد للاعشى أنا أرى ما فيه من الثمار . ولكن لا أستطيع القيام ، وقال الاعشى أنا أستطيع القيام ولكن لا أبصر شيئاً . فقال له المقعد تعال فاحلني فأنت تشي . وأنا أتناول فعلى من تكون العقوبة . فيقول : عليها قال : فكذلك أتسا (١) .

ثم ذكر الشبه التي احتج بها من أباح النظر الى من لا يحل له الاستمتاع به فقال : « قالت هذه الطائفة بيننا وبينكم الكتاب والسنة وأقوال أئمة الاسلام . والمعقول الصحيح .

أما الكتاب فقولہ تعالی : « أولم ينظروا في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء » (٢) وهذا يعم جميع ما خلق فسا الذي أخرج من عسومه الوجه المليح ؟ وهو من أحسن ما خلق (٣) . وأما السنة فالحديث المشهور : « النظر

(١) الروضة ص ١٢٢ .

(٢) سورة الاعراف الآية ١٨٥ .

(٣) الروضة ص ١٢٢ .

الى الوجه المليح عبادة» وفي الحديث الآخر : « اطلبوا الخير من
حسان الوجوه » وأما أقوال الأئمة . فذكر الاسترأبادي في
مناقب الشافعي . أن رجلا سأل سعيد بن المسبب :

يا سيد التابعين والبرر
نسيت في العشق سورة البقره
فكن بفتواك مشفقا رفقا
باهي بك الله أكرم البرر
هل حرم الله لثم خد فتى
أوصافه بالجمال مشتهره

فأجابه سعيد :

يا سائلني عن خفي لوعته
عليك بالصبر تحدن أثره
ولا تكن طالبا لفاحشة
أو كالذي ساق سياله مطره
وراقب الله واخش سطوته
وخالف الفاسقين والفجره
وقبل الخد من حبيبك ذا
في كل يوم و ليلة عشره
وذكر الحاكم في مناقب الشافعي أيضا عن الربيع قال :
حضرت الشافعي بسكة وقد دفع اليه رجل رقعة مكتوب فيها :

أقول لمفتي خيف مكة والصف
لك الخير هل في وصلهن حرام
وهل في صوت الحجل مهزومة الحشا
عذاب الثنايا إن لثمت أثام

قال فوقع الشافعي فيها :

فقال لي المفتي وفاضت دموعه
على الخد من عينيه ، فهي تَوَام
ألا ليتني قبلت تلك عشية
بيطن منى والمحرموز نيام

وكتب الى الامام أحمد بن حنبل :
سألت إمام الناس نجل ابن حنبل
عن الضم والتقيل هل فيه من بأس
فقال : اذا جل العزاء فواجب
لأنك قد أحبيت عبداً من الناس

وكتب الى أبي حنيفة :
كتبت الى النعمان يوماً رسالة
نسأله عن لثم حب ممنوع
فقال لنا : لا إثم فيه وإنه
شهيد إذا كانت لعشر وأربع

ثم ذكر بقية حجج هذا الطائفة من مثل ما تقدم من سؤال أئمة الاسلام كأبي جعفر الطحاوي ، وأئمة المعتزلة ، كعمرو بن عبيد ، وواصل بن عطاء ، وانهم مجمعون على الاستتاع بالنظر والتقييل ، مرجحين المصلحة وذكر لهذه الطائفة عن شيخه ابن تيمية فقال - يحكي قولهم - : ونحن نحاكمكم الى واحد يعد بالآلاف مؤلفة . وهو شيخ الاسلام ابن تيمية فانه سئل عن جواز ذلك فأجاب بخطه بجواب طويل ، ثم ان ابن القيم ذكر السؤال والجواب .

وعقد الباب التاسع لدحض شبه هذه الطائفة فقال ما ملخصة : « وشبههم التي ذكروها دائرة بين ثلاثة أقسام : أحدها : نقول صحيحة لا حجة لهم فيها . والثاني نقول كاذبة عن نسبت اليه من وضع الفساق والفجار ، والثالث نقول مجسلة محتسلة لخلاف ما ذهبوا اليه » (١) .

فأما احتجاجهم بقوله تعالى : « أولم ينظروا في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء » (٢) فلا حجة لهم فيه . فالنظر الذي أمرنا به سبحانه وتعالى هو النظر المؤدي الى معرفته والايان به وحجيته ، لا النظر الذي يوجب تعلق الناظر بالصورة التي يحرم الاستتاع بها نظرا ومباشرة وانما تسترت

(١) الروضة ص ١٣٢ و ١٣٤ .

(٢) الاعراف الآية ١٨٥ .

هذه الطائفة لهواها وشهواتها ، وأوهمت أنه تنظر عبدة واستدلالات . حتى آل ببعضهم الامر الى أن ظنوا أن نظرهم عبادة لانهم ينظرون الى مظاهر الجمال الالهي ، ويزعمون ان الله سبحانه وتعالى يظهر في تلك الصورة الجميلة . ويجعلون هذا طريقا الى الله ، كما وقع فيه طوائف ممن يدعون المعرفة والسالك « (١) » .

ثم رد الحديث الاول وهو : النظر الى الوجه الحسن عبادة ، وذكر جواب شيخه لمن سأل عن صحة هذا الحديث فقال :

« هذا كذب باطل . ومن روى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم أو ما يشبهه فقد كذب ، وان هذا لم يروه أحد من أهل الحديث لا باسناد صحيح ولا باسناد ضعيف . بل هو من الموضوعات ، وهو مخالف لاجماع المسلمين ثم قال : وأما الحديث الآخر « فقلبوا الخير من حسان الوجوه » فهذا وان كان قد روي باسناد . إلا أنه باطل ، لم يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولو صح لم يكن فيه حجة لهذه الطائفة . فإنه أمر بطلب الخير منهم . لا بطلب وصالهم ونيل انحرام منهم . »

(١) ملخص من ص ١٣٤ .

(٢) ملخص من ص ١٣٦ .

ثم أخذ يرد شبه هذه الطائفة واحدة واحدة فيسأرووه عن
 الأئمة العظام، كأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل والطحاوي
 وسعيد بن المسيب، وكذا ما رووه عن أئمة المعتزلة كعسرو بن عبيد
 وواصل بن عطاء، وشيوخ الواسطيين فقال ما ملخصه : « هذه
 النقول اما صحيحة واما كاذبة فان كانت كاذبة فلا حجة لهم
 فيها . وان كانت صحيحة فليس مراد الأئمة رضي الله عنهم
 الوصال المحرم الذي نهى الله عنه وأوعد عليه بأشد العقوبة .
 وما مرادهم الا الوصال المباح الذي أباحه الله . كوصال الزوجة
 والامة . والا فهذا غير المشهور المأثور عن سيدهم وشدة ورعهم .
 وما هي الا تقول الفسقة المستهترين الذين يتسترون لمآربهم
 بالتقول على أئمة الدين » .

وهل يحل لأحد أن يصدق هذا عن الأئمة العظام كأبي
 حنيفة والشافعي ومالك والليث بن سعد انهم أجازوا تقبيل خد
 المرأة الأجنبية المعشوقة أو خد الامرد الجليل الصورة وهذه
 قصة الامام مالك مع الذي ضم صبييا اليه فأفتى بضربه ستسائة
 سوط فسات : فقال له أبو الفتى : قتلت ابني . وقال : بل قتله
 الله . فسن هذا تشديده وفتواه . هل يفتي بجواز تقبيل خدود
 المرد الحسنان « (١) .

(١) الروضة ص ١٤٠ - ١٤٤ .

ثم قال وأما من حاكمونا اليه وهو شيخ الاسلام ابن تيمية
فنحن راضون بحكمه ، فأين اباح لكم النظر المحرم ، وعشق
المردان والنساء الاجانب ، وهل هذا الا كذب ظاهر عليه ، وهذه
فتاواه كلها ناطقة بخلاف ما حكيتوه عنه . وأما الفتيا التي
حكيتوها فكذب عليه لا تناسب كلامه بوجه وكان بعض
الامراء قد أوقفني عليها قديما . وهي بخط رجل متهم
بالكذب ولولا الاطالة لذكرنا من فتاويه ما يبين أن هذا
كذب (١) .

ثم ذكر حقيقة العشق ، وأوصافه ، وكلام الناس فيه ،
وأنه مرض وسواسي شبيه بالماليخوليا ، يجلبه المرء الى نفسه
بتسليط فكره على استحسان بعض الصور والشئائل ، وذكر
أقوال الفلاسفة اليونانيين كآرسطو وأفلاطون ، وأقوال حكماء
العرب وشعرائهم وأدبائهم واعرابهم وعقلاء مجانينهم ، وروى
لنا سؤال المأمون ليحيى بن أكثم عن العشق واعتراض ثمامة بن
أشرس على تعريف يحيى للعشق فقال : قال المأمون ليحيى بن
أكثم ما العشق ؟ فقال : سوانح تسنح للسر فيهم بها قلبه ،
وتؤثرها نفسه ، فقال له ثمامة : اسكت يا يحيى انما عليك أز
تجيب في مسألة الطلاق ، أو محرم صاد ظنيا ، فأما هذه فسن

مسائلنا نحن . فقال له المأمون : قل يا ثمامة ، قال : العشق جليس مستع . وأليف مؤنس ، وصاحب ملك ، مسالكة لطيفة ، ومذاهبه غامضة ، وأحكامه جارية ، ملك الابدان وأرواحها ، والقلوب وخواطرها ، والعقول وآراءها ، قد أعطى عنانه طاعتها وقوة تصرفها . تواري عن الابصار مدخله ، وعمي في القلوب مسلكه . فقال له المأمون : احسنت يا ثمامة وأمر له بألف دينار »

ثم تساءل : هل العشق اضطراري خارج عن الاختيار أم هو أمر اختياري . وذكر اختلاف الناس في ذلك فذكر أولا أقوال الطائفة القائلة بأنه اضطراري . وأورد ادلتها ، فمن أدلة هذه الطائفة قصة بريرة ومغيث قال : « ويدل على ذلك ما رواه البخاري في صحيحه من قصة بريرة وآن زوجها كان يشي خلفها بعد فراقها له ، وقد صارت أجنبية عنه ، ودموعه تسيل على خديه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا عباس الا تعجب من حب مغيث بريرة وبغض بريرة مغيثا ؟ ثم قال : لو راجعته ، فقلت : أأأمرني ؟ فقال : انما أنا شافع ، قالت : لا حاجة لي فيه ، ولم ينهه عن عشقها في هذه الحال ، اذ ذلك شيء لا يملك ولا يدخل تحت الاختيار ، » وقال : رأي أبو السائب المخزومي ، وكان من العلم والدين بمكان ، متعلقا بأستار الكعبة وهو يقول : اللهم ارحم العاشقين وقو قلوبهم ، واعطف عليهم قلوب

المعشوقين . فقليل له في ذلك . فقال : والله للدعاء لهم أفضل من
عسرة من الجعранаة ثم أنشد :

يا هجر كف عن الهوى ودع الهوى
للعاشقين يطيب يا هجر
ماذ تريد من الذين جفونهم
قرحى وحشو قلوبهم جسر
متبلدين من الهوى ألوانهم
- ما تجن قلوبهم - صفر
وسوابق العبرات فوق خدودهم
درر تفيض كأنها قطر

ثم ذكر أقوال الطائفة القائلة بأنه اختياري وأورد أدلتها
وعقبها بقوله : « وفصل النزاع بين الفريقين . ان مبادئ العشق
وأسبابه اختيارية . داخلية تحت التكليف ، فان النظر والتفكر
والتعرض للسحبة أمر اختياري ، فاذا أتى بالاسباب كان ترتب
المسبب عليها بغير اختياره كما قيل :

تولع بالحب حتى عشق
فلما استقل به لم يطق
رأى لجة ضنها موجة
فلما تمكن منها غرق

تسمى الاقالة من ذنبه

فلم يستطعها . ولما يطبق

وهذا بمنزلة السكر مع شرب الخمر ، فان تناول المسكر اختياري وما تولد عنه من السكر اضطراري ، فمتى كان السبب واقعا باختياره ، لم يكن معذورا فيما تولد عنه بغير اختياره (١) .

ثم ذكر اللذة وأنها تابعة للمحبة في الكمال والنقصان ، وذكر انواعها ، وأن منها ما يعقب ألما شديدا كلذة العشاق بتعاطيهم المحرمات ، ولذة الطغاة بعلوهم وفسادهم في الارض . بل نفى أن تكون هذه لذائد قال : « وأي لذة لآكل طعام شهى مسوم يقطع أمعاءه عن قريب ؟ وهذه لذات الكفار والفساق بعلوهم في الارض وفسادهم وفرحهم بغير الحق ومرحهم » (٢) .

ثم قسم اللذة ثلاثة اقسام فقال : « اذا عرف هذا فاقسام اللذة ثلاثة : لذة جشائية ، ولذة خيالية وهسية ، ولذة عفية روحانية . فاللذة الجشائية لذة الاكل والشرب والجوع . وهذه يشترك فيها مع الانسان الحيوان البهيم . أما اللذة الوهمية الخيالية فلذة الرئاسة والتعاطف على الخلق والفخر والاستطالة عليهم ، وهذه أرقى من اللذة الجشائية ، الا انها لا تخلو من

(١) الروضة ١٥٧ - ١٥٩ .

(٢) الروضة ١٦٣ - ١٧٥ - ١٨١ .

المفاسد والمضار التي تربو على التذاذ النفس بها ، ورجح أن
 أرقى اللذات العقلية الروحانية كلذة العلم والمعرفة والاتصاف
 بصفات الكمال من الكرم والجود والعفة والشجاعة والصبر
 والحلم والمروءة وتبلغ هذه اللذة أعلى الدرجات ، اذا انضم اليها
 لذة المعرفة بالله ومحبه وعبادته ، فاللذة الفعلية لذة العلم
 والمعرفة ولذة الروح معرفة الله وعبادته ، كما قال بعض من
 جعت له اللذتان : والله انه ليس بالقلب أوقات ، أقول فيها : ان
 كان أهل الجنة في مثل هذه الحال انهم لفي عيش ضيب ، واستشهد
 عنى ذلك بقول ابي تمام :

نشكى المحبون العصابة ليتني

تحلت ما يلقون من بينهم وحدي

فكانت لقلبي لذة الحب كلها

فلم يلقها قلبي محب ولا بعدي

ثم استطرد فذكر أقوال من مدح العشق فقال : « قالوا :
 وقد حب الله سبحانه الى رساله وانبيائه نساءهم وسرايرهم ،
 فكان آدم أبو البشر شديد المحبة لحواء ، ووجه لها هو الذي
 حمله على موافقتها في الاكل من الشجرة ، قالوا : وأول حب كان
 في هذا العالم حب آدم لحواء وصار ذلك سنة في ولده في المحبة
 بين الزوجين وكان مسروق اذا حدث عن عائشة رضي الله

عنها يقول : حدثني الصديقة بنت الصديق حبيبة رسول رب
العالمين المبرأة من فوق سبع سموات (١) .

وذكر من أقوالهم . أن العشق معراج الكمال وسلم
النبوغ فقال : « قالوا : فالعالم يبلغ في العلم بحسب عشقه له
وكذلك صاحب كل صناعة وحرفة » وهو ما نطلق عليه اليوم
[هواية] .

ويكفي أن العاشق يرتاح لكريم الاخلاق والافعال والشيء
لتجد شمالكه عند معشوقه . كما قيل :

ويرتاح للسعروف في طلب العلى
لتجد يوما عند ليلي شمائله
ثم ذكر اقوال من ذم العشق وتبرم به وأحوال العاشقين
وما يلحقون منه وأنه اصل الجنون : ان لم يكن فرعا منه فقال :
« وكيف يسدح أمر يمنع القرار ، ويسلب المنام . ويوله العقل
ويحدث الجنون ، بل هو نفسه جنون كما قال بعض العاشقين :

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم
العشق اعظم مما بالمجانين
العشق لا يستفيق الدهر صاحبه
وانما يصرع المجنون في الحين

(١) الروضة ١٨٧ .

ولما كان مبناه على الذل والخضوع ، كان حتما أن نسع
الرشيد اعز الخلفاء العباسيين يقول :

ملك الثلاث الأنسات عنائي
وحللن من قلبي بكل مكان
مالي تطاوعني البرية كلها
واضيعلن وهن في عياني
ما ذاك الا ان سلطان الهوى
وبه قوين أعز من سلطاني

ويقول عندما عشق جارية من جواريه ، واخبرته ان اباه
قد مسها فشغف بها وقال فيها :

ارى ماء وبسي عطش شديد
ولكن لا سيل الى الورود
أما يكفيك انك تسلكيني
وان الناس عندي كالعييد
وأنتك لو قفعت يدي ورجلي
لقلت من الرضى احسنت زيدي

وقال ابن الأحمر ملك الاندلس :

أيا ربة الحدر التي أذهبت نسكي
على كل حال انت لا بد لي منك

فأما بذل وهو أليق بالهوى
وأما بعز وهو أليق بالملك

وقالوا : وكم ممن هرب من الحب الى مظان التلف .
ليتخلص من التلف بالتلف . قال دعبل الشاعر : كنت بالتغر
فنودي بالنفير فخرجت مع الناس ، فإذا بفتى يجر رمحہ بين
يدي ، فالتفت فنظر الي فقال : انت دعبل ؟ قلت نعم . قال اسع
مني . ثم أنشد فقال :

إننا في امرئٍ رشاد
بين عز وجهاد
بدني يغزو عدوي
والهوى يغزو فؤادي

قالوا : وكم أكبت فتنة العشق رؤوسا على مناخرها في
الجحيم ، وجرعتهم بين أطباق النار كؤوس الحميم ، وكم
أخرجت من شاء الله من العلم والدين كخروج الشعرة من
العجين ، وكم أزلت من نعمة ، وأحلت من نقمة ، وكم أنزلت من
معتل عزه عزيزا ، فإذا هو من الاذلين . ووضعت من شريف
رفيع القدر والمنصب . فإذا هو في أسفل سافلين . وكم كشفت
من عورة ، وحدثت من روعة ، وأعقبت من ألم ، وأحلت من ندم . . .
الى أن قال : فلو سألت النعم ما الذي أزالك ، والنقم ما الذي

أدالك ، والهموم والاحزان ما الذي جلبك ، والعافية ما الذي أبعدك وجنبك ، والستر ما الذي كشفك . والوجه ما الذي أذهب نورك وكشفك ، والحياة ما الذي كدرك ، وشمس الايمان ما الذي كورك . وعزة النفس ما الذي اذلك . وبالهوان بعد الاكرام بذلك ؟ لاجابتك بلسان الحال اعتبارا ، وان لم تجب بالمقال حوارا . هذه والله بعض جنایات العشق ، على أصحابه لو كانوا يعقلون . (فلك بيوتهم خاوية بما ظلّسوا ان في ذلك لآية لقوم يعقلون) .

وقد اطال الشيخ رحمه الله في ذم العشق اكثر مما ذكر في مدحه ، وقال : ان اكثر هلاك الافراد والامم كان من عشقهم لبعض الصفات الذميمة والعادات السيئة . كقوم شعيب الذين حصلهم عشق المال على بخس المكيال ، وقوم فرعون الذين حصلهم الهوى وعشق الرئاسة على تكذيب موسى : وكالذي آتاه الله آياته فانسلخ منها — لما تبع هواه — فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين » وأيد قوله بحكايات غاية في الروعة .

ثم حكم بين الطائفتين ، وبين ان العشق لا يحد مطلقا ، ولا يذم مطلقا . وانما يحد ويذم باعتبار متعلقه ، فمتى كان المحبوب مما يجب لصفات سامية غاية شريفة ، لم تذم المبالغة في محبته .

(١) النمل آية ٢ ملخص من الروضة ص ٢٠٥ .

والمبالغة فيها مبالغة في الخير ، وذكر ان اعلا المحبة وأشرفها ،
 محبة الله ورسوله وتتيجتها على كل حال محسودة ، وليس لقلب
 المحب صلاح ولا نعيم الا بأن يكون الله ورسوله أحب اليه مما
 سواههما . وأن تكون محبته لغير الله تابعة لمحبة الله . فلا يجب
 الا لله كما في الحديث الصحيح : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة
 الايمان : من كان الله ورسوله أحب اليه مما سواههما ، ومن
 كان يحب المرء لا يحبه الا لله . ومن كان يكره ان يرجع في الكفر
 بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار » (١) .

ثم قال : « والعشق اذا تعلق بما يحبه الله ورسوله كان
 عشقاً مدوحاً مثاباً عليه . وذلك أنواع ، أحدها : محبة القرآن بحيث
 يغنى بساعه عن غيره . ويهيم قلبه في معانيه . ومراد المتكلم
 سبحانه منه . وعلى قدر محبة الله تكون محبة كلامه ، فمن أحب
 محبوباً . أحب حديثه والحديث عنه كما قيل :

ان كنت تزعم حبي	فلم هجرت كتابي
أما تأملت ما في	ه من لذيذ خطابي

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي .

استحباب تخير الصور الجميلة للوصال اندي يحبه الله ورسوله :

استدل على ذلك بما روي عن عائشة رضي الله عنها في سبب زواج النبي صلى الله عليه وسلم بجويرية بنت الحارث بن أبي ضرار قالت : « لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا بني المصطلق. وقعت جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار في السهم لثابت بن قيس بن شماس ، أو لابن عم له . فكاتبته على نفسها وكانت امرأة جميلة حلوة ، لا يراها أحد الا أخذت بنفسه ، فأنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تستعينه على كتابتها ، قالت : فوالله ما هو الا أن رأيته على باب الحجرة فكرهتها ، وعلمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى منها ما رأيت فقالت : يا رسول الله انا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه . وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك . فوقع في السهم لثابت بن قيس بن شماس أو لابن عم له . فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم استعينه قال : فهل لك في غير ذلك قالت : وما هو ؟ قال أقضي كتابتك وأتزوجك . قالت : نعم يا

رسول الله . قد فعلت ، وخرج الخبر الى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج جويرية بنت الحارث ، فقال الناس : أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسلوا ما بأيديهم . قالت : فلقد أعتق بتزوجه اياها مائة أهل بيت من بني المصطلق ، فما أعلم امرأة كانت اعظم بركة على قومها منها .

ثم ذكر خبر خالد بن يزيد بن معاوية . وزواجه برملة بنت الزبير ، وخبر عبد الملك بن مروان مع زوجة يزيد بن سنان . وخبر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع القائلة : تناول هذا الليل واخضل جانبه . وخبر عاشق آثر الموت على فراق من يحبه فقال : ذكر الخرائطي أن بشر بن مروان كان اذا ضرب البعث على أحد من جنده ثم وجدته قد أخل بركزه ، أقامه على كرسي ثم سرّ يديه في الحائط ثم انتزع الكرسي من تحت رجله ، فلا يزال يتشطح حتى يسوت . وأنه ضرب البعث على رجل عاشق حديث عهد بعرس ابنة عمه فلما صار في مركزه كتب الى ابنة عمه كتابا ثم كتب في أسفله :

لولا مخافة بشر أو عقوبته

وأن يرى بعد ذا في الكف مسار

إذا لعظمت ثغري ثم زرتكم

ان المحب اذا ما اشتاق زوار

فلما ورد عليها الكتاب أجابته عنه : ثم كتبت في أسفله :
ليس المحب الذي يخشى العقاب ولو
كانت عقوبته في فجوة النار
بل المحب الذي لا شيء يفزعه
أو يستقر ومن يهواه في الدار

فلما قرأ الكتاب قال : لا خير في الحياة بعد هذا ، وأقبل
حتى دخل المدينة فأتى بشر بن مروان في وقت غذائه
فلما فرغ من غذائه أدخل عليه ، قال : ما الذي دعاك الى تعطيل
ثغرك ؟ أما سمعت النداء ؟ قال : اسمع عذري فاما عفوت
وإما عاقبت ، فقال : ويلك و هل لك من عذر فقص عليه
قصته وقصة ابنة عمه . فقال : أولى لكما ، يا غلام خط له على
اسمه من البعث . وأعطه عشرة آلاف درهم والحق بابنة عمك .
ونقل عن الامام أحمد أنه قال : « كان النبي صلى الله
عليه وسلم يصبح وما عندهم شيء ، ومات عن تسع ، وكان
يختار النكاح ، ويحث عليه ونهى عن التبتل فمن رغب عن
سنة النبي صلى الله عليه وسلم فهو على غير الحق » .

أقول : إن مسألة الزواج وإعراض الشباب عنه لمن أهم
مشكلات هذا العصر الاجتماعية لما يلقي الراغب فيه من فداحة
النفقات وغلاء المهور ، وضمن الآباء بالبنات . الا لمن يؤدي

جميع المطالب مما تعارف عليه أهل الاجيال السابقة . وهذا
لعمرى من أكبر الدوافع لانتشار الفساد والفجور ، فعسى ان
يتنبه الآباء للخطر الداهم نحو بناتهم وأبنائهم ، فانه من البدهي
أن أحد نوعي الانسان لم يخلق الا للآخر ، فان لم يكن عن
طريق النكاح فليس ثمة الا السفاح .

ثم ذكر فضيلة الجمال وميل النفوس اليه فقال : « ان
الجمال قسمان : ظاهر وباطن ، فالظاهر زينة خص الله بها
بعض عباده [من جمال الصورة وحسن الصوت . وخفة
الروح] والجمال الباطن هو جمال العلم والعقل والجود
والشجاعة والعفة ، وغاية الجمال أن يجتمع للمرء بينهما
[أي جمال الظاهر والباطن] فقال : « وكما أن الجمال الباطن
من أعظم نعم الله تعالى على عبده فالجمال الظاهر نعمة
منه أيضا على عبده يوجب شكره ، فإن شكره بتقواه وصيائته
ازداد جلالاً على جماله ، وان استعمل جماله في معاصيه
سبحانه قلبه له شيئا ظاهرا وقال منشدا :

يا حسن الوجه توق الخنا
لا تبدلن الزين بالشين
ويا قبيح الوجه كن محسنا
لا تجمعين بين قبيحين

وروي عن ابن عباس يرفعه : « من آتاه الله وجهها حسنا
واسما حسنا وخلقا حسنا . وجعله في موضع غير شائن له فهو
من صفوة الله من خلقه »

ولما كان الجبال مطلوبا لذاته مرغوبا فيه أيد قوله بجسلة
أخبار وحكايات عن اتصف بالجبال نختار منها بعضها قال :
« وقال عبد الملك بن قريش الاصمعي كنت في بعض
مياها العرب فسعت الناس يقولون : قد جاءت ، قد جاءت ،
فقت معهم . فإذا جارية قد وردت الماء ما رأيت مثلها قط ،
في حسن وجهها وتسام خلقها فلما رأت تشوف الناس إليها
أرسلت برقعها فكأنه غمامة غطت شسا فقلت لم تمنعين النظر
إلى وجهك هذا الحسن فأنشأت تقول :

وكنتم متى أرسلت طرفك رائدا
لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر
عليه ولا عن بعضه أنت صابر
ونظر إليها أعرابي فقال : أنا والله من قل صبره ثم
قال :

أوحشية العينين أين لك الأهل
أبا الحزن حلوا أم محلهم السهل

وأية أرض أخرجتك فإني
أراك من الفردوس إن فتش الأصل
قمتي خبرينا ما طعمت وما الذي
شربت ومن أين استقل بك الرحل
لأن علامات الجناز مينة
عليك وأن الشكل يشبه الشكل
تناهيت حسنا في النساء فإن يكن
لبدر الدجى نسل فانت له النسل

وروي عن بعض أصحاب العباس بن الفضل قال :
حججت سنة من السنين فاني لبالرذة اذ وقعت علينا جارية على
وجهها برقع فقالت يامعشر الحجيح . نفر من هذيل . ذهب
بنعمهم السيل ، وقعدت بهم الايام . ما بهم نجعة . فمن يراقب فيهم
الدار الآخرة . ويعرف لهم حق الأخوة . جزاه الله خيرا .
قال : فرضنا لها ، فقلت لها : هل قلت في ذلك شيئا ؟
فأنشأت تقول :

كف الزمان توسدتنا عنوة
شلت اناملها عن الاعراب
قوم اذا حل العفاة ببابهم
القوا نوافلهم بغير حساب

فقلنا لها : لو أمتعتينا بالنظر الى وجهك ، فكشف البرقع
عن وجهه لا والله لا تهدي العقول لوصفه : فلما رأتنا
بهتنا لحسنا : أنشأت تقول :

الدهر أبدى صفحة قد صانها
أبوأي قبل تمرس الايام
فتستعوا بعيونكم في حسنها
وانهوا جوارحكم عن الآثام

ثم ذكر الحسن والجمال وأقوال الناس فيه . وأن اقوالهم
اختلفت فيه لاختلاف أذواقهم . ثم وصف الحسن وصفا
مفصلا قال : [وما يستحسن في المرأة طول أربعة ، وهن :
أطرافها وقامتها وشعرها وعنقها ، وقصر أربعة : يدها ورجلها
ولسانها وعينها ^(١) فلا تبدل ما في بيت زوجها . ولا تخرج من
بيتها ، ولا تستطيل بلسانها ، ولا تطع بعينها . وبياض أربعة :
لونها وفرقها وثغرها وبياض عينها . وسواد أربعة : أهدابها
وحاجبها وعينها وشعرها . وحسرة أربعة : لسانها وخدها
وشفتها مع لعلها وشاربها وبياضها بحسرة . ورقة أربعة : أنفها
وبنانها وخصرها وحاجبها .

(١) أراد بها المعاني لا الاعيان . فلهذا أعقبها بتفسير وبيان ..

فهذه أحق النساء بقول كثير :
لو أن عزة خاغت شمس الضحى
في الحسن عند موفق لقضى لها

وقول الآخر :
لو أبصر الوجه منها وهو منهزم
ليلا وأعداؤد من خلفه وقف

وأنشد لثعلب :
خزاعية الأطراف مريّة الحشا
فزارية العين ضائبة القم
ومكية في الطيب والعطر دائما
تبدت لنا بين الحطيم وزمزم

ثم قال : ولي من أبيات :
يا صورة البدر ، لا والذي
صور ، ليس البدر يحكيك
مني على العين ولا تبخلي
بنظرة فالعين تمديك
وان تخرجت لهذا فكم
قد سبح الرحمن رائيك

هذا بهذا فارتجي أجر من
ان غبت عنه ظل يكيك

ومما يستحسن في المرأة رقة أديمها ونعومة ملمسه كما
قال قيس بن ذريح :

تعلق روحي روحها قبل خلقنا
ومن بعد ما كنا نطافا وفي المهد
فزاد كما زدنا فأصبح نائماً
فليس وإن متنا بمنفصم العهد
ولكنه باق على كل حادث
ومؤنسنا في ظلمة القبر واللحد
يكاد مسيل الماء يخدش جلدها
إذ اغتسلت بالماء من رقة الجلد

وقال : ولي من أبيات :

يدمي الحرير أديمها من مسه
فأديمها منه أرق وأنعم

ولم يدع القاريء يجيل خياله بمحاسن نساء الدنيا
وفتتهن بل استطرد بلطف بالقاريء الى ذكر نساء الآخرة
الطاهرات المطهرات العرب الاتراب القاصرات الطرف
المقصورات في الخيام وذكر حديث أم سلمة قالت :

« قلت : يا رسول الله . أخبرني عن قول الله عز وجل :
(حور عين) ^(١) قال : حور بيض عين ضخام العيون . شعر
الحدواء بمنزلة جناح النسر قلت : أخبرني عن قوله عز وجل :
(كأمثال اللؤلؤ المكنون) ^(٢) قال : صفاؤهن صفاء الدر الذي
في الاصداف الذي لم تسه الايدي . قلت : يا رسول الله
أخبرني عن قوله : (فيهن خيرات حسان) ^(٣) قال : خيرات
الاخلاق حسان الوجوه . قلت : أخبرني عن قوله : (كأنهن
بيض مكنون) ^(٤) قال : رقتهن كرقعة الجلد الذي رأيت في داخل
البيضة مسايلي القشر وهو (العرقى) قلت يا رسول الله
أخبرني عن قوله عز وجل (عرباً أتراباً) ^(٥) قال : هن اللواتي
قبضن في دار الدنيا عجائز رمضا شسطا خلقهن الله بعد
الكبر فجعلهن الله عذارى عرباً متعشقات متحبيبات أترابا
على ميلاد واحد . قلت : يا رسول الله نساء الدنيا أفضل أم
الحور العين ؟ قال : بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين
كفضل الظهارة على البطانة قلت : يا رسول الله وبم ذلك ؟
قال : بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن الله ألبس الله
وجوههن النور وأجسادهن الحرير . بيض الالوان خضر الثياب
صفر الحلبي . مجامرهن الدر . وأمشاطهن الذهب . يقلن : نحن

(١) الواقعة الآيتان ٢٢ و ٢٣ . (٢) الرحمن / ٧٠ . (٣)
الصافات / ٤٩ . (٤) الواقعة / ٣٧ .

الخالدات فلا نموت ، نحن الناعسات فلا نبأس أبدا ، نحن
المقيسات فلا نظعن أبدا ، ألا ونحن الراضيات فلا نسخط أبدا
طوبى لمن كنا له وكان لنا . قلت : يا رسول الله المرأة منا
تتزوج الرجلين والثلاثة والأربعة ، ثم تموت فتدخل الجنة
ويدخلون معها ، فمن يكون زوجها ؟ قال : يا أم سلمة
إنها تخير فتختار أحسنهم خلقاً فتقول : أي رب إن هذا كان
أحسنهم معي خلقاً في دار الدنيا فزوجنيه ، يا أم سلمة
ذهب حسن الخلق بخيري الدنيا والآخرة (١)

ثم قال : فإن شأقتك هذه الصفات ، وأخذت بقلبك هذه
المحاسن :

فاسم بعينيك الى نسوة

مهورهن العمل الصالح

وحدث النفس بعشق الاولى

في عشقهن المتجر الرابع

واعمل على الوصل فقد أمكنت

أسبابه ووقتها رائع

وختم الفصل بقطعة من قصيدته الشهيرة بالكافية

الشافية في الانتصار للفرقة الناجية نقتطف منها بعض أبياتها

(١) الروضة ٢٥٨ وقد تفرد به سليمان بن أبي كريمة وهو
ضعيف ضعفه أبو حاتم وقال ابن عدي : عامة أحاديثه مناكير .

التي بصف فيها الحور العين قال :
 يا خاطب الحور الحسان وطالبا
 لو صالهن بجنة الحيوان
 لو كنت تدري من خطبت ومن طلب
 ت بذلت ما تحوي من الاثمان
 او كنت تعرف أين مسكنها جعا
 ت السعي منك لها على الاجفان
 أسرع وحث السير جهك انسا
 مسراك هذا ساعة لزمان
 فاعشق وحدث بالوصال النفس واب
 ذل مهرها ما دمت ذا إمكان
 واجعل صيامك دون لقيائها ويو
 م الوصل يوم الفطر من رمضان
 واجعل نعوت جبالها الحادي وسر
 نحو الحبيب ولست بالمتواني
 واسمع - إذن - أوصافها ووصالها
 واجعل حديثك ربة الاحسان

* * *

والشمس تجري في محاسن وجهها
 والليل تحت دوائب الاغصان

فيظل يعجب وهو موضع ذاك من

ليل وثس كيف يجتمعان

ويقول سبحان الذي ذا صنعه

سبحان متقن صنعة الانسان

لا الليل يدرك شمسها فتغيب عن

د مجينه حتى الصباح الثاني

والشمس لا تأتي بطرد الليل بل

يتصاحبان كلاهما أخوان

وكلاهما مرآة صاحبه اذا

ما شاء يبصر وجهه يريان

حسر الخدود تغورهن لآلىء

سود العيون فواتر الاجفان

والبرق يبدو حين يسم ثغرها

فيضيء سقف القصر بالجدران

ريانة الاعطاف من ماء الشبا

ب ففصنها بالماء ذو جريان

فالورد والتفاح والرممان في

غصن تعالى غارس البستان

لما جرى ماء النعيم بغصنها

حسل الشار كثيرة الالوان

والقصد منها كالقضيبي اللدن في
 ، حسن القوام كأوسط القضبان
 في مفرس كالعاج تحب أنه
 عالي النقا أو واحد الكثبان
 لا الظهر يلحقه وليس ثديها
 بلواحق لبطن أو بدوان
 لكنهن كواعب ونواهد
 فتديهن كأحسن الرمان
 والجيد ذو طول وحسن في بياض
 واعتدال ليس ذا نكران
 يشكو الحلبي بعاده فله مدى الـ
 أيام وسواس من الهجران
 والمعصان فاز تشأ شَبَّهَهَا
 بسيكتين عليهما كفان
 كالزبد لينا في نعومة ملمس
 أصداف در دورت بوزان
 يارب غفرا قد طغت أقلامنا
 يارب معذرة من الطغيان

فاجمع قواك لما هناك وغض من
 لك الطرف واصبر ساعة لزمان
 ما ها هنا والله ما يسوى قلا
 مة ظفر واحدة من النوان
 ونصيفها خير من الدنيا وما
 فيها اذا كانت من الاثان
 لا تؤثر الادنى على الاعلى فان
 تفعل رجعت بذلة وهوان
 واذا بدت في حلة من لبسها
 وتسايلت كتسايل النوان
 تهتز كالغصن الرطيب وحمله
 ورد وتفتحاح على رمان
 وتبخترت في مشيها ويحق ذا
 لك لمثلها في جنة الرضوان
 ووصائف من خلفها وأمامها
 وعلى شاكلها وعن أيان
 كالبدر ليلة تسه قد حف في
 غسق الدجى بكواكب الميزان
 فلسانه وفؤاده والطرف في
 دهش وإعجاب وفي سبحان

نستنطق الافواه بالتسييح اذ
 تبدو فسبحان العظيم الشان
 والقلب قبل زفافها في عرسه
 والعرس اثر العرس متصلان
 حتى اذا ما واجهته تقابلا
 أرايت اذ يتقابل القصران
 وسل المقيم أين خلف صبره
 في أي واد أم بأي مكان
 وسل المقيم كيف حالته وقد
 ملئت له الأذنان والعينان
 من منطق رقت حواشيه ووجد
 له كم به للشمس من جريان
 وسل المقيم كيف عيشته اذا
 وهما على فرشيها خلوان
 يتساقطان لآلنا مشورة
 من بين منظوم كنظم جنان
 وسل المقيم كيف مجلسه مع الـ
 محبوب في روح وفي ريحماز
 وتدور كاسات الرحيق عليهما
 بأكف أقمار من الولدان

يتنازعان الكأس هذا مرة
والخود أخرى ثم يتكئان
غاب الرقيب وغاب كل منكد
وهما بثوب الوصل مشتملان
اتراها ضجرين من ذا العيش لا
وحياة ربك ما هما ضجرا
يا عاشقا هانت عليه نفسه
اذ باعها غنا بكل هوان
اترى يليق بعقل يبع الذي
يبقى وهذا وصفه بالفاني

تعليق الاستاذ أحمد عبيد :

هذا وقد علق الأستاذ الأديب السيد أحمد عبيد ناشر كتاب روضة المحبين بعد ذكر مقتطفات من هذه القصيدة الكافية الشافية تعليقا قيما ، رد فيه مزاعم الذين يقولون : ان نعيم الجنة نعيم روحي لا نصيب للجسم فيه ، نذكر هذا التعليق اللطيف بنصه أمانة للعلم ولأن هذا التعليق لم يبق حجة لأولئك المتحذلقين ، قال : « لقد انكر بعض الناس أن يكون نعيم الجنة ماديا يباشره الخلق بأجسامهم ويروونه بأبصارهم ، وهم يدعون أن النعيم في الآخرة روحي محض ليس للأجسام علاقة به ولا يخفى ما في هذا الرأي من الزيغ والضلالة . وأي زيغ أشد من رد ما جاءت به الآيات البيّنات والاحاديث الصحيحة الثابتة ان أحوال البرزخ والقيامة وما بعدها من الامور المغيبة التي لا يمكن أن يكون المرجع فيها الى الرأي والاجتهاد ، بل لا بد من المعير فيها الى ما جاء عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وإذن ليس لنا من محيد عن أن نعتقد اعتقادا جازما لا تردد فيه ، أن الحال في الآخرة على ما وصف في الكتاب الكريم والسنة المطهرة وهو ما عليه عامة السلف والخلف .

على أن الجنة ليست كما يفهمها آخرون مقصورة على التمتع بالشهوات من النساء والطعام والشراب ونحوها وانما هنالك أمور هي أسمى من ذلك وأعلى ، منها ، اجتساع أهل الجنة

بعضهم ببعض وتذاكرهم ما كان بينهم في الدنيا ومنها : — وهو أفضلها وأعظمها على الإطلاق — رؤية الله سبحانه وتعالى عياناً بغير حجاب وسناع كلامه بلا واسطة ومجاضته العباد . وتذكره عز وجل إياهم بسا اتوا في الدنيا من غدرات وغيب ذلك مما هو ثابت لا يمتري فيه الأمن هم في ريبهم يترددون •

وبعد فلا أدري ما هو السبب الحامل على انكار كون نعيم الجنة مما يشترك في الاحساس به الاجسام والارواح مع أن الناس جميعا انما يسعون في الدنيا لتحصيل اللذة والنعيم وهما لديهم الغاية القصوى من الحياة المشوبة بالآلام والأستقاء والفقر وخوف الانقطاع وما منا من أحد الا وهو يتوخى بعينه أي عمل كان ما يتوخاه العامل من الاجر حتى أولئك الذين يدعون أنهم انما يعملون ما يعملون قياما بالواجب واجابة لداعي الضمير . فان قصاراهم منه اللذة، وموضعها النفوس والاجسام وأن تعجب فعجب شأن أولئك الذين يستنكرون عيش الآخرة لما فيه من الاقبال على النعيم الخالص . ويعدون التقلب في أحيائه وامتناع النفس بلذاته من الامور التي يحسن بالعاقل أن يربأ بنفسه عن الرضى بها والركون اليها . وانما هي شئمة العاطلين أولي النفوس الشهوانية والهيم الدنيئة . يقولون ذلك وهم يركبون رؤوسهم في اتباع الشهوات الموبقة بين سمع الخلق وبصرهم وينعون على أهل الصلاح أنهم عن صراطهم ناكبون ، وأنهم عن

صفو هذا العيش ونعسته غافلون ولقد قال قائلهم ، وكان في تيه
غيه وهو اه سادرا :

ومن أجل كرمي للسخايت انكرت
يدي ان تحلى في الجنان أساورا

الا فليعلم هؤلاء أن للسقين مفازا . وان لهم في الجنة ما
تشتهي أنفسهم ولهم فيها ما يدعون : نزلا من غفور رحيم وفيها
ما تشتهي الانفس وتلذذ الاعين وهم فيها خالدون . تلك عقبى
الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار (١) .

وعلى هذا المنوال أخذ ينسج وفي هذه اليراعة أخذ يرسم
ويصف محاسن أعضائها وحليها وزينتها وأخلاقها ، وحجها لمن
هي له . وقصر طرفها عليه حيث ختم الفصل كما رأيت بقوله :

يا عاشقا هانت عليه نفسه

اذ باعها غيبا بكل هوان

أترى يليق بعقل بيع الذي

يبقى وهذا وصفه بالفاني

ثم ذكر علامات المحبة وشواهدا فقال : « فسنها ادمان
النظر ، واقبال العين عليه ... فأنحبط نظره وقف على محبوبه
كما قيل :

(١) الروضة ص ٢٧٧ .

ان يحجبوها عن العيون فقد

حجبت عيني لها عن البشر

ومنها : إغضاؤه عند نظر المحبوب اليه ورميه بطرفه نحو الارض . وذلك من مهابته له وحيائه منه وعظمته في صدره قال الله تعالى مخبرا عن كمال أدب رسوله في ليلة الاسراء : (ما زاغ البصر وما طغى^(١)) وهذا غاية الادب فان البصر لم يزغ يسينا ولا شمالا . ولا طمح متجاوزا الى ما هو رائيه ومقبل عليه كالتشارف الى ما وراء ذلك . .

ومنها : كثرة ذكر المحبوب ، واللهج بذكره فسن أحب شيئا أكثر من ذكره بقلبه ولسانه . ولهذا أمر الله سبحانه عباده بذكره على جميع الاحوال وأمرهم بذكره أخوف ما يكونون فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون »^(٢) والمحبون يفتخرون بذكر احبابهم وقت المخاوف . وملاقة الاعداء كما قال :

ذكرتك والخطي يخطر بيننا

وقد نهلت منا المتفقة السمر

(١) النجم الآية / ١٧ .

(٢) الانفال / ٤٥ .

ولقد ذكرتك والرماح كأنها
اشطان بئر في لبان الأدهم

فوددت تقبيل السيوف لأنها
برقت كبارق ثغرك المتبسم

ومنها : الانتقياد لأمر المحبوب وإثاره على مراد المحب ...
قالطاعة للمحبوب عنوان المحبة كما قيل :

تعصي الإله وأنت تزعم حبه
هذا محال في القياس بديع

لو كان حبك صادقا لاطعته
إن المحب لمن يحب مطيع

ومنها : قلة صبر المحب عن المحبوب وإثاره على مراد
المحب كما قيل :

والصبر يحمد في المواطن كلها
وعن الحبيب فانه لا يحمد

ومنها : الاقبال على حديثه وإلقاء سمعه إليه بحيث
يفرغ لحديثه سمعه وقلبه ... فالمحبون لا شيء الذل لهم ولقلوبهم
من سماع كلام محبوبهم ، وفيه غاية مطلوبهم ، ولهذا لم يكن
شيء أذل لأهل المحبة من سماع القرآن ، وقد ثبت في الصحيحين

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : أقرأ علي قلت : أقرأ عليك وعليك أنزل ، قال اني أحب أن أسعده من غيري فقرأت عليه من أول سورة النساء حتى اذا بلغت قوله تعالى (فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) قال حسبك الآن • فرفعت رأسي فاذا عيناه تذرفان^(١) • وكثير من المحبين ماتوا عند سماع القرآن بالصوت الشجي ، فهؤلاء قتلوا القرآن لا قتلوا عشاق المردان والنسوان •

ومنها محبة دار المحبوب وبينه ، وهذا هو السر الذي لاجله غنقت القلوب على محبة الكعبة البيت الحرام، حتى استطاب المحبون في الوصول اليها هجر الاوطان والاحباب ... واذا كان من يحب مخلوقا مثله يحب داره كما قيل :

أمر على الديار ديار سلمي
أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي
ولكن حب من سكن الديارا

(١) رواه البخاري ومسلم في الصحيحين .

فكيف بمن ليس كمثل شيء . وليس كمثل محبته محبة .
ومنها : الاسراع اليه في السير وحت الركاب نحوه . ومحبة
أحباب المحبوب وجيراته . وخدمه . وما يتعلق به كما قال :

أحب بني العواء طرا لاجلها
ومن أجلها أحبت أخوالها كلها

ومنها : انجلاء همومه وغصومه إذا زار محبوبه أو زاره

يزور فتنجس غني هومي
لأن جلاء هسي في يديه

ومنها : قصر الطريق حين يزوره
وكنت إذا ما جئت ليلى أزورها
أرى الأرض تطوى لي ويدنو بعيدها
من الخفران البيض ود جلسها
إذا ما انقضت الحدوثة لو تميدها

ومنها : غيرته لمحبوبه وعلى محبوبه . وبذل المحب في رضى
محبوبه ما يقدر عليه وسروره بما يسر به محبوبه : كأننا ما كان
كما قال أبو الشيثان :

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي
متأخر عنه ولا متقدم

وأهنتني فأهنت نفسي جامدا
ما من يهود عليك ممن يكرم
أشبهت أعدائي فصرت أحبهم
اذ كان حظي منك حظي منهم
أجد الملامة في هواك لذيدة

حبا لذكرك فليلمي اللوم
ومنها : حب الوحدة والانس بالخلوة والاستكانة للمحجوب
وخضوعه وذله له . والحب مبني على الذل للمحجوب . بل
كثير منهم يعد ذله عزا كما قال :

إذا كنت تهوى من تحب ولم تكن
ذليلا له فاقر السلام على الحب
تذلل لمن تهوى لتكسب عزة
فكم عزة قد نالها المرء بالذل

ومنها : امتداد النفس وتردد الانفاس وتصاعدها وهذا
نوعان : احدهما ما يقارنه حزن ولهف كما قال القائل :

تردد أنفاس المحب تدلنا
على كنه ما أخفاه من ألم الحب

إذا خطرات الحب خامرن قلبه

تنفس حتى ظل منقطع القلب

والثاني ما يكون سببه طربا ولذة وسبب وجود النوعين

انحصار القلب وانفراجه بسبب الوارد الذي يرد عليه

ومنها: هجره كل سبب يقصيه من محبوه ويغضه المحبوب،

وارتياحه لكل سبب يدنيه منه ويستحمد به عنده اذا بلغه عنه ،

وفي هذا الباب عجائب للمحبين . فكثير منهم هجر طعاما أو

لباسا أو أرضا أو صناعة أو حالة من الحالات كان محبوه

يمقتها فلم يعد اليها أبدا ولم تطاوعه نفسه بفعله البتة . وكثير

منهم حملة الحب على اكتساب المعالي والفضائل وغيرها مما يعلم

أن المحبوب يعظمه ويحبه ، وهذا نوعان أيضا : أحدهما : أن

يكون المحبوب مؤثرا لذلك محبا له يبذل جهده فيه لينال منه

اعلاه ان أمكنه فان كان المحبوب مشغوبا بجمع المال أثر ذلك

في محبه شغفا أشد من شغفه ، وان كان مشغوبا بالعلم اجتهد

المحب في طلبه أشد من اجتهاده ، وان كان مشغوبا بحرفة أو

صناعة حرص المحب على تعلمها . . . فالمحبة النافعة ان تقع على

عشق كامل يحملك عشقه على طلب الكمال .

والبلية كل البلية أن تبلى بمحبة فارغ بطل صفر من كل

خير فيحملك حبه على التشبه به .

والثاني : ان يكون المحبوب فارغا من محبة ذلك وايثاره ،
ولكن المحبة تستخرج من قلب المحب عزما واردة وحرصا على
ما يعظم به في عين المحبوب وقلبه ، فتجده أحرص الناس على
ذلك بحسب استعداده كما قيل :

ويرتاح للمعروف في طلب العلى
لتحمد يوما عند ليلي شمائله

وهذا قد يكون له سبب آخر ، وهو معاداة الناس له ،
وتنقصهم اياه وردواؤهم به فيحمله الاتساء لنفسه والغيرة لها
ومحبتها على المنافسة في المعالي واكتساب الحمد ، وهذا من
شرف النفس وعزتها كما قيل :

من كان يشكر للصديق فانتسي
أحبو بصالح شكري الاعداء
هم سيروا طاب المعالي دبديني
حتى وطئت بنعلي الجوزاء
ولربما انتفع الفتى بعدوه
والسم أحيانا يكون شفاء

وقال الآخر :

عداي لهم فضل علي ومنّة
فلا أعدم الرحمن غني الأعاديا

هم يحشوا عن زلتني بالحبس
 ومنهم من يرمى ذلكمست المذالك
 ثم ذكر أن اقتضاء المحبة سرور الحبيب بالحب وعدم
 التشريك بينه وبين غيره . فقال :

هذا من موجبات المحبة . فإحسانها قد قوى
 الحب متى انصرف إلى حبه لم يبق لها متسع لغيرها . ومن
 أمثال الناس : ليس في القلب حزن وإنما في المساء . قال : وقد بالغ
 أبو محمد بن حزم في انكاره . من يزعم أنه يعشق أكثر من
 واحد وقال في ذلك شعرا قال بعد كلام طويل : ومن هذا دخل
 الغلط على من يزعم أنه يحب اثنين ويعشق شخصين متغايرين .
 وإنما هذا من جهة الشهوة التي ذكرنا آتفا . وهي على المجاز
 تسمى محبة لا على التحقيق . وأما نفس المحب فما في الميل به
 فضل يضرفه من أسباب دينه وديناه فكيف بالاشتغال بحب ثان
 وفي ذلك أقول :

كذب المدعي هوى اثنين حشا
 مثل ما في الاصول أكذب ما نى
 ليس في القلب موضع لحبيب
 من ولا احدث الامور اثنان

فكسا العقل واحد ليس يدري
خالقا غير واحد رحمان
فكذا القلب واحد ليس يقوى
غير فرد مباعد أو مدان
هو في شرعة المودة ذو شـ
كٍ بعيد من صحة الايمان
وكذا الدين واحد مستقيم
وكفور من عنده دينان

وبعد أن حقق المسألة قال : والتحقيق ان المحبوب لا يمكن
الا أن يكون واحدا .

وذكر غيرة المحبين فقال : هي نوعان : غيرة للمحبوب ،
وغيرة عليه فالغيرة له ، نحو غيرة الرسل واتباعهم لله من أن
تنتهك حرماته . ثم قسم الغيرة على المحبوب الى ممدوحة
ومذمومة ، فالممدوحة ان يغار عند الريية . والمذمومة عند مجرد
سوء الظن . قال : وهذه الغيرة تفسد المحبة ، وتوقع العداوة
وأطال في ذكر الامثلة من غيرة المحبين على أحبابهم فذكر غيرة
سارة من أمتها هاجر بعدما وهبتها لسيدنا ابراهيم عليه السلام
وغيرة السيدة عائشة الصديقة من خديجة الكبرى رضي الله

عنهما ، وغيره رسول الله صلى الله عليه وسلم على مارية القبطية من قريب لها ، وغيره ابن عمر على زوجته لانها كلت قريبا لها من خلف الجدار ، وكان لا يعلم بقرابته لها ، وغيره معاذ على زوجته لانها رمت بتفاحة أكلت منها لعلامه ، واستطرد كما هي عادته لذكر غيره الله على قلب عبده المؤمن وأنه تعالى يكره ان يكون قلب المؤمن معطلا من حبه وخوفه ورجائه ، وأنه تعالى يغار على توحيد دينه وكلامه ان يحظى به من ليس من أهله ثم ذكر الغيرة على دقيق العلم ، وذكر الغيرة عند المتصوفة ، وأن منهم من بلغت به الغيرة لدرجة ، أنه يغار ان يذكر الله احد غيره ، بل منهم من يغار من نفسه ، وينزه لسانه عن ذكر الله ، ثم رد شبه هؤلاء وأظهر جهلهم ثم قال : وملاك الغيرة وأعلامها ثلاثة أنواع : غيرة العبد لربه ان تنتهك محارمه ، وتضيع حدوده ، وغيرته على قلبه أن يسكن الى غيره وأن يأنس بسواه ، وغيرته على حرمة وأن يتطلع اليها غيره .

ولما كانت الغيرة والعفة متلازمتين ، ذكر عفة المؤمنين الموصوفين بقوله تعالى : (قد افلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، الا على أزواجهم

او ماملكت أيسانهم فانهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) . وذكر عفة يوسف الصديق عليه السلام ، وأنه اجتمع له من الدواعي ما لو حصل بعضه لغيره لزلت به قدمه . وهوى في حياة الرذيلة . وأن الله ضرب لعباده مثلاً أعلى بقصة يوسف عليه السلام في العفة لمن وقع بمثل ما حدث له مع امرأة العزيز . وأن العاقبة للمتقين . ولسوف تظهر الحقيقة ولو بعد سنين . كما اقتصرت امرأة العزيز في ختام قصتها معه : وشهادة من أشاع السوء عنها من النسوة عندما واجهن الحقيقة . قال تعالى على لسان الكسك : « ما خطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه قلن . حاشا لله ما علسنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز : الآن حشحتن الحق . انا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين » .

العفة والهوى العذري :

وعقب على ذلك بذكر غيرة اهل الدين وعفافهم نساء ، ورجالا ، ثم ذكر الهوى العذري وأسباب العفة ، ولذة أهل العفاف وأنها تفوق لذة الوصال المحرم بسراحل . وأورد اخبارا وحكايات تذكر منها بعضها على سبيل المثال وليست هي أروعها وأبدعها قال : « ذكر المبرد عن ابي كامل عن اسحاق

ابن ابراهيم عن رجاء بن عسرو النخعي قال : كان بالكوفة فتى
 جليل الوجه شديد التعبد والاجتهاد : فنزل في جوار قوم من
 النخع ، فنظر الى جارية منهن جميلة فهوربها وهام عقله بها
 ونزل بالجارية ما نزل به . فأرسل يخطبها من أبيها ، فأخبره ابوها
 أنها مساة لابن عنها . فلما اشتد عليهما دا يقاسيانه من ألم الهوى
 ارسلت اليه الجارية : قد بلغني شدة محبتك لي . وقد اشتد بلائي
 بك . فان شئت زرتك وان شئت سهلت لك ان تأتيني الى
 منزلي .

فقال للرسول : ولا واحدة من هاتين الخلتين . اني أخاف ان
 عصيت ربي عذاب يوم عظيم . اخاف نارا لا يخبو سعيها ولا
 يخد لهيبها ، فلما أبلغها الرسول قوله ، قالت : وأراه مع هذا
 يخاف الله ، والله ما أحق بهذا من احد . وان العباد فيه
 مشتركون ، ثم انخلعت من الدنيا والقت علائقها خلف ظهرها
 وجعلت تتعبد ، وهي مع ذلك تذوب وتنحل حبا للفتى وشوقا
 اليه حتى ماتت من ذلك ، فكان الفتى يأتي قبرها فيكي عنده ،
 ويدعو لها . فغلبته عينه ذات يوم على قبرها فرآها في منامه في
 أحسن منظر . فقال : كيف أنت . وما لقيت بعدي ؟ قالت :

نعم المحبة يا سؤلي محبتكم
 حب يقود الى خير واحسان

فقال على ذلك إلامَ صرت ؟ . فقالت :

الى نعيم وعيش لا زوال له

في جنة الخلد ملك ليس بالفاني

فقال لها اذكريني هناك فاني لست انساك فقالت : ولا انا

والله أنساك ولقد سألت مولاي ومولاك ان يجمع بيننا فأعني

على ذلك بالاجتهاد ، فقال لها : متى أراك فقالت ستأتينا عن

قريب فلم يعش الفتى بعد هذه الرؤيا الا سبع ليال حتى مات

رحمه الله .

وقال عبد الملك بن قريب : قلت لاعرابي حدثني عن ليلتك

مع فلانه قال : خلوت بها والقصر يرينها فلما غاب القمر أرتنيه

قلت فما كان بينكما ؟ قال : اقرب ما أحل الله ما حرم الله :

الاشارة بغير ما بأس ، والدنو من غير مساس . ولعسر لك لئن كانت

الايام طالت بعدها لقد كانت قصيرة معها . وحسبك بالحب :

ما ان دعاني الهوى لفاحشة

ولا مشيت بي لريبة قدم

فلا الى فاحش مددت يدي

ولا مشيت بي لريبة قدم

وقال عثمان بن الضحاك الحزامي : خرجت اريد الحج

فنزلت بالابواء فاذا جارية على باب خيمة ، فأعجبنى حسنها
فتمثلت بقول نصيب :

بزئب ألمم قبل ان يرحل الركب
وقل : ان تسلينا فما ملك القلب

فقلت : يا هذا اتعرف قائل هذا الشعر ؟ قلت : نعم . نصيب
قلت : فتعرف زئب ؟ قلت لا قالت : فأنا زئب ، قلت : حياك الله .
قالت : اما ان اليوم موعده من عند امير المؤمنين خرج اليه عام أول
فوعدني هذا اليوم لعلك لا تبرح حتى تراه قال : فيينا أنا كذلك
اذ أنا براكب ، قالت : ترى ذلك الراكب ؟ اني لاحسبه اياه ،
قال : فأقبل ، فاذا هو نصيب ، فنزل قريبا من الخيمة ثم أقبل
فسلم حتى جلس قريبا منها يسألها وتسأله أن ينشدها ما
أحدث فأنشدها ، فقلت في نفسي : محبان طال التناهي بينهما
لا بد ان يكون لاحدهما الى صاحبه حاجة ، فقمت الى بعيري
لأشد عليه ، فقال : على رسلك اني معك فجلست حتى نهض معي
فتسايرنا ثم التفت الي فقال : أقلت في نفسك محبان التقيا بعد
طول التناهي فلا بد أن يكون لاحدهما الى صاحبه حاجة ؟ قلت
نعم قد كان ذلك قال : ورب هذه البنية ما جلست منها مجلسا
هو اقرب من هذا .

ثم يروي ابن القيم رحمه الله جيلة طريفة ونكتة طريفة
 عن بعض ظرفاء الحجاز يبين فيها تطور الاخلاق والفرق بين عمدة
 السلف ورذالة الخلف : او العشق العذري الرفيع والعشق
 البهيمى الوضيع فيقول : « قال غير بن شبة : حدثنا أبو غسان
 قال : سمعت بعض المدنيين يقول : كان الرجل يحب الفتاة
 فيطوف بدارها حولا يفرح أن يرى من يراها فان ظفر منها
 بسجاس تشاكيا وتناشدا الاشعار واليوم يشير اليها وتشير اليه
 فيعدها وتعهده فاذا التقيا لم يشك حبا ولم ينشد شعرا وقام اليها
 كأنه قد أشهد على نكاحها ابا هريرة رضي الله عنه » .

وبعد ان يروي عدة اخبار بهذا المعنى يعود الى اخبار أهل
 العفة فيقول : « قيل لا حدهم وقد زوجت عشيقته من ابن عمها
 وقد هيأها اهلها على اهدائها اليه ، أيسرك ان تظفر بها الليلة ؟
 قال : نعم والذي امتعني بها وأشقاني بطلبها ، وقيل : فما كنت
 صانعا ؟ قال : كنت اطيع الحب في لثها ، وأعصي الشيطان في اثمها
 ولا افسد عشق عشر سنين بما يبقى عاره وتنتشر بالقبيح أخباره
 في ساعة تنفذ لذتها وتبقى تبعثها إني - اذا - للئيم ولتم يغذي اصل
 كريم وقال : « دخلت عزة على عهد الملك بن مروان وهو لا
 يعرفها ترفع مظلمة لها ، فلما سمع كلامها تعجب منه ، فقال له

بعض جلسائه : هذه عزة كثير فقال لها عبد الملك : ان أردت أن
أرد عليك مظلتك فأشديني ما قال فيك كثير ، فاستجيت
وقالت : والله ما اعرف كثيرا ولكني سمعتهم يحكون انه قال
في :

قضى كل دي دين فوفى غريمه
وعزة مطول معنى غريها
فقال عبد الملك ليس عن هذا أسألك . ولكن اشديني من
قوله :

وقد زعت اني تغيرت بمداها
ومن ذا الذي ياعر لا يتغير
تغير جسمي وانخليقة كالذي
عهدت ولم يخبر برك مخبر
قالت ما سعت هذا ولكني سمعت الناس يحكون عنه انه
قال في :

كأنني انادي صخرة حين أعرضت
من الصم ، لو تشي بها العصم زلت
صفوح فما تلقاك الا بخيلة
فمن مل منها ذلك الوصل ملت

فقضى حاجتها ورد مظلمتها ، وقال : أدخلوها على الجواري
ياخذن من أدبها •

وقال : دخلت عزة يوما على ام البنين أخت عمر بن عبد
العزيز : فقالت يا عزة ما قول كثير ؟

قضى كل ذي دين فوفى غريمه
وعزة مطول معنى غريمها

ما كان هذا الدين فقالت : كنت وعده بقبلة فتخرجت منها ،
فقالت : أم البنين أنجزها ، وعلى اسمها ، قالت : فاعتقت ام البنين
بكلمتها هذه اربعين رقبة ، وكانت اذا ذكرتها بكت وقالت : ليتني
خرست ولم اتكلم بها •

وقال : كان اخوان من ثقيف من بني كنة بينهما من التخاب
شيء لا يعلمه الا الله وكل واحد منهما اخوه عنده عدل
نفسه . فخرج الاكبر منهما الى سفر له وله امرأة فأوصى اخاه
بحاجة أهله ، فبينما المقيم في دار الظاعن اذ مرت امرأة اخيه في درع
تجوز من بيت الى بيت وكانت من اجمل البشر فرأى شيئا حيره
فلما رآته ولولت ووضعت يدها على رأسها ودخلت بيتا ووقع
حبها في قلبه ، فجعل يذوب وينحل جسمه ويتغير لونه وقدم أخوه
فقال : مالك يا أخي متغيرا ، ما وجعك ؟ قال : ما بي من وجع ، فدعى له
الاطباء فلم يقف على دائه غير الحارث بن كلدة ، وكان طبيبا
فقال : أرى عينين صحيحتين وما أدري ما هذا الوجع وما اظنه

ألا عاشقا . فقال له اخوه : سبحان الله أسألك عن وجع أخي وانت
تهزأ بي . فقال : ما فعلت . وسأسقيه شرابا عندي فان كان عاشقا
فسيتبين لكم . فأتاه بشراب فجعل يسقيه قليلا قليلا فلما أخذه
الشراب هاج وقال :

أُما بني على الأيما
ت من خيف نزرهنه
مزال ما رأيت اليو
م في دور بني كنه
أسيل الخد مربوب
وفي منطقـه غنه

فقال : انت طبيب العرب فبمن؟ قال : سأعيد له الشراب ولعله
يسبي فأعاد له الشراب فسسى المرأة فطلقها اخوه ليتزوجها فقال
المريض : علي كذا وكذا ان تزوجتها ، فقضى ولم يتزوجها ،
ثم ختم الباب بقصة بشينة وجميل عندما وشت بهما الجارية ،
وراقبها ابوها واخوها فسعاه يقول لها : يا بشينة أرايت
ما بي من الشغف والعشق الا تجزيه ، قالت : له بماذا قال بما
يكون بين المتحابين . فقالت له يا جليل اهذا تبغي والله لقد
كنت بعيدا مني فاذا عاودت تعريضا بريبة لا رأيت وجهي ابدا ،
فضحك وقال : والله ما قلت لك هذا الا لاعلم ما عندك ولو علمت
انك تجيبيني اليه لعلمت انك تجيبين غيري ، ولو رأيت منك

مساعدة لضربتك بسيفي هذا ما إستسك في يدي ان طاوعتني
نفسي أو هجرتك أبدا . او ما سعت قولي :

وإني لأرضى من بشينة بالذي
لو ابصره الواشي لقرت بلابله
بلا وبأن لا استطيع وبالمنى
وبالامل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضي
وأخره . لا نلتقي وأوائله

فقال ابوها لأخيها : فما ينبغي لنا بعد هذا اليوم ان نسنع
هذا الرجل من إتيانها .

عقاب مرتكبي الحرام :

ولم ينس ان يذكر عقاب مرتكبي سبل الحرام . وما تقضي
اليه من المفسد والآلام . وبين مضار هذه السبل دينا وأدبا
واجتماعا . وابتدأ الكلام على مضار الزنى من الوجهة الدينية .
وأورد ما ذكره البخاري في صحيحه من حديث سرّة بن جندب
وفيه : « وأما الرجال والنساء في مثل بناء التور . فانهم الزناة
والزواني » وروى غيره كثيرا من الاحاديث الزواجر عن هذه
السبل الممقوتة . ثم قال : « ويكفي في قبح الزنى أن الله
سبحانه وتعالى مع كمال رحمته شرع فيه أوحش العقوبات
وأصعبها وأفضحها . وأمر ان يشهد عباده المؤمنون تعذيب فاعله ،

قال : (وليشهد عذابها مائة من المؤمنين) ومن قبحه ان الله سبحانه فطر عليه - اي عقاب الزناة - بعض الحيوانات البهم الذي لا عقل له كما ذكر البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميسون الاودي قال : « رأيت في الجاهلية قردا زنى بقردة فاجتسع عليهما القردة فرجسوهما حتى ماتا وكنت فيمن رجبهما » ثم من مضارده من الوجهة الاجتماعية : أنه محور خلال الشر فقال ما ملخصه : « والزنى يجسع خلال الشر كلها : من قلة الدين • وذهاب الورع • وفساد المروءة وفلة الغيرة والحياء • ومن موجباته غضب الرب سبحانه وتعالى وسواد الوجه • وظلمة القلب • وضئس نور الوجه • وإفقر اللازم وأنه يسلب فاعله اسم البر والعفة والعدالة والايان » وأطال كثيرا في تعداد مخازيه وموجباته ثم ذكر ما هو اشنع ذكرا وأقبح فعلا سبيل الامة الملعونة ، وذكر اختلاف العلماء في حد فاعله هل يحرق بالنار ، ام يرمى من شاهق • ثم ذكر قصة سيدنا لوط عليه السلام ، والصحيح في تفسير قوله تعالى : (هؤلاء بناتي هن أطهر لكم) وانه يريد ان ينكحن قومه نكاحا شرعيا • ثم عقب القصة بسا ورد من الآثار في الكتاب والسنة في عقاب فعلة ذلك ما في بعضه اكبر رادع وأعظم زاجر ، وأن الله انزل عليهم من العذاب انواعا • عمى الابصار وخسف الديار والقذف بالاحجار ، ودخول النار ، ثم قال : فلا كانت لذة توجب هذا العذاب الاليم ، وتسوق صاحبها الى مرافقة اصحاب

الجحيم ، تذهب اللذات وتعقب الحسرات وتفنى الشهوة وتبقى
الشقوة ...

تفنى اللذادة ممن نال صفوتها
من الحرام ويبقى الخزي والعار
تبقى عواقب سوء في مغبتها
لاخير في لذة من بعدها النار

وأما ان كانت الفاحشة مع ذي رحم محرم ، فذلك الهلك
كل الهلك ويجب قتل الفاعل بكل حال وكان في الآخرة من
الهالكين لقول النبي الكريم صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل
الجنة من أتى ذات محرم » وقوله : من تخطى الحرمتين فخطوا
وسطه بالسيف .

الشفاعة للمجيبين :

ولم ينس أن يذكر الشفاعة للمجيبين لدى أحبابهم ،
ففسر أولا قوله تعالى : (من يشفع شفاعا حسنة يكن له نصيب
منها ، ومن يشفع شفاعا سيئة يكن له كفل منها) وبين النكتة في
كون الله تعالى ذكر الشفاعة الحسنة مقرونة بالنصيب والشفاعة
السيئة مقرونة بالكفل فقال : « ان لفظ الكفل يشعر بالحمل
الثقل ولفظ النصيب يشعر بالخط الذي ينصب طالبه في
تحصيله ، وإن كان كل منهما يستعمل بالامرين عند الانفراد

ولكن لما قرن بينهما حسن اختصاص حظ الخير بالنصيب وحظ الشر بالكفل « واستدل على استحسان الشفاعة للسجين بشفاعة سيد الشافعين صلى الله عليه وسلم لمغيث عند بريرة . وانها لما قالت : أأمرني أن أرجع اليه ! قال : لا انسا أنا شافع . وبسا جاء في صحيفة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : إن رجلا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم زوج ابنته له : وكان خطبها قبل ذلك عم بنتها فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم أنها كارهة هذا الذي زوجها أبوها . وأنه كان يعجبها أن يتزوجها عم بنتها . فأهدر النبي صلى الله عليه وسلم نكاح أبيها وزوجها عم بنتها .

أقول : فلينظر أولئك الذين يزعمون نصرة المرأة واعطاءها حقوقها هل هضمها الاسلام حقها حتى ينبري أولئك لنصرتها وإعادة حقها لها .

وفات أولئك أن من بعض أسلحة الاستعمار هذه المخازي التي انتشرت في مجتمعا من تخففس وتخث واسترجال الفتيات بتقليد الشبان بلبس البنطلونات الضيقة والبيجامات الزاهية التي تلبس في غرف النوم حتى اختلط الامر على كثير من الناس وصعب على الكثير منهم التمييز بين الفتى والفتاة .

وبإدمان النظر الى هذه المناظر المخزية والمشاهد المؤذية

ماتت الغيرة في النفوس ، واندثرت الحمية من الرؤوس ، فترى أحدهم يتأبط ذراع زوجته أو أخته أو ابنته وهي بأبهى زينتها عارية الزنود ، بادية النهود ، حاسرة الشعر والنحر والصدر كاشفة الساقين حتى الفخذين يعرضها وليها عرض الجواري بسوق النخاسين • لا بل كان أولئك أستر من هؤلاء والنخاسون أشد غيرة على جواربهم من هؤلاء على زوجاتهم وبناتهم •

ولسوف يكون عاجلا أو آجلا - ان لم يتدارك الامر - مصير المرأة الشرقية مصير المرأة الغربية ملايين منهن خليلات غير خليلات يبعن أجسادهن في سوق الشهوات والملذات بأبخس الاثمان • وسيكون عشرات الملايين من الاطفال غير معروفى الآباء •

هل إعطاء المرأة حقها من الحرية هو زجها في هوة الرذيلة وحساة الفساد . أوليس كان الاجدر بهؤلاء أن يعيدوا لها حقها الطبيعي الذي منحها اياه من أوجدها على هذه الصورة والذي هو أعلم بما تحتاجه من نظام لخصسه بعد ما فصله بقوله : (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة) •

بعد هذه الإشارة العابرة المظاهر وضع المرأة بصورة عامة وبخاصة الى المرأة العربية المسلمة التي بدأت تتقوى سير المرأة الغربية ، نعود لما نحن بسبيله من ذكر الشفاعة للمحيين

عند ابن القيم في روضته قال :

« سجع أبو بكر الصديق رضي الله عنه جارية تشد :

وهويته من قبل قطع تسائي

متسايساً مثل القضيبي الناعم

وكان نور البدر سنة وجهه

ينسي ويصعد في ذؤابه هاشم

فطرق عليها الباب فخرجت اليه فقال : ويلك أحره أنت أم
مسلوكة ؟ فقالت بل مسلوكة يا خليفة رسول الله صلى الله
عليه وسلم . قال فمن هويت ؟ فبكت ثم قالت : بحق الله إلا
انصرفت غني ، قال لا أريم أو تعلسيني فقالت :

وأنا التي لعب الغرام بقلبها

فبكت لحب محمد بن القاسم

فصار الى المسجد وبعث الى مولاه . فاشتراها منه ، وبعث
بها الى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب .

وذكر عن عشان بن عفان وعلي بن أبي طالب نحو ذلك
وروى قصة عاتكة بنت زيد قال : « كانت تحت عبد الله بن أبي
بكر الصديق رضي الله عنه وكانت قد غلبته على عقله وشغلته
عن سوقه فأمره أبو بكر بطلاقها وإحدة ففعل فوجد عليها ،

فقعد لآبيه على طريقه وهو يريد الصلاة فلما بصر بأبي بكر بكى
وأنشأ يقول :

ولم أرَ مثلي طلق اليوم مثلها
ولا مثلها في غير جرم يطلق
لها خلق جزل وحلم ومنصب
وخلق سوي في الحياة ومصدق

فرق له أبو بكر رضي الله عنه وأمره بسراجعتها •
وذكر شفاعة عمر بن أبي ربيعة للعاشق الذي رآه يطوف
بالييت ويتتبع آثار أقدام ابنة عمه يضع رجله موضع رجلها . يكتفي
منها بذلك ولما سأله وعلم أنها ابنة عمه وأنه عاشق لها مطلق •
سعى في زواجه منها وساق المهر لعمه من ماله • وكان عمر قد ترك
الشعر ونذر على نفسه بكل بيت يقوله هدي بدنة فلما تم له
ما أراد وجسعهما جسيعا • أتى منزله واستلقى على فراشه فجعل
النوم لا يأخذه وجعل جوفه يجيش بالشعر • فأنكرت جاريته
ذلك فجعلت تسأله عن أمره وتقول : ويحك ما الذي قد دهاك ؟
فلما أكثر عليه جلس وأنشد :

تقول وليدتي لما رأتي
طربت وكنت قد أقصرت حينا
أراك اليوم قد أحدثت شوقا
وهاج لك البكا داء دينا

بريك هل أتاك لها رسول
 فشاقتك أم رأيت لها خدينا
 فقلت شكا الي أخ محب
 كبعض زماننا إذ تعلينا
 فعز علي ما يلقي بهند
 فوافق بعض ما كنا لقينا
 وذو القلب المصاب وإن تعزى
 يهيئج حين يلقي العاشقينا
 وكم من خلة أعرضت عنها
 لغير قلى وكنت بها ضينا
 رأيت صدودها فصدت عنها
 ولو هام الفؤاد بها جنونا

ثم نقل عن الزمخشري في ربيع الابرار « أن زبيدة بنت
 جعفر قرأت في طريق مكة على حائط :
 أما في عباد الله أو في إمائه
 كريم يجلي الهم عن ذاهب العقل
 له مقلة أما المآقي فقرحه
 وأما الحشا فالنار منه على رجل

فتذرت أن تحتال لقائهما حتى تجمع بينه وبين من تحبه
 قالت فإنني لبمزدلفة اذ سمعت من ينشدهما فاستدعيت به فرعم

أنه قالهما في بنت عم له ، وقد حلف أهلها أن لا يزوجها منه .
فوجهت الى الحي وما زالت تبذل لهم من المال حتى زوجه
وإذا المرأة أعشق من الرجل ، فكانت زبيدة تعده في أعظم
حسناتها وتقول : ما أنا بشيء أسر مني بجعبي بين ذلك الفتى
والفتاة » .

وفي الربع الاخير من الكتاب يتجلى في ابن القيم
رحمه الله ذلك الروح الطاهر فيتحدث وهو المرشد الواعظ
بأسلوبه الادبي ، فيشوب مرارة النصيح والوعظ والارشاد
بجلاوة الحب الطاهر العذري ، ويسرج روادع الزواجر بأنوار
البشائر ، فيعقد هذا الباب في ترك المحبين أدنى المحبوبين
رغبة في أعلاها فيقول : « هذا باب لا تدخل منه الا
النفوس الشريفة الالوية التي لا تقنع بالبدون ، ولا تبيع
الأعلى بالادنى بيع العاجز المغبون . . . وقد عاب الله أقواما
استبدلوا طعاما بطعام أدنى منه فنعى عليهم وقال : (أتستبدلون
الذي هو أدنى بالذي هو خير) وذلك ليل على وضاعة
النفس وقلة قيستها ثم يذكر أمثلة وعظات وحكايات عن العلماء
والحكماء في هذا المعنى ما يشوق القارئ لترك الادنى لما هو
خير منه ويذكر ما كان يتمثل به عمرو بن العاص رضي الله
عنه وهو أحسن ما قيل في هذا المعنى :

إذا المرء لم يترك طعاماً أحبه
ولم ينفقه قلباً غادياً حيث يسما
قضى وطراً منه وغادر سببة
إذا ذكرت أمثالها تسأله الفيا

ولما كان الكلام في الزواجر والنواهي عن المعاصي . قال :
إن أبلغ زاجر وراذع هو الزاجر القلبي . والواعظ النفسي .
واستشهد بقصة أبي العتاهية مع أبي نواس فقال : « قال أبو
العتاهية : لقيت أبا نواس في المسجد الجامع فعذلته وقلت له : أما
آن لك أن ترعوي وتنزجر فرفع رأسه الي وقال :

أتراني يا عتاهي تاركاً تلك الملاهي
أتراني مفسداً بالنس لك عند القوم جاهي

فلسا ألححت عليه في العذل أنشأ يقول :

لا ترجع الأنفس عن غيرها
ما لم يكن منها لها زاجر
يقول أبو العتاهية : فوددت أنني قلت هذا البيت بكل
شيء قلته »

الغاية من تأليف روضة المحبين :

ولما كانت غاية ابن القيم تغمده الله برحمته من وضعه
لكتابه روضة المحبين هو ارشاد النفوس الزكية لطرق السلامة
من عار الدنيا ونار الآخرة لم يفته أن يذكر ما أخرجه الامام أحمد
في مسنده من حديث عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه عن
النواس بن سمعان رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال : « ضرب الله مثلا صراطاً مستقيماً وعلى
جنبتي الصراط سوران . وفي السورين أبواب مفتحة ، وعلى
الابواب ستور مرخاة وعلى رأس الصراط داع يقول : يا أيها
الناس ادخلوا الصراط ولا تعرجوا . وداع يدعو فوق الصراط
فاذا أراد أحد فتح شيء من تلك الابواب قال : ويحك لا
تفتحه ، فإنك ان فتحت ولجته ، فالصراط الاسلام والستور
المرخاة حدود الله ، والابواب المفتحة محارم الله . والداعي
على رأس الصراط كتاب الله عز وجل . والداعي من فوق
الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم » ثم سرد بضعة
أحاديث وآثار في المعنى الى أن يقول : « وملاك الامر كله
الرغبة في الله وإرادة وجهه . والتقرب اليه بأنواع الوسائل
والشوق الى الوصول اليه والى لقائه . فإن لم يكن للعبد
همة الى ذلك ، فالرغبة في الجنة ونعيمها وما أعدده الله فيها

لأوليائه فان لم تكن له همة عالية تطالبه بذلك فخشية النار
وما أعدده الله فيها لمن عصاه ، فان لم تطاوعه نفسه بشيء
من ذلك فليعلم أنه خلق للجحيم لا للنعيم ، ولا يقدر على ذلك
[الا عبد قدر الله توفيقه] الا بسخافة هواه » ثم يورد
ما جاء في ذم متابعة الهوى من الآيات والحكم والآثار .

ثم تكلم على الرغبة في الله وأنها رأس مال العبد
فيقسم الراغبين ثلاثة أقسام : راغب في الله ، وراغب فيما عند الله .
وراغب عن الله ، فيقول : « فالمحب راغب فيه ، والعامل راغب فيما
عنده . والراضي بالدنيا من الآخرة راغب عنه . ومن كانت
رغبته في الله كفاه الله كل مهم وتولاه في جميع اموره . ودفع
عنه مالا يستطيع دفعه عن نفسه ، ووقاه وقاية الوليد ، وصانه
من جميع الآفات ، ومن أثر الله على غيره آثره الله على
غيره ، ومن كان لله كان الله له حيث لا يكون لنفسه .
ومن عرف الله لم يكن شيء احب اليه منه . ولم تبق له رغبة
فيما سواه الا فيما يقربه اليه ويعينه على سفره اليه » .
ثم ذكر المعرفة بالله وأنها تدعو الى حبه . ومن علاماتها
الهيية . وذكر حد المعرفة عند المتصوفة ، امثال الجنيد . ويحيى
ابن معاذ وابي سليمان الداراني وذو النون ، فمنها قول
بعضهم : « يخرج العارف من الدنيا ، ولا يقضي وطره من
شيئين بكاؤه على نفسه ، وشوقه الى ربه ، وقبول الآخر : « لا

يكون العارف عارفاً حتى لو أعطي ملك سليمان لم يشغله عن الله طرفة عين ، ، وقال : « العارف أنس بالله فاستوحش من غيره ، وافترق الى الله فاغناه الله عن خلقه ، وذلل لله . فأعزه الله في خلقه » ثم تكلم على المحبة وحدها في اصطلاح العارفين فيروي عن المحاسبي في حدها قوله : « المحبة ميلك الى الشيء بكليتك ثم إثارك له على نفسك وزوجك ومالك ، ثم موافقتك له سرا وجهرا » .

وينبأ نرى ابن القيم مسترسلا في ذكر المحبة عند أمثال الجنيد والمحاسبي وابن المبارك يتذكر موضوع كتابه وأنه وضعه لكل الطبقات ولربما تطرق الملل لنفس القارئ الذي لم يألف مثل هذا النوع من المطالعة فاستدراكا لذلك يروي هذه النكتة ، عن بعض الظرفاء ليوقظ من شعور القارئ وينبه افكاره فيقول : « يحكى ان رجلا ادعى الاستهلاك في محبة شخص فقال له : كيف وهذا أخي أحسن مني وجها وأتم جبالا ؟ فالتفت الرجل اليه فدفعه الشاب وقال : من يدعي هوانا ينظر الى سوانا ؟ » ثم يختم الفصل بقول سمنون : « ذهب المحبون بشرف الدنيا والآخرة ، ان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : المرء مع من احب ، فهم مع الله في الدنيا والآخرة » .

ثم لما كانت المحبة من لازم المعرفة ، وكان يتكلم على المعرفة

عند القوم رأى أن يتبعها بلازمها فقال : « المحبة شجرة في القلب عروقتها الذل للمحبوب ، وساقها معرفته ، وأغصانها خشيتها ، وورقها الحياء منه ، وثمرتها طاعته ، ومادتها التي تسقيها ذكره ، فستى خلا الحب عن شيء من ذلك كان ناقصا » . وهنا يفيض في الكلام كأنما يغرف من بحر ، فيشرح حديث أنس بن مالك عند البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال : « من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة . وما تقرب اليّ عبدي بشئ أداء ما اقترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به . ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فبني يسمع ، وبني يبصر ، وبني يبطش . وبني يمشي ، ولئن سألتني لأعطينه ولئن استعاذ بي لأعيذنه . وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه » ، فيعلق عليه بشرح لطيف ثم يورد بضعة احاديث صحاح في هذا المعنى كقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله اذا احب عبدا دعا جبريل فقال : إني أحب فلانا ، فأحبه ، قال : فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول : إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء قال : ثم يوضع له القبول في الارض . واذا أبغض عبدا دعا

جبريل فيقول : اني أبغض فلانا فأبغضه قال : فيبغضه جبريل
ثم ينادي في السماء ان الله يبغض فلانا فأبغضوه ثم يوضع له
البغضاء في الارض » •

قال : وجاء في الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه
أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة ، فقال : وما
اعددت لها ؟ قال لاشيء الا اني احب الله ورسوله فقال : انت
مع من احببت . قال انس رضي الله عنه فما فرحنا بشيء فرحنا
بقول النبي صلى الله عليه وسلم : أنت مع من أحببت . قال
انس : فأنا احب النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر
وارجو ان اكون معهم بحبي اياهم وان لم اعمل اعمالهم ، « ثم
ذكر ماورد في المتحابين في الله وانهم يوم القيامة على منابر من
نور يغيطهم الانبياء والشهداء •

ثم يتكلم على ثمره المحبة فيقول : ولو لم يكن في محبة
الله الا أنها تنجي محبه من عذابه ، لكان ينبغي للعبد أن لا
يتعرض عنها بشيء أبداً • لو سئل عبد الله بن عباس : أين نجد
في القرآن ان الحبيب لا يعذب حبيبه ؟ فقال : في قوله : وقالت
اليهود والنصارى نحن ابناء الله واحباؤه ، قل فلم يعذبكم
بذنوبكم » •

ولهذا كان من افضل ما سئل الله عز وجل حبه . وحب من يحبه . وحب عمل يقرب الى حبه . ومن اجمع ذلك أن يقول : اللهم اني اسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربني الى حبك اللهم ما رزقتني مما احب فاجعله قوة لي فيما تحب وما زويت عني مما احب فاجعله فراغا لي فيما تحب . اللهم اجعل حبك أحب الي من اهلي ومالي ومن الماء البارد على الظأ . اللهم حبيبي اليك والى ملائكتك وأنبيائك ورسلك وعبادك الصالحين . واجعلني من يحبك ويحب ملائكتك وأنبياءك ورسلك وعبادك الصالحين . اللهم احى قلبي بحبك واجعلني لك كما تحب . اللهم اجعلني احبك بقلبي كله . وأرضيك بجهدي كله اللهم اجعل حبي كله لك وسعيي كله في مرضاتك .

ثم يروي حديث « ان الله جميل يحب الجمال » ويتكلم على جمال الله عزو جل . وأنه لا يستطيع بشر النظر الى جلاله وجماله . في هذه الدار ثم يروي حديث جابر بن عبد الله عند ابن ماجه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بينا أهل الجنة في نعيمهم اذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فاذا الرب قد أشرف عليهم من فوقهم فيقول : السلام عليكم يا أهل الجنة ، وذلك قوله | سلام قولاً من رب رحيم [فيرفعون رؤوسهم فينظرون اليه ، وينظر اليهم ، ولا يلتفتون الى شيء من النعيم حتى

يحتجب عنهم فيبقى نوره وبركته عليهم وعلى ديارهم ومنازلهم» :
ثم ذكر حديث علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في زيارة أهل
الجنة ربهم وفيه « فعند ذلك ينظرون الى وجه رب العالمين ،
فيقولون حين ينظرون الى وجهه : سبحانك ما عبدناك حق
عبادتك ، فيقول : كرامتي امكنتكم من النظر الى وجهي ،
وأحللتكم داري ، فيأذن الله للجنة أن تكلمي فتقول : طوبى لمن
سكنني ، وطوبى لمن يخلد في ، وطوبى لمن أعددت له ، وذلك قوله
تعالى : (طوبى لهم وحسن مآب) وقوله تعالى : (وجوه يومئذ
ناصرة الى ربها ناظرة) •

ثم على ذكر رؤية الله عز وجل يسرد ما ورد في هذا
الموضوع من الاحاديث الصحيحة ردا على منكري الرؤية في
الآخرة ، ثم يذكر نعيم الجنة وما أعد الله فيها لأحبابه ويذكر
ما رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه في بعض نعيمها
وفيه •• فتأتي سوقا قد حفت به الملائكة ، فيه مالم تنظر العيون
الى مثله ، ولم تسمع الأذان ولم يخطر على القلوب ، فيحمل الينا
ما اشتهينا ليس يباع فيها شيء ولا يشتري ، وفي ذلك السوق
يلقى أهل الجنة بعضهم بعضا ، فيقبل الرجل ذو المنزلة الرفيعة
فيلقى من هو دونه وما فيهم شيء فيروعه ما يرى عليه من اللباس
فما ينقضي آخر حديثه حتى يتمثل عليه أحسن منه ، وذلك انه

لا ينبغي لاحد ان يحزن فيها ، وبعد أن يشوق القارىء الى ذلك
النعيم يقول :

يا من شكى شوقه من طول فرقه
اصبر لعلك تلقى من تحب غدا
وسر اليه بنار الشوق مجتهدا
عساك تلقى على نار الغرام هدى

ثم يعقد فصلا يخاطب فيه أولئك الذين لم تصل كلماته
الى اعماق قلوبهم فيقول : فان تقاصرت همتك الدنية عن ترك
الفواحش محبة لهذا المحبوب الاعلى ولست هناك . فاتركه
محبة للنساء اللاتي وصفهن الله في كتابه . وبعث رسوله
داعيا الى وصالهن في جنة المأوى . وقد تقدم ذكر بعض صفاتهن
ولذة وصالهن ، فان تقاصرت همتك عنهن ولم تكن كفاء
لخطبتن ، ودعتك نفسك الى ايشار ما هاهنا ، فكن من
عقوبته العاجلة والآجلة على حذر .

ثم يتكلم على العقوبات وأنها تختلف « فتارة تعجل ، وتارة
تؤجل . وتارة يجع الله على العاصي بينهما ، وأشد العقوبات
العقوبة بسلب الايمان ، ودونها العقوبة بموت القلب ، ومحو
لذة الذكر والقراءة والدعاء والمناجاة ، وربما دبت عقوبة القلب

فيه ديب الظلمة الى ان يتلى القلب بها فتعمى البصيرة ، وأهون العقوبة ما كان واقعا بالبدن في الدنيا ، وأهون منه ما وقع بالمال ، وربما كانت عقوبة النظر في البصيرة ، أو في البصر أو فيهما » .

ثم يختم الفصل بهذين البيتين :

تفنى اللذذة من نال صفوتها

من الحرام ويبقى للإثم والعار

تبقى عواقب سوء في مغبتها

لا خير في لذة من بعدها النار

فصل مهم في أن الجزاء من جنس العمل :

ثم قال : ان من ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه . واستدل على قوله بحجج دامغة وشواهد صادقة ، منها قصة يوسف الصديق عليه السلام ، وأنه لما اختار السجن على الفاحشة عوضه الله أن مكنه من ملك مصر يتبوا منها حيث يشاء ، وأتته المرأة صاغرة معترفة بجريرتها وبراءته ، وان سليمان عليه السلام لما عقر الخيل ^(١) التي شغلته عن الصلاة عوضه الله الريح غدوها شهر ورواحها شهر يسير على متنها حيث اراد ، وان المهاجرين تركوا اوطانهم وديارهم لله فأعاضهم الله عنها ان فتح عليهم

(١) لم يصح العقر عن سيدنا سليمان ، وانما مسح اعرافها واكفاله إكراما لها واعجابا بها ، وكيف يعقرها ، وفي ذلك اتلاف للمال ، ومعاقبة من لا ذنب له .

الدنيا . ومصدق هذا قول سيدنا رسول الله صلى عليه وسلم : النظر سهم من سهام إبليس مسموم من تركه خوف الله . أثابه الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه . وقوله عليه الصلاة والسلام : من قدر على امرأة أو جارية فتركها مخافة من الله أمنه الله يوم الفزع الأكبر . وحرمه على النار ، وأدخله الجنة . وذكر عن مالك بن ديثار أنه قال : جنات النعيم بين الفردوس وجنات عدن . فيها جوار خلقهن من ورد الجنة يسكنها الذين هسوا بالمعاصي فلما ذكروا الله عز وجل راقبوه فأنشئت رقابهم من خشية الله عز وجل ، وذكر في الباب خمسة عشر قصة شاهدة بذلك نذكر منها بعضها قال : « قال أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله تعالى : بلغني عن بعض الأشراف أنه اجتاز بسقبرة فإذا جارية حسناء عليها ثياب سواد فنظر إليها فعلمت بقلبه فكتب إليها :

قد كنت أحسب أن الشمس واحدة
والبدر في منظر بالحسن موصوف
حتى رأيتك في أثواب ثاكلة
سود وصدغك فوق الخد معطوف
فرحت والقلب مني هائم دنف
والكبد حرى ودمع العين مذروف

ردي الجواب ففيه الشكر واغتني
وصل المحب الذي بالحب مشغوف

ورمى بالرقعة اليها فلما قرأتها كتبت :

ان كنت ذا حسب زاكٍ وذا نسب
ان الشريف بغض الطرف معروف

ان الزناة أناس لا خلاق لهم
فاعلم بأنك يوم الدين موقوف

واقطع رجاك لحاك الله من رجل
فان قلبي عن الفحشاء مصروف

فلما قرأ الرقعة زجر نفسه وقال : اليس امرأة تكون اشجع
منك .

وقال الحسن بن زيد : ولينا بسصر رجل فوجد على بعض
عماه فحبه وقيدده . فأشرفت عليه ابنة الوالي فهويته فكتبت
اليه :

ايها الرامي بعيني
ه وفي الطرف الحثوف

ان ترد وصلا فقد
امكنك الطيبي الألوف

فأجابها الفتى :

ان قريني زائسي العيـ
نين فالفرج عفيف
ليس إلا النظرُ الفـ
تـر والشعر الطريف

فأجابته :

قد اردناك فالفـ
ناك انسانا عفيفا
فتأيت فلا زلـ
ت لقيديك حليفا

فأجابها :

ما تأيت لاني
كنت للظي عيـوفا
غير أنني خفت ربا
كان بي برأ لطيفا

فذاع الشعر وبلغت القصة النوالي فدعا به وزوجه اياها
ودفعها اليه ، وروي عن أبي الفرج أيضا عن رجل من بعض
المياسير قال بينا أنا يوما في منزلي اذ دخل علي خادم لي وقال لي :

رجل بالباب معه كتاب ، فقلت أدخله أو خذ كتابه . فأخذ الكتاب
منه فإذا فيه :

تجنبك الردى ولقيت خيرا
وسلك المليك من الغموم
شكون بنات احشائي اليكم
وما إن تشكين الى ظلوم
وسالتي الكتاب اليك فيا
يخامرها - فدتك - من الهوم
وهن يقلن يا ابن الجود انا
برمنا من مراعاة النجوم
وعندك لومنت شفاء سقم
لأعضاء دمين من الكلوم

فلما قرأت الايات . قلت : عاشق ، فقلت للخادم : ادخله
فخرج فلم يره . فارتبت في امره . فجعل الفكر يتردد في قلبي ،
فدعوت جواري كلهن ، فجسعتهن فقلت لهن : ما قصة هذا الكتاب
فحلقن لي وقلن : يا سيدنا ما نعرف لهذا الكتاب سببا ، فمن
جاءك به ؟ فقلت : قد فاتني . وما أردت سؤالكن الا أني ظننت له
هوى في بعضكن . فسن عرفت منكن انها صاحبه فهي له
فلتذهب اليه ولتأخذ كتابي اليه وكتبت كتابا اشكره على

فعله وأسأله عن حاله ووضعت الكتاب في موضع من الدار
فمكث الكتاب في موضعه اياما لا يأخذه احد ولا أرى الرجل
فاغتممت غما شديدا ثم قلت لعله بعض فتياننا ثم قلت : ان هذا
الفتى قد اخبر عن نفسه بالورع وقد قنع ممن يحبه بالنظر فدبرت
عليه ، فحجبت جوارى عن الخروج فما كان الا يوم وبعض
الآخر اذ دخل علي الخادم ومعه كتاب قال : ارسل به اليك
فلان وذكر بعض اصدقائي ففضضته فاذا فيه مكتوب :

ماذا اردت الى روح معلقة
عند التراقي وحادي الموت يحدوها
حشت حاديها ظلما فجذبها
في السير حتى تولت عن تراقيها
حجبت من كان تحيى عند رؤيتها
روحي ومن كان يشفيني ترائيها
فالنفس تجنح نحو الظلم جاهلة
والقلب مني سليم ما يواتيها
والله لو قيل لي تأتي بفاحشة
وإن عقباك ديانا وما فيها
لقلت لا والذي اخشى عقوبته
ولا بأضعافها ما كنت آتيها

لولا الحياء لبخنا بالذي كنت

بنت الفؤاد وابدينا تسنيها

قال : فبهت وقلت : لا ادري ما أحتال في امر هذا الرجل

وقلت للخادم : لا يأتيك أحد بكتاب الا قبضت عليه حتى
تدخله علي ، ثم لم اعرف له خبرا بعد ذلك . فبينما انا أضوف
بالكعبة اذ فتى قدا قبل نحوي وجعل يطوف الى جنبي ويلاحظني
وقد صار مثل العود . فلما قضيت طوافي خرجت واتبعني فقال :
يا هذا أتعرفني ؟ قلت : لا انكرك اسوء قال : انا صاحب
الكتابين ، فما تسالكت أن قبأت رأسه وبين عينيه وقلت : بأبي أنت
وأمي والله لقد شغلت قلبي وأملت غصي بشدة كتسانك لامرك
فهل لك فيما سألت وطلبت ؟ قال بارك الله لك وأقر عينيك
انما أتيتك أستحلحك من نظرة كنت نظرتها على غير حكم الكتاب
والسنة ، والهوى داع الى كل بلاء واستغفر الله العظيم
فقلت يا حبيبي احب أن تصير معي الى منزلي فأنس بك وتجري
الحرمة بيني وبينك قال : ليس الى ذلك سبيل . فقلت : غفر
الله ذنبك وقد وهبتها لك ومعها مائة دينار . ولك في كل سنة
كذا وكذا . قال : بارك الله لك فيها ، فلولا عهود عاهدت
الله عليها . وأشياء أكدها علي لم يكن في الدنيا شيء أحب الي من

هذا الذي تعرضه علي ولكن ليس الى ذلك سبيل والدنيا
منقطعة . فقلت له : فاذا آيت أن تقبل مني ذلك فاخبرني من
هي حتى اكرمها لاجلك ما بقيت ، فقال : ما كنت لاذكرها لاحد
ثم قام وتركني » .

وروى حكاية المبرد عن شيخه ابي عثمان المازني قال :
« قصده بعض اهل الذمة ليقرا عليه كتاب سيويه وبذل له
مائة دينار فامتنع ورده ، فقلت له : أترد هذا القدر مع شدة
فاقتك ؟ فقال ان هذا الكتاب يشتمل على ثلاثمائة وكذا وكذا
آية من كتاب الله ولست أرى تمكين هذا الذمي منها غير
على القرآن . فاتفق ان غنت جارية بحضرة الواثق بقول
العرجي :

أظلوهم ان مصابكم رجلا

أهدى السلام تحية ظلم

فاختلف أهل مجلسه في اعراب رجل فمنهم من قال : هو
نصب وجعله اسم ان ومنهم من رفعه على أنه خبرها والجارية
اصرت على النصب وقالت لقني اياه كذلك شيخني ابو عثمان
المازني . فأمر الواثق بإحضاره الى بين يديه قال : فلما مثلت بين
بديه قال من الرجل ؟ قلت من بني مازن ، قال أي الموازن ؟

امازن تسيم ام مازن قيس ام مازن ربيعة ؟ قلت من مازن ربيعة .
فكلسني بكلام قومي ، فقال لي : يا اسك ، وقومي يقلبون الميم
باء والباء ميسا ، فكرهت ان اواجهه بلفظة (مكر) فقلت : بكر
يا امير المؤمنين . ففطن لما قصدته وأعجب به فقال : ما تقول
في قول الشاعر :

اظلوم ان مصابكم رجلا
اهدى السلام تحية ظلم

اترفع رجلا ام تنصبه ؟ فقلت : الوجه النصب يا امير
المؤمنين فقال : ولم ذلك ؟ فقلت : لان مصابكم مصدر بمعنى
إصابتكم ، فأخذ اليزيدي في معارضتي فقلت : هو بوزلة قولك
« ان ضربك زيدا ظلم » فرجلا مفعول مصابكم ومنسوب به ،
والدليل عليه أن الكلام معلق الى أن تقول : ظلم فيتم فاستحسنه
الواثق وقال : هل لك من ولد قلت نعم يا أمير المؤمنين ، بنية
قال : فما قالت لك عند مسيرك اليها قلت : أنشدت قول
الاعشى :

يا أبتا لا ترم عندنا
فانا بخير اذا لم ترم

ترانا اذا اضرتك البلا
د. نجفى وتقطع منا الرحم

قال فما قلت لها ؟ قال : قلت قول جرير :

ثقي بالله ليس له شريك

ومن عند الخليفة بالنجاح

فقال : علي النجاح ان شاء الله ، ثم أمر لي بألف دينار .
وردني الى البصرة مكرما . فلما عاد الى البصرة قال لي : كيف
رأيت يا أبا العباس ؟ ردونا لله مائة دينار فعوضنا الله ألفاً » .

وفيسن آثر عاجل العقوبة والآلام على لذة الوصال
الحرام قال :

« هذا باب انسا يدخل منه رجلان : أحدهما : من تسكن من
قلبه الايسان بالآخرة . وما اعد الله فيها من الثواب والعقاب
لمن عصاه فأثر أدنى القوتين . واختار أسهل العقوبتين . والثاني :
رجل غلب عقله على هواه فعلم ما في الفاحشة من المفاسد وما في
العدول عنها من المصالح فأثر الاعلى على الادنى ... وقد
جرت سنة الله في خلقه أن من آثر الالم العاجل على الوصال
الحرام اعقبه ذلك في الدنيا المسرة التامة » .

ثم ذكر ثلاث حكايات عن بعض عباد بني اسرائيل ، وأنهم
آثروا الالم العاجل على لذة الدنيا ففازوا بالنعيم ، وروى عن
جابر بن روح قال : كنت بالمدينة جالسا عند رجل في حاجة فمر

بنا شيخ حسن الوجه حسن الثياب ، فقام اليه ذلك الرجل ، فسلم عليه وقال : يا ابا محمد أسأل الله ان يعظم أجرك وأن يربط على قلبك بالصبر فقال الشيخ :

وكان يميني في الوغى ومساعدتي

فأصبحت قد خانت يسيني ذراعها

وقد صرت حيراناً من الشكل باهتاً ،

أخا كلف ضاقت علي رباعها

فقال له الرجل : أبشر فان الصبر معول المؤمن ، واني لأرجو أن لا يحرمك الله الأجر على مصيبتك ، فقلت له : من هذا الشيخ ؟ فقال : رجل منا من الانصار فقلت وما قصته ؟ قال : أصيب بابنه وكان به باراً ، قد كفاه جميع مايعنيه ومنيته عجب ، قلت : وما كانت ؟ قال : أحبته امرأة فارسلت اليه تشكو حبه وتسأله الزيارة، وكان لها زوج فألحت عليه فأفشى ذلك الى صديق له فقال له : لو بعثت اليها بعض اهلك فوعظتها وزجرتها رجوت ان تكف عنك : فأمسك وارسلت اليه : اما ان تزورني واما ان أزورك فأبى فلما يئست منه ذهبت الى امرأة كانت تعمل السحر فجعلت لها الرغائب في تهيجه، فعملت لها في ذلك، فبينما هو ذات ليلة مع ابيه اذ خطر ذكرها بقلبه وهاج منه امر لم يكن يعرفه ،

واختلط ، فقام مسرعاً فصلى واستعاذ والامر يشتد فقال : يا أبة
ادركني بقيد فقال : يا بني ما قصتك ؟ فحدثه بالقصة ، فقام وقيد
وأدخله بيتاً . فجعل يضطرب ويخور كما يخور الثور ثم هدأ
فاذا هو ميت والدم يسيل من منخره .

خاتمة الكتاب في ذم الهوى :

ثم ختم الكتاب في ذم الهوى وبين ما في مخالفته من نيل
المنى . فعرف الهوى أولاً ، ثم بين ما يذم منه وما لا يذم . وبين
أسباب قوته وضعفه ، وسرد في موضوع ذم الهوى وأثره وعلاجه
خمسین وجهاً وكيفية التغلب عليه ، فاذا ما استعمل المرء أحدها
غلب هواه وفاز بخيري الدنيا والآخرة . وكنت عزمت على
تلخيصها ولكني بعد الإمعان وجدتها في الذروة العليا من البلاغة
وربما كان في تلخيصها خلل مخل واضاعة للمعنى المراد ، اذ لم
يخرج منها وجه عن مطابقة مقتضى الحال فأثبت بعضها لجزالة
فائدتها وقد اخترت من الخمسين وجهاً ما كان أصلاً لغيره
وتركت ما كان فرعاً عن غيره . قال رحمه الله : « الهوى ميل
الطبع الى ما يلائمه . وهذا الميل خلق في الانسان اضرورة
بقائه . فإنه لولا ميله الى المطعم والمشرب والمنكح . ما أكل
ولا شرب ولا نكح ، فالهوى مستحث لما يريده . كما أن

الغضب دافع عنه ما يؤذيه . فلا ينبغي ذم الهوى مطلقا ولا مدحه مطلقا . وإنما يذم المفرط من النوعين . وهو ما زاد على جلب المنافع ودفع المضار . ولما كان الغالب من مطيع هواه وشهوته وغضبه أنه لا يقف فيه على حد المنتفع به اطلق ذم الهوى والشهوة والغضب لعموم غلبة الضرر لأنه ينذر من يقصد العدل في ذلك ، ويقف عنده ، كما انه ينذر في الامزجة المزاج المعتدل من كل وجه . بل لا بد من غلبة أحد الاخلاط ، والكيفيات عليه ، فحرص الناصح على تعديل قوى الشهوة والغضب من كل وجه كحرص الطبيب على تعديل المزاج من كل وجه . وهذا يتعذر وجوده الا في حق أفراد من العالم . فلذلك لم يذكر الله تعالى الهوى في كتابه إلا ذمه وكذلك في السنة لم يجيء إلا مذموماً . إلا ما جاء منه مقيدا : كقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » . وقد قيل : الهوى كسين لا يؤمن . قال الشعبي : وسبي هوى ، لأنه يهري بصاحبه . ومطلقه يدعو الى اللذة الحاضرة من غير فكر في العاقبة . ويحث على نيل الشهوات عاجلا ، وإن كان سبباً لأعظم الآلام عاجلا وآجلا . فللدنيا عاقبة قبل عاقبة الآخرة والهوى يعني صاحبه عن ملاحظتها ، والمروءة والدين والعقل ينهى عن لذة تعقب ألماً وشهوة تورث نداماً . فكل منها يقول للنفس إذا أرادت ذلك لا تفعلي والطاعة لمن غلب . ألا ترى

أن الطفل يؤثر ما يهواه وإن أدّاه الى التلف لضعف ناهي العقل عنده . ومن لا دين له يؤثر ما يهواه وإن أدّاه الى هلاكه في الآخرة لضعف ناهي المروءة ، فأين هذا من قول الشافعي رحمه الله تعالى : لو علمت أن الماء البارد يثلم مروءتي لما شربته » .

« ولما امتحن المكلف بالهوى من بين سائر البهائم . وكان كل وقت تحدث له حوادث جعل فيه حاكمان . حاكم العقل وحاكم الدين وأمران يرفع حوادث الهوى لهذين الحاكمين وان ينقاد لحكهما . وينبغي أن يتمرن على دفع الهوى المأمون العواقب لיתمرن بذلك على ترك ما تؤذي عواقبه . وليعلم اللبيب أن مدمني الشهوات يصيرون الى حالة لا يلتذون بها . وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها لأنها قد صارت عندهم بمنزلة العيش الذي لا بد لهم منه . ولهذا ترى مدمن الخمر لا يلتذ به عشر معشار التذاذ من يفعله نادرا في الاحيان . غير أن العادة مقتضية ذلك فيلتقي نفسه في المهالك لئلا ما تطلبه به العادة . ولو زال عنه رين الهوى لعلم أنه قد نقي من حيث قدر السعادة ، واغتم من حيث قدر الفرح . وألم من حيث أراد اللذة فهو كالطائر المخدوع بحبة القمح . لا هو نال الحبة ولا هو تخلص مما هو فيه .

فصل في كيفية التخلص من الهوى :

فان قيل كيف يتخلص من هذا من وقع فيه . قيل : يمكنه التخلص
بعون الله وتوفيقه له بأمور :

- ١ - عزيمة حر يغار لنفسه وعليها .
- ٢ - جرعة صبر يصبر نفسه على مرارتها تلك الساعة .
- ٣ - قوة نفس تشجعه على شرب تلك الجرعة .
- ٤ - ملاحظته حسن موقع العاقبة .
- ٥ - ملاحظته الألم الزائد على لذة طاعة هواه .
- ٦ - ابقاؤه على منزلته عند الله تعالى وفي قلوب عباده .
- ٧ - ايثاره لذة العفة وعزتها وحلاوتها على لذة المعصية .
- ٨ - التفكير في أنه لم يخلق للهوى وإنما هيء لأمر عظيم .

٩ - أن لا يختار لنفسه أن يكون الحيوان البهيم أحسن منه حالا . فان الحيوان يميز بطبعه بين مواقع ما يضره وما ينفعه فيؤثر النافع على الضار . والانسان أعطي العقل لهذا المعنى فاذا لم يميز به ما يضره وما ينفعه أو عرف ذلك وآثر ما يضره كان الحيوان البهيم أحسن منه .

١٠ - أن يألف لنفسه من ذل طاعة الهوى . فانه ما أطاع أحد هواه قط إلا وجد في نفسه ذلا .

١١ — أن يوازن بين سلامة الدين والعرض والمال والجاه .
وبين نيل اللذة المطلوبة فانه لا يجد بينهما نسبة البتة .

١٢ — أن يعلم أن الهوى ما خالط شيئاً إلا أفسده فان وقع في العلم أخرجه الى البدعة والضلالة وصار صاحبه من جملة أهل الالهواء . وإن وقع في الزهد أخرج صاحبه الى الرياء ومخالفة السنة ، وإن وقع في الحكم أخرج صاحبه الى الظلم وهكذا ما خالط شيئاً إلا أفسده .

١٣ — أن يعلم أن أغزر الناس مروءة أشدهم مخالفة لهواه .

١٤ — أن يعلم أن من نصر هواه فسد عليه عقله ورأيه لأنه خان الله في عقله فأفسده عليه وهذا شأنه سبحانه وتعالى في كل من خانه في أمر من الامور فانه يفسده عليه .

أقول : لما كان ابن القيم رحمه الله يعلم أن النفوس ليست كلها تصبر على مثل هذا الاستقصاء ، ولربما طرأ على بعضها ملل ، أدمج في ثنايا الموضوع خبراً صغيراً فيه بعض الطرافة تنبيهاً للأعصاب وإيقاظاً للشعور فقال في الوجه الثامن والثلاثين عند الكلام على مغالبة الهوى وأن الشجاع من يغلب هواه : « دخل خلف بن خليفة على سليمان بن حبيب بن المهلب وعنده جارية يقال لها البدر من أحسن الناس وجهاً فقال له سليمان : كيف ترى هذه الجارية فقال : أصلح الله الأمير ما رأيت عيناى

أحسن منها قط ، فقال له خذ بيدها فقال : ما كنت لأفجع الأمير بها
وقد رأيت شدة عجبه بها ، فقال ويحك خذها على شدة عجبي
بها ليعلم هواي اني له غالب ، فأخذ بيدها وخرج وهو يقول :

لقد جاني وأعطاني وفضلني
عن غير مسألة منه سليمان
أعطاني البدر خوداً في محاسنها
والبدر لم يعطه إنس ولا جان
ولست يوماً بناس فضله أبداً
حتى يغيني لحد وأكفان

ثم قال :

١٥ - « أن يعلم أن لكل عبد بداية ونهاية فمن
كانت بدايته اتباع الهوى كانت نهايته الذل والصغار والحرمان
والبلاء المتبوع بحسب ما اتبع هواه بل يصير له ذلك في نهايته
عذاباً يعذب به قلبه كما قيل :

مآرب كانت في الشباب لأهلها
عذاباً فصارت في المشيب عذاباً

١٦ - أن يعلم أن الهوى رق في القلب وغل في العنق
من خالفه عتق من رقه وصار حراً كما قيل :

رُبَّ مستور سبته شهوة
فتعري ستره فانهتكا

صاحب الشهوة عبد فإذا

غلب الشهوة أضحي ملكا

وختم الكتاب بالحديث الصحيح : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل . وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه . ورجلان تحابا في الله فاجتمعا على ذلك وافترقا عليه . ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله رب العالمين ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » (١) .

فقال : إنك إذا تأملت السبعة الذين يظلهم الله عز وجل في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله وجدتهم إنما قالوا ذلك الظل بسخايفة الهوى ، فالإمام المسلط القادر لا يتسكن من العدل إلا بسخايفته هو . والشاب المؤثر لعبادة الله على داعي شبابه لو لا مخالفة هو . لم يقدر على ذلك . والرجل الذي قلبه معلق بالمسجد إنما حمله على ذلك مخالفة الهوى الداعي له إلى أماكن اللذات ، والمتصدق المخفي لصدقته عن شماله ، لو لا قهره لهواه لم يقدر على ذلك ، والذي دعت المرأة الجميلة

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد ومالك عن أبي هريرة رضي الله عنه .

الشريفة فخاف الله عز وجل وخالف هواه ، والذي ذكر الله عز وجل خاليا ففاضت عيناه من خشيته إنما أوصله الى ذلك مخالفة هواه ، فلم يكن لحز الموقف وعرقه وشدته سبيل عليهم يوم القيامة . وأصحاب الهوى قد بلغ منهم الحر والعرق كل مبلغ وهم بعد ذلك ينتظرون دخول سجن الهوى فالله سبحانه وتعالى المسؤول أن يعيذنا من أهواء أنفسنا الامارة بالسوء ، وأن يجعل هوانا تبعا لما يحبه ويرضاه إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير .

فصل في ما امتاز كتاب الروضة عن الطوق :

وبعد فلقد أطلنا جداً في المقارنة بين الكتابين : طوق الحمامة للامام ابن حزم ، وروضة المحبين للامام ابن القيم ، وخرج بنا الكلام من المقارنة الى دراسة روضة المحبين ، وبتعبير آخر الى اختصاره . ولكن هذه الاطالة دليل ساطع على أن روضة المحبين يستاز عن الطوق بميزات ، وان الامام ابن القيم يعد بحق في الادباء المحبين لأسمى أنواع الحب وهو الحب الإلهي . فروضة المحبين يستاز عن الطوق بميزات منها :

١ - بعده عن فلسفة الحب ، والحب في رأي ابن القيم أمر عاطفي وجداني لا مجال للفلسفة فيه .

٢ - استدراج القارىء من ذكر الحب الشهواني الوضيع
إلى الحب الإلهي الرفيع .

٣ - الروح الدينية المهيمنة على صفحاته .

٤ - ارتباطه الوثيق بروح القارىء وعقله ، مما كانت درجة
ثقافته .

٥ - تضمينه أخبار المحبين ونواديرهم المناسبة لكل باب .

٦ - تضمينه الشيء الكثير من غور الشعر في كل فنون الحب

٧ - الترغيب بعشق مكارم الأخلاق .

٨ - وصف الجنة ونعيمها ، والجنات العنيدة ولذة وصالهن

وأن هذا أولى بالحب والسعي إليه .

٩ - حسن انشائه وفصاحته أسلوبه .

فهذا ما حدا بي عند الكلام على روضة المحبين . ونحن
لو اردنا دراسة الطوق دراسة عميقة كما فعلنا في الروضة ،
لما استطعنا الا بعد صبر طويل وعناء شديد . ولتسرب الملل
لنفس الكاتب قبل القارىء .

أما من أراد النزهة في هذه الروضة الأنثى فلا بد وأن
يخرج منها بفائدة بل فوائد جمة ، فشله كمن يدخل روضة
عناء إن فاته جني الثمار وقطف الأزهار لم يفته متعة البصر

وترويح النفس بمنظرها الجميل وهوائها العليل واستنشاق
أريجها العطر •

ثم لا يسعنا وقد ألمنا بهذا السفر النفيس الا أن ندع
لمؤلفه الامام ابن القيم بأنه من رجال الادب العظيم هذا بالاضافة
لأرفع الالقاب التي استحقها بجدارته في حياته وبعد مماته ،
كمشيخة الاسلام ، وعلم الاعلام ، تغمدہ اللہ برحمته
ورضوانه •



البشارة بالربيع

جَوَانِبُ مِنْ شَخْصِيَّةِ الْإِمَامِ
مِنْ مَدَارِ بَعْضِ كِتَابِهِ

ابن القيم وكتابه « الروح » :

ان خير ما نستهل به الكلام عن الامام ابن القيم وكتابه « الروح » هو ما ذكره سيد قطب رحمه الله : في ظلال القرآن عند الكلام على قوله تعالى :

(ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) فقد جلا المعنى أتم جلاء ، وأوضحه بعبارة سهلة خالية من تعقيدات الفلاسفة وسفسطة الخراصين الذين حاولوا كشف سر استأثر خالقه به دون جميع المخلوقين فعادوا يتعشرون بأذيال الخيبة ، ويرجمون بالغيب •

فسيد قطب رحمه الله جلا المعنى وجبره بلسان الشرع والعقل والحس ولم يخرج من دائرة (قل الروح من أمر ربي) •

ونحن نورد ما حبره قلمه ليرتسم في ذهن القارئ صورة حية مظلمة بظلال الشرع عن الروح ، حتى اذا ما قارن القارئ بين ما كتبه الفلاسفة الأقدمون والمحدثون عن الروح ، وما

كتبه ابن القيم في كتابه الروح تجلى له طول باع ابن القيم في الموضوع وأن ما كان يهدف اليه من وراء ذلك هو هداية السارين الحيارى الى غاية هي آسى ، وحقيقة مثلى ، وذلك بأن يجعل المرء دنياه مسرا لآخرته التي هي الحياة الحقيقية لا ما يتستع به في دنياه من ظل زائل وعرض حائل ، وسنعرف حقيقة ذلك عندما نقرأ بإمعان ما ننقله لك من كتابه « الروح »

قال سيد قطب رحمه الله :

وراح بعضهم يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم - عن الروح ما هو ؟ والمنهج الذي سار عليه القرآن - وهو المنهج الاقوم - أن يجيب الناس عما هم في حاجة اليه ، وما يستطيع ادراكهم البشري بلوغه ومعرفته ، فلا يبدد الطاقة العقلية التي وهبها الله لهم فيما لا ينتج ولا يشر ، وفي مجالها الذي تملك وسائله وتحيط به . فلما سألوه عن الروح أمره الله بأن يحييهم بأن الروح من أمر الله ، اختص بعلمه دون سواه .

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ^(١) وليس في هذا حجر على العقل البشري أن يعمل ، ولكن فيه توجيها لهذا العقل أن يعمل في

(١) الاسراء : ٨٤ .

حدوده وفي مجاله الذي يدركه ، فلا جدوى من الخبط في
التيه ، ومن اتفاق الطاقة فيما لا يملك العقل ادراكه لانه
لا يسلك وسائل ادراكه ، والروح غيب من غيب الله لا
يدركه سواه ، وسر من أسراره القدسية أودعه هذا المخلوق
البشري وبعض الخلائق التي لانعلم حقيقتها ، وعلم الانسان
محدود بالقياس الى علم الله المطلق وأسرار هذا الوجود
أوسع من أن يحيط بها العقل البشري المحدود ، والانسان لا
يدبر هذا الكون فطاقاته ليست شاملة ، انما وهب منها بقدر
محيطه وبقدر حاجته ليقوم بالخلافة في الارض ، ويحقق فيها
ما شاء الله أن يحققه في حدود علمه القليل .

ولقد أبدع الانسان في هذه الارض ما أبدع ، ولكنه
وقف حسيراً أما ذلك السر اللطيف - الروح - لا يدري
ما هو . ولا كيف جاء ، ولا كيف يذهب ، ولا أين كان ، ولا
أين يكون ، إلا ما يخبر به العليم الخبير في التنزيل (١) .

ونحن مع هذا نورد ما ذكره العلماء قديماً وحديثاً عن
الروح . وأنهم لم يتفقوا على تعريف لها ، فضلاً عن ادراك
كنها ليشبث لدينا ما ذكره سيد قطب تغمدہ الله برحمته ورضوانه
من أنها سر من أسرار الله تعالى الذي استأثر بعلمه .
جاء في محاسن التأويل للمرحوم الشيخ جمال القاسمي

(١) في ظلال القرآن ج ١٥ ص ٦٥ .

في تفسير قوله تعالى « ويسألونك عن الروح » قال القاشاني :
 أي الذي يحيا به بدن الانسان ويدبره ، « قل الروح من أمر
 ربي » أي ليس من عالم الخلق حتى يمكن تعريفه للظاهرين
 البدنيين الذين لا يتجاوز ادراكهم الحس والمحسوس بالتشبيه
 ببعض ما شعروا به ، بل من عالم الأمر أي الابداع الذي هو
 عالم الذوات المجردة عن الهولى . والجواهر ، المقدسة عن
 الشكل واللون والجهة والأين ، فلا يمكنكم ادراكه أيها
 المحجوبون بالكون لقصور ادراككم وعلمكم عنه « وما
 أوتيتم من العلم إلا قليلا » هو علم المحسوسات ، وذلك شيء
 نزر يسير بالنسبة الى علم الله تعالى والراسخين في العلم —
 هذا ما قاله القاشاني —

وقال الشهاب : والسؤال — على هذا — عن حقيقتها .
 والجواب اجمالي بأنها من المبدعات من غير مادة ، ولذا قيل :
 إنه من الاسلوب الحكيم . كما في قوله : « يسألونك عن
 الأهله » إشارة الى أن حقيقتها لا تعلم [آنذاك] وانما
 يعلم منها هذا المقدار .

وقال ابو السعود عليه الرحمة : وليس هذا من قبيل
 قوله سبحانه : « إنما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون »
 فإن ذلك عبارة عن سرعة التكوين ، سواء أكان الكائن من

عالم الأمر أو من عالم الخلق • بل إنه من الابداعات الكائنة
بمحض الأمر التكويني من غير تحصل مادة • وحكى عليه
الرحمة قولاً آخر وهو : أن الأمر بمعنى الشأن قال : والإضافة
للاختصاص العلمي لا الابدادي لاشتراك الكل فيه • وفيها
من تشريف المضاف مالا يخفى ، كما في الإضافة الثانية من تشريف
المضاف إليه ، أي : هو من جنس ما استأثر الله
بعلمه من الاسرار الخفية التي لا يكاد يحوم حولها عقول
البشر وعليه ف (من) بيانية أو تبعية ، ويكون نهياً لهم
عن السؤال عنها وتركها للبيان • وهذا رأي كثيرين أمسكوا
عن الخوض فيها • وقالوا : إنها شيء استأثر الله بعلمه
ولم يطلع أحداً من خلقه فلا يجوز البحث عنها بأكثر من أنها
شيء موجود •

ثم الاقاويل فيها من الحكماء والعلماء الاقدمين مختلفة •
ولا يتم الجواب في محل الخلاف فأتى الجواب مجملاً على وجه
يصدق على كل من ذلك مرموزاً ليعلمه العلماء بالله •
واقترضت المصلحة العامة منع الكلام فيه لغيرهم لأن الافهام
لا تحتمله خصوصاً على طريقة الحكماء ، اذ من غلب على
عقله الجمود لا يقبله ولا يصدق به في صفة الباري فكيف
يصدق به في حق الروح الانساني •

وحاصل ما تقدم أن الروح موجود ومحدث بأمر الله تعالى
بلا مادة وتوكلد من أصل كأعضاء الجسد حتى يمكن تعريفه
ببعض مبادئه ، بل هو من عالم الأمر لا من عالم الخلق .
فيكون الاقتصار في الجوانب على قوله : (قل الروح من أمر ربي) كما
اقتصر موسى في جواب قول فرعون (وما رب العالمين) على
قوله : (رب السموات والارض) إعلاما بأن إدراكه بالكنه
على ما هو عليه لا يعلمه الا الله تعالى .

وأنه - الروح - شيء بمفارقته يموت الانسان وبملازمته
يبقى كما أوما إليه قوله تعالى : (وما اوتيتم من العلم إلا
قليلا) أي علما قليلا لا تستفيدونه من طريق الحواس ،
وهو هذا القدر الاجمالي .

ثم إن الذين خاضوا في البحث عنها أثرت عنهم أقوال
شتى - كما أشرنا سابقا - وقد افردت لذلك تأليف قديمة
وحديثة . والذي يهمنا معرفته ما عول عليه الأئمة المدققون
الذين نقبوا عن أقوال المتقدمين ونقدوها بمحك الكتاب والسنة
فنبذوا ما يخالفهما وتمسكوا بما يوافقهما .

فمنهم الامام ابن حزم قال رحمه الله في كتابه (الفصل في الملل
والنحل) بعد سرد مذاهب شتى : « وذهب سائر أهل الاسلام
والملة المقررة بالمعاد الى أن النفس جسم طويل عريض عميق

ذات مكان عاقلة مميزة مصرفة للجسد ، قال : وبهذا نقول ،
والنفس والروح اسمان لمسمى واحد ، ومعناها واحد ، ثم
قال : وأما من ذهب الى ان النفس ليست جسما فقول يبطل
بالقرآن والسنة والإجماع •

فأما القرآن . فان الله عزو جل قال : (هناك تبلو كل
نفس ما أسلفت) ^(١) وقال تعالى : (اليوم تجزى كل نفس بما
كسبت لا ظلم اليوم) ^(٢) وقال تعالى (كل امرئ بما كسب
رهين) ^(٣) فصح أن النفس هي الفعالة الكاسبة المجزية
المخطئة • وقال تعالى : (ان النفس لأماراة بالسوء) ^(٤) وقال
تعالى (ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) ^(٥)
وقال تعالى : (ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء
ولكن لا تشعرون) ^(٦) وقال تعالى : (ولا تحسبن الذين قتلوا
في سبيل الله أمواتا • بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما
آتاهم الله من فضله) ^(٧) فصح ان الانفس منها : ما يعرض على

(١) يونس الآية ٣٠ .

(٢) غافر الآية ١٧ .

(٣) الطور الآية ٢١ .

(٤) يوسف الآية ٢٣ .

(٥) غافر الآية ٤٦ .

(٦) البقرة الآية ١٥٤ .

(٧) آل عمران الآية ١٦٩ ، ١٧٠ .

النار قبل يوم القيامة، فيعذب ومنها : ما يرزق وينعم فرحا ويكون مسرورا قبل يوم القيامة • ولا شك أن اجساد آل فرعون ، واجساد المقتولين في سبيل الله قد انقطعت أوصالها وأكلها السباع والطيور وحيوان الماء • فصح أن الانفس منقولة من مكان الى مكان ولا شك أن العرّاض لا يلقي العذاب ولا يحس فليس عرضاً • وصح انها تنتقل في الاماكن قائمة بنفسها ، وهذه صفة الجسم لا صفة الجوهر عند القائل به •• فصح ضرورة انها جسم •

وأما السنة فقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان ارواح الشهداء في حواصل طير خضر في الجنة » • وقوله صلى الله عليه وسلم : « انه رأى نسمة بني آدم عند سماء الدنيا عن يسار آدم ويساره » فصح أن الانفس مرئية في اماكنها •

وأما من الاجماع فلا اختلاف بين أحد من اهل الاسلام في أن انفس العباد منقولة بعد خروجها من الاجساد الى نعيم ، او الى صنوف ضيق وعذاب وهذه صفة الاجسام •

ثم قال : ومعنى قول الله تعالى : (ويسألونك عن الروح قل الروح من امر ربي) • انما هو لان الجسد مخلوق من تراب ثم من نقطة ثم من علقة ثم من مضغة ثم عظما ثم لحما ثم

امشاجا ، وليس الروح كذلك . وانما قال الله تعالى آمرا
له بالكون : (كن فكان) فصح أن الروح والنفس والنسمة
اسماء مترادفة لمعنى واحد ، وقد يقع الروح ايضا على غير هذا ،
فجبريل عليه السلام الروح الامين ، والقرآن روح من عند الله .

اقول : هذا ملخص ما ذكره المرحوم القاسمي في تفسيره
عن ابن حزم في ما يتعلق بالروح ولكن احسن منه ما ذكره شيخ
الاسلام ابن تيمية رحمه الله في تفسير سورة الاخلاص .
فبعد ان ذكر نزاع المتكلمين المتفلسفة في الملائكة هل هي متحيزة
ام لا ؟ وكذلك نزاعهم في روح الانسان التي تفارقه
بالموت على قول الجهور الذين يقولون : هي عين قائمة بنفسها
ليست عرضا من اعراض البدن كالحياة وغيرها ، ولا جزءا من
اجزاء البدن كالهواء الخارج منه . فان كثيرا من المتكلمين زعموا
انها عرض قائم بالبدن . او جزء من اجزاء البدن ، لكن هذا
مخالف للكتاب والسنة واجماع السلف والخلف ولقون
جناهير العقلاء من جميع الامم ، ومخالف للدلة . وهذا ما
استطال به الفلاسفة على كثير من أهل الكلام :

قال القاضي ابو بكر : اكثر المتكلمين على ان الروح عرض
من الاعراض . وبهذا نقول ، اذا لم يعن بالروح النفس . فانه

قال : الروح الكائن بالجسد ضربان : احدهما : الحياة القائمة به
والآخر النفس . والنفس ريح ينبث به . والمراد بالنفس ما
يخرج بنفس التنفس من اجزاء الهواء المتحلل من المسام ، وهذا
قول الاسفراييني وغيره ، وقال ابن فورك : هو ما يجري في
تجاويف الأعضاء ، وابو المعالي خالف هؤلاء واحسن في
مخالفتهم فقال : ان الروح اجسام لطيفة مشابكة للاجسام
المحسوسة ، أجرى الله العادة لحياة الاجساد ما استمرت
مشابكتها لها ، فاذا فارقتها تعقب الموت الحياة في استمرار العادة .

ومذهب الصحابة التابعين لهم بإحسان وسائر أئمة السنة
وسلف الامة ، ان الروح عين قائمة بنفسها تفارق البدن ،
وتنعم ، وتعذب ، ليست هي البدن ولا جزءا من اجزائه كالنفس
المذكور ثم قال : « والناس لما لم يشهدوا لها نظيرا . عسر عليهم
التعبير عن حقيقتها » انتهى .

هذا بعض ما ذكره الاقدمون من فلاسفة ومتكلمين عن
الروح وهو لم يخرج بكليته عن تكهنات وتخربات ونظريات
غير مدعمة بحجة قاطعة او دليل ساطع . اما ما ذكره المدققون
المحدثون من علماء روحيين عصريين يزعمون أن لهم اتصالا
بالارواح واستحضارها لا يخرج عما يزعمه بعض الدجالين
من اتصالهم بالجن وتسخيرهم لما ربهم ، وقد كتب بعض المنقبين

عن مباحث المدققين العصريين في الروح ملخصه : (ان نظرية الروحانيين التي يستدلون عليها في أوروبا بالحس في هذه الايام ، هي ان للانسان روحا هبطت عليه من الملائكة لا يصل العقل الى ادراك كنهها ، وانها متصلة بهذا الجسد الطيني . بواسطة هيكل لطيف شفاف على شكل الجسد تماما ولكنه ليس من طبيعته ولا محكوما بقوانينه . وانه كغلاف للسر الالهي المسمى روحا . ولعل في هذا ما يشبه قول الامام مالك بن انس رضي الله عنه عن الروح (هي صورة كالجسد) ويقولون ان الروح وغلافها هذا يخرجان من الجسد عند حصول الموت للشخص الى عالم غير هذا العالم . ولكنهما لا ينفصلان عنه كل الانفصال ، بل ارواح الموتى منتشرة حولنا في كل جهة ، ولكننا لا نراها بأعيننا لعدم استعداد أعياننا لذلك ، كما أنها - أعياننا - ليست مستعدة لرؤية اشعة رونتجن مع انها موجودة كما تدل عليه الآلة التي صنعها لها . وقد دخلت تطبيقاتها في علم الطب ، وأفادت العلم الطبيعي فائدة كبرى .

هذا وان جميع ما قدمناه بناءً على ان المراد بالروح في الآية روح الانسان .

راي ابن القيم في الروح :

اما ابن القيم رحمه الله فانه لم يرتض كل ما ذكره المتكلمون والفلاسفة عن الروح وحقيقتها لاختلافهم في إدراك كنهها ، لذلك يقول في كتابه [الروح] : وفي ذلك خلاف بين السلف والخلف - كما مر - واكثر السلف بل كلهم على ان الروح المسؤول عنها في الآية ليست أرواح بني آدم ، بل هو الروح الذي اخبر الله عنه في كتابه انه يقوم يوم القيامة مع الملائكة وهو ملك عظيم . وقد ثبت في الصحيح ^(١) عن عبد الله قال : بينا أنا أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حرة المدينة ، وهو متكئ على عسيب ، فمررنا على على نفر من اليهود فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح . وقال بعضهم لا تسألوه عسى ان يخبر فيه بشيء تكرهونه ،

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم باب قول الله تعالى . وما أوتيتم من العلم إلا قليلا .

وقال بعضهم : نسأله ، فقام رجل فقال : يا ابا القاسم ما الروح؟ فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعلمت انه يوحى اليه ففقت فلما تجلى عنه قال : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما اتيتم من العلم الا قليلا) ومعلوم أنهم انما سألوه عن امر لا يعرف الا بالوحي ، وذلك هو الروح الذي هو عند الله لا يعلمها الناس ، وأما ارواح بني آدم فليست من الغيب ، وقد تكلم فيها طوائف الناس من أهل الملل وغيرهم ، ثم قال والروح في القرآن على عدة أوجه :

١ - الوحي كقوله تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا) ^(١) وقوله : (يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده) ^(٢) وسمى الوحي روحا لما يحصل به من حياة القلوب والارواح .

٢ - القوة والثبات والنصرة التي يؤيد بها من شاء من عباده المؤمنين كما قال : (أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه) ^(٣) .

(١) الشورى / ٥٢ .

(٢) غافر / ١٥ .

(٣) المجادلة / ٢٢ .

٣ - جبريل كقوله تعالى : (نزل به الروح الامين على قلبك) ، وقال تعالى : (من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله)^(٥) قال تعالى : (قل نزله روح القدس) .

٤ - الروح التي سأل عنها اليهود . فاجيبوا بانها من أمر الله . وقد قيل : انها الروح المذكورة في قوله تعالى : (يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون)^(١) وانها الروح المذكورة في قوله : (تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم)^(٢) .

٥ - المسيح عيسى بن مريم قال تعالى : (انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلسته القاها الى مريم وروح منه)^(٣) .

اما ارواح بني آدم فلم تقع تسميتها بالقرآن الا بالنفس . قال تعالى : (يا ايها النفس المطمئنة) وقال : (ولا اقسم بالنفس اللوامة) وقال : (ان النفس لأماراة بالسوء) . وقال : (اخرجوا

(٣) الشعراء / ١٦٣ - ١٦٤ .

(٥) البقرة / ٩٧ .

(٦) النحل / ١٠٢ .

(١) النبأ / ٢٨ .

(٢) القدر / ٤ .

(٣) النساء / ١٧١ .

أنفسكم) • وقال : (ونفس وما سواها فألهمها فجورها
وتقواها) • وقال : (كل نفس ذائقة الموت) •

٦ - الروح الذي يحيا به البدن - بدن الانسان
والحيوان - وهو قول الجمهور يؤيد هذا ماروي عن ابن
مسعود رضي الله عنه ، قال : مر رسول الله صلى الله
عليه وسلم بنفر من اليهود فقال بعضهم سلوه عن الروح ، وقال
بعضهم : لا تسألوه عسى ان يخبركم بشيء تكرهونه وقال
بعضهم : نسأله • فقام رجل فقال : يا ابا القاسم ما الروح ؟
فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلمت انه
يوحى اليه ، فقمت • فلما تجلى عنه قال : (ويسألونك عن
الروح قل الروح من امر ربي) •

هذا وان للعلماء في تعريف الروح أقوالاً كثيرة اولاهها
بالاعتبار قولان :

١ - « ان الروح جسم نوراني متحرك من العالم العلوي ،
مخالف بطبعه لهذا الجسم المحسوس ، سار فيه سريان الماء في
الورد ، والدهن في الزيتون ، لا يقبل التبديل والتفريق
والتمزيق • يفيد الجسم المحسوس الحياة وتوابعها ما دام صالحا

لقبول الفيض وعدم حدوث ما يمنع السريان ، وإلا حدث الموت » وهذا رأي الرازي وابن القيم في كتاب الروح •

٢ - انه ليس بجسم ولا جسائي متعلق بالبدن تعلق التدبر والتصرف • والى هذا ذهب حجة الاسلام الغزالي وابو انقاسم الراغب الاصفهاني •

وأخيرا اليك ما ذكره الامام ابن القيم في هذا الموضوع وفيه القول الفصل : قال : وأما المسألة التاسعة عشرة • وهي ما حقيقة النفس ؟ هل هي جزء من اجزاء البدن ، او عرض من أعراضه ، أو جسم ساكن له مودع فيه ، أو جوهر مجرد ؟ وهل هي الروح او غيرها • وهل الامارة واللوامة والمطمئنة نفس واحدة لها هذه الصفات ام هي ثلاث انفس •

فالجواب ان هذه مسائل قد تكلم الناس فيها من سائر الطوائف واضطربت اقوالهم فيها وكثر فيها خطؤهم . وهدى الله اتباع الرسل واهل سنته لما اختلفوا فيه من الحق باذنه ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ، فنذكر اقوال الناس وما لهم وما عليهم في تلك الاقوال ، ونذكر الصواب بحمد الله وعونه :

١ - قال ابو الحسن الاشعري في مقالاته : اختلف الناس

في الروح والنفس والحياة • وهل الروح هي الحياة او غيرها ؟
وهل الروح جسم ام لا • فقال النظام : الروح هي جسم وهي
النفس • وزعم ان الروح حي بنفسه وأنكر ان تكون الحياة
والقوة معنى غير الحي القوي •

٢ - وقال آخرون : الروح عرض •

٣ - وقال قائلون : منهم جعفر بن حرب : لا ندري الروح
جوهر او عرض واعتلوا في ذلك بقوله تعالى : (ويسألونك عن
الروح قل الروح من امر ربي) • ولم يخبر عنها ماهي لا انها
جوهر ولا عرض قال - أي ابن القيم - : وأظن جعفرًا أثبت
الحياة غير الروح رآبث الحياة عرضا •

٤ - وكان الجبائي يذهب الى ان الروح جسم ، وأنها
غير الحياة ، والحياة عرض ويعتل بقول أهل اللغة : خرجت
روح الانسان • وزعم ان الروح لا تجوز عليها الاعراض •

٥ - وقال قائلون : ليس الروح شيئا أكثر من اعتدال
الطباع الاربع • ولم يرجعوا من قولهم [اعتدال] الا الى
المعتدل. ولم يشبوا شيئا الا الطباع الاربع التي هي : الحرارة ،
والبرودة ، والرطوبة ، واليبوسة •

٦ - وقال قائلون : ان الروح معنى خامس غير الطبائع
الاربع •

٧ - وقال قائلون : الروح : الدم الصافي الخالص من
الكدر والعفونات وكذا قالوا في القوة •

٨ - وقال قائلون : الحياة هي الحرارة الغريزية •

وكل هؤلاء الذين حكيما اقوالهم في الروح من اصحاب
الطبائع يثبتون ان الحياة هي الروح •

٩ - وكان الاصم لا يثبت الحياة والروح شيئا غير
الجسد ويقول : ليس أعقل الا الجسد الطويل العريض العميق
الذي اراه واشاهده وكان يقول : النفس هي هذا البدن بعينه
لا غير وانما جرى عليها هذا الذكر على جهة البيان والتأكيد
بحقيقة الشيء لا على انها معنى غير البدن •

١٠ - وذكر عن أرسطاطاليس : ان النفس معنى مرتفع
من الوقوع تحت التدبير والنشوء والبلوى غير دائرة ، وأنها
جوهر بسيط منبث في العالم كله من الحيوان على جهة الاعمال
له والتدبير وأنه لا تجوز عليه صفة قلة ولا كثرة قال : وهي على
ما وصفت من انبساطها في هذا العالم غير منقسمة الذات والبنية

وانها في كل حيوان العالم بسعنى واحد لا غير (١) .

١١ - وقال آخرون : بل النفس معنى موجود ذات حدود وأركان وطول وعرض وعنى وانها غير مفارقة في هذا العالم لغيرها مما يجري عليه حكم الطول والعرض والعمق وكل واحد منهما يجمعهما صفة الحد والنهاية [وهذا قول طائفة من الشنوية يقال لهم المنانية] .

ثم ذكر تعريف [الديسانية] للروح . وتعريف جعفر بن مبشر ، وأبي الهذيل . وجعفر بن حرب ، والمثائين ، الذين يقولون : ان تعلقها بالبدن لا بالحلول فيه ولا بالمجاورة ولا بالمساكنة ولا بالالتصاق ولا بالمقابلة وانما هو التدبير له فقط واختار هذا القول البوشنجي ومحمد بن النعمان الملقب بالمفيد ومعمر بن عباد الغزالي . وهو قول ابن سينا وأتباعه وهو أردأ المذاهب وأبطلها وابعدها من الصواب .

(١) (اقول : ان وصف ارسطاطاليس للروح يشبه الى حد ما ما انصفت به القوة الكهربائية المنبعثة في ارجاء الكون حتى ان كل جسم حيوان لا يخلو من الكهرباء والحيوان موصل كهرباء جيد كما ذكر ذلك علماء الكهرباء وكما هو المشاهد من التقاط الصورة والصوت ب (إلاسلكي) (٢) .

قال أبو محمد بن حزم : وذهب سائر اهل الاسلام والملل
المقرة بالمعاد الى ان النفس جسم طويل عريض عميق ، ذات
مكان عاقلة مميزة مصرفة للجسد قال : وبهذا نقول ، قال :
والنفس والروح اسمان مترادفان لمسمى واحد ومعناها واحد .

وقد ضبط أبو عبد الله بن الخطيب مذاهب الناس في
النفس فقال : ما يشير اليه كل انسان بقوله : انا ، اما ان يكون
جسما أو عرضا ساريا في الجسم ، أو لا جسما ولا عرضا ساريا
فيه . أما القسم الاول : وهو : انه جسم ، فذلك الجسم اما : أن
يكون هذا البدن ، وإما أن يكون جسما مشاركا لهذا البدن ،
واما أن يكون خارجا عنه . أما القسم الثالث : وهو ان نفس
الانسان عبارة عن جسم خارج عن هذا البدن ، فهذا لم يقله
أحد . وأما القسم الاول : وهو ان الانسان عبارة عن هذا البدن
والهيكل المخصوص . فهو قول جمهور الخلق وهو المختار عند
أكثر المتكلمين .

قلت أي : ابن القيم : هو قول جمهور الخلق الذين عرف
الرازي أقوالهم من أهل البدع وغيرهم من المضلين . وأما
أقوال الصحابة والتابعين وأهل الحديث فلم يكن له بها شعور
البتة ، ولا أعتقد ان لهم قولاً على عادته في حكاية المذاهب

الباطلة في المسألة . والمذهب الحق الذي دل عليه القرآن والسنة وأقوال الصحابة لم يعرفه ولم يذكره وهذا الذي نسبته الى جمهور الخلق من أن الانسان هو هذا البدن المخصوص فقط وليس وراءه شيء هو من ابطال الاقوال في المسألة بل هو أبطل من قول ابن سينا وأتباعه ، بل الذي عليه جمهور العقلاء أن الانسان هو البدن والروح معا . وقد يطلق اسمه على احدهما دون الآخر بقرينة ، فالناس لهم اربعة اقوال في مسمى الانسان هل هو الروح فقط ، او البدن فقط ، او مجموعهما ، أو كل واحد منهما ، وهي الاقوال الاربعة لهم في كلامه ^(١) هل هو اللفظ فقط ، او المعنى فقط ، او مجموعهما ، او كل واحد منهما ؟ فالخلاف بينهم في الناطق ونطقه .

فالامام ابن القيم في كتابه الروح لم يبحث عن كنهها وحقيقتها لانه سلفي العقيدة ، والسلف الصالح لم يبحثوا في ذلك وكل ما ورد من آثار يحوم حول متعلق الروح وآثارها ، لذلك جعل كتابه الروح مسائل اي ابوابا وتحت كل باب عدة فصول

(١) الضمير في كلامه يعود على الله عزوجل . والمعنى ان اقوالهم في النفس او الروح ، لا تخرج عن هذه الاقوال الاربعة وكذا قولهم في كلام الله لا يخرج عن هذه هذه الاقوال الاربعة .

جسج تلك المسائل وورثها وبوبها ليجعل منها كتابا يشفي الغليل
وينير السبيل ولكن جاء كتابه بدون مقدمة ، والذي يتبادر
للذهن ان ذلك يعود لأحد أمرين :

١ - اما ان يكون كتب له مقدمة ولكنها ضاعت عندما
كان أولاده يبيعون كتبه بعد وفاته ، أو انه عاجلته المنية عن
كتابة مقدمة لهذا الكتاب ، فعثر على نسخة منه برهان الدين
ابراهيم بن عمر البقاعي المتوفى سنة ٨٨٥ وجعل لها مقدمة
واطلق على الكتاب [سر الروح] اذ يقول البقاعي في مقدمة
الكتاب : « وبعد فهذا كتاب عظيم النفع جليل القدر كثير
الفائدة ما صنف مثله في معناه فلا تكاد تجد ما تضمنه من بدائع
الفوائد ، وفرائد القلائد ، في كتاب سواه ، ويشتمل على جملة
من المسائل تتضمن الكلام على أرواح الاموات والاحياء بالدلائل
من الكتاب والسنة والآثار ، وأقوال العلماء والاختيار ،
لا أدري اسئل مصنفه - قدس الله روحه - عنها فأجاب ، ام
سئل عن البعض ولكن هو اطلال الخطاب ، فاني رأيته مجردا عن
خطبة وسؤال أصلا مبتدئا فيه بقوله : « أما المسألة الاولى هل
تعرف الاموات زيارة الاحياء وسلامهم أم لا » ؟ فأجبت - أي
البقاعي - بعد استخارة الله سبحانه وتعالى أن أفتتحه بهذه الخطبة

المباركة العظيمة لكونه كتاباً في ضمن مسائله التي تتأملها
وتشاهدها كل درة يتيمة ، لينشرح صدر الناظر فيه . لتقوي
همته على النظر في بدائع فوائده ودقائق معانيه « (١) اهـ من
المقدمة .

جعل ابن القيم كتابه الروح على احدى وعشرين مسألة ،
ووراء كل مسألة بحثاً فرعية يتعلق فيها : فجاء الكتاب حافلاً
بفوائد ، قل أن تجدها الا في العديد من الكتب ، وإليك فهرساً
للمسائل فقط ومنه تعلم قيمة الكتاب العلمية قال :

١ - المسألة الاولى : في معرفة الأموات بزيارة الاحياء
وسلامهم .

٢ - المسألة الثانية : في أن أرواح الموتى هل تتلاقى
وتتزاور وتتناكر أم لا .

٣ - المسألة الثالثة : هل تتلاقى أرواح الاحياء وأرواح
الاموات أم لا .

٤ - المسألة الرابعة : إن الروح هل تموت أم الموت للبدن
وحده .

(١) كتاب الروح ص ٣ .

٥ - المسألة الخامسة : أن الأرواح كيف تتميز بعد مفارقة
الابدان بعضها من بعض •

٦ - المسألة السادسة : هل تعاد الروح في قبره وقت
السؤال أم لا •

٧ - المسألة السابعة : في جواب الملاحدة والزنادقة المنكرين
لعذاب القبر ونعيمه •

٨ - المسألة الثامنة : في أن : ما الحكمة في عدم ذكر القبر
في القرآن مع شدة الحاجة اليه ؟؟ •

٩ - المسألة التاسعة : وهي ما الأسباب التي يعذب بها
أصحاب القبور •

١٠ - المسألة العاشرة : في الأسباب المنجية من عذاب القبر •

١١ - المسألة الحادية عشرة : في أن السؤال في القبر هل هو
عام في حق المسلمين والمنافقين والكفار أو يختص بالمسلم
والمنافق •

١٢ - المسألة الثانية عشرة : في أن سؤال منكر ونكير هل
مختص بهذه الامة أو يكون لها ولغيرها •

١٣ - المسألة الثالثة عشرة : أن الاطفال هل يمتحنون في

قبورهم •

١٤ - المسألة الرابعة عشرة : وهي قوله : هل عذاب القبر

دائم أو منقطع •

١٥ - المسألة الخامسة عشرة : في أين مستقر الارواح

ما بين الموت الى يوم القيامة ؟ •

١٦ - المسألة السادسة عشرة : هل تنتفع أرواح الموتى من

سعي الاحياء أم لا •

١٧ - المسألة السابعة عشرة : وهي هل الروح قديمة أو

محدثه مخلوقة ؟

١٨ - المسألة الثامنة عشرة : وهي هل تقدم خلق الارواح

على الاجساد أو تأخر عنها •

١٩ - المسألة التاسعة عشرة : وهي ما حقيقة النفس ،

وهذه المسألة أكبر فصول الكتاب فبعد أن ذكر أقوال القائلين

بجسية الروح ارتضى قول الرازي : « وهو أن (الانسان)

- كذا ولعل الصواب [الروح] وهو ما يقتضيه السياق - عبارة

عن جسم مخصوص موجود في داخل هذا البدن ، فالقائلون

بهذا القول اختلفوا في تعيين ذلك الجسم على وجوه : الأول :
أنه عبارة عن الأخلاط الأربعة التي منها يتولد هذا البدن .
الثاني : أنه الدم . الثالث : أنه الروح اللطيف الذي يتولد في الجانب
الايسر من القلب . وينفذ في الشريانات الى سائر الاعضاء .
والقول الرابع : أنه الروح الذي يصعد في القلب الى الدماغ
ويتكيف بالكيفية الصالحة لقبول قوة الحفظ والفكر والذكر
والخامس : أنه جزء لا يتجزأ من القلب . والسادس : أنه جسم
مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس وهو جسم نوراني علوي
خفيف حي متحرك ينفذ في جميع الاعضاء وسري فيها سريان
الماء في الورد . وسريان الدهن في الزيتون . والنار في الفحم (١)
فما دامت هذه الاعضاء سالحة لقبول الآثار الفاضلة عليها من
هذا الجسم اللطيف بقي ذلك الجسم مشابها لهذه الاعضاء
وآفادها هذه الآثار من الحس والحركة الارادية . واذا فسدت
هذه الاعضاء بسبب استيلاء الاخلاط الغليظة عليها وخرجت
عن قبول تلك الآثار فارق الروح البدن وانفصل الى عالم
الأرواح .

وهذا القول هو الصواب في المسألة وهو الذي لا يصح

(١) قد سبق الكلام على ذلك انظر ص ٢٧٩ .

غيره وكل الاقوال سواء باطلة وعليه دل الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة ، ونحن نسوق الادلة على نسق واحد .

الدليل الاول : قوله تعالى : (الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى أجل مسمى)^(٢) ففي الآية ثلاثة أدلة : الإخبار بتوفيتها ، وإمساكها ، وإرسالها .

هذا وقد واصل سرد الادلة حتى بلغت مائة وستة عشر دليلا اذ يقول : الوجه السادس عشر بعد المائة : ان عقول العالمين قاضية بأن الخطاب متوجه الى هذه البنية وما قام بها وساكنها . وكذلك المدح والذم والثواب والعقاب والترغيب والترهيب ، ولو أن رجلا قال : المأمور والمنهي والممدوح والمذموم والمخاطب والعاقل جوهر مجرد ليس في العالم ولا خارجه ولا متصل به ولا منفصل عنه لأضحك العقلاء على عقله ولأطبقوا على تكذيبه . وكل ما شهدت بدائه العقول وصرائحها ببطلانه كان الاستدلال على ثبوته استدلالا على صحة وجود المحال وبالله التوفيق^(٢) .

(١) الروم ٤٢ .

(٢) الروح ص ٣٣٨ .

ونحن نورد نسودجين من ادلته هذه ليعلم المطلع على سيرة
هذا الامام مدى سعة علمه وطول نفسه بالكتابة اذ في هذه
الادلة المختصر والمطول فاستمع اليه يقول :

الدليل المائة : هو ما اشترك في العلم به عامة أهل الارض
من لقاء ارواح الموتى وسؤالهم لهم وإخبارهم اياهم بأمور
خفيت عليهم فأروها عيانا وهذا أكثر من أن يتكلف
ايراده ^(١) وقد أورد المسائل الثلاث الاولى من هذا الكتاب
لهذا المعنى وبلغ ما حرر لذلك اربعا وخسين صفحة ثم
قال : وأعجب من هذا الوجه الحادي والمائة ان روح النائم
يحصل لها في المنام آثار فتصبح تراها على البدن عيانا وهي
من تأثير الروح في الروح كما ذكر القيرواني في كتاب البستان
عن بعض السلف قال : كان لي جار يشتم أبا بكر وعمر
رضي الله عنهما فلما كان ذات يوم أكثر من شتمهما
فتناولته وتناولني فانصرف الى منزلي وأنا مغموم حزين فمنت
وتركت العشاء فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) الروح ص ٣٣٨ .

في المنام فقلت يا رسول الله : فلان يسب أصحابك قال : من أصحابي ؟ قلت : ابو بكر وعمر ، فقال : خذ هذه المديّة فاذبح بها فأخذتها وأضجعت وذبحته ورأيت كأن يدي أصابها من دمه فألقيت المديّة وأهويت بيدي الى الارض لامسحها فانتبعت وأنا أسمع الصراخ من نحو داره فقلت ما هذا الصراخ ؟ قالوا فلان مات فجأة فلما أصبحنا جئت فنظرت اليه فاذا خط موضع الذبح .

وذكر مسعدة عن هشام بن حسان عن واصل مولى أبي عيينة عن موسى بن عبيدة عن صفية بنت شيبة قالت : كنت عند عائشة رضي الله عنها ، فأنتها امرأة مشتملة على يدها فجعل النساء يولعن بها فقالت : ما أتيتك إلا من أجل يدي ، إن أبي كان رجلا سمحا وإنني رأيت في المنام حياضا عليها رجال معهم آنية يستقون من أتناهم فرأيت أبي فقلت أين أمي ؟ فقال : انظري فنظرت فإذا أمي ليس عليها إلا قطعة خرقة فقال : انها لم تتصدق قط إلا بتلك الخرقة وشحمة من بقرة ذبحوها فتلك الشحمة تذاب وتطرى بها وهي تقول : واعطشاه . قالت : فأخذت إناء من

(١) الكنود : كفران النعمة والبخل - قاموس .

الأنية فسقيتها . فنوديت من فوقى : من سقاها آيس الله يده
فأصبحت يدي كما ترين .

وذكر الحارث بن أسد المحاسبي وأصبغ وخلف بن
القاسم وجباعة عن سعيد بن مسلمة قال : بينا امرأة عند
عائشة إذ قالت : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
على أن لا أشرك بالله شيئاً ، ولا أسرق ، ولا أزنى ، ولا
أقتل ولدي ، ولا آتي بهتاناً أفتره بين يدي ورجلي ، ولا
أعصي في معروف ، فوفيت لربي ووفى لي ربي فوالله لا يعذبني
الله . فأتتها في المنام ملك فقال لها انك تتبرجين ، وزينتك
تبدين . وخيرك تكندين ^(١) وجارك تؤذين ، وزوجك تعمين
ثم وضع أصابعه الخمس على وجهها وقال : خمس بخمس ولو
زدت زدناك فأصبحت وأثر الأصابع في وجهها .

وقال عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك : سمعت مالكا
يقول : ان يعقوب بن الاشجع كان من خيار هذه الامة نام في
اليوم الذي استشهد فيه فقال لأصحابه : اني رأيت أمرا
ولأخبرنه . اني رأيت كأنني أدخلت الجنة فسقيت لبناً ، فاستفأ
فقاء اللبن . واستشهد بعد ذلك . قال ابن القاسم : وكان
في غزوة في البحر بسوضع لا لبن فيه ، وقد سمعت غير مالك

(١) الكنود : كفران النعمة والبخل - فاموس .

يذكره ويذكر أنه معروف فقال : اني رأيت كأنني أدخل الجنة فسقيت فيها لبنا فقال له بعض القوم أقسمت عليك لما تقيأت ؟ فقاء لبنا يصلد - أي يبرق - وما في السفينة لبن ولا شاة فقال ابن قتيبة قوله : يصلد - أي يبرق ، يقال : صلد اللبن يصلد • ومنه حديث عمر رضي الله عنه أن الطيب سقاه لبنا فخرج من الطعنة أبيض يصلد •

وكان نافع القاريء اذا تكلم يشم من فيه رائحة المسك فقيل له : كلما قعدت تتطيب فقال : ما أمس طيبا ولا أقربه ولكن رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وهو يقرأ في فمي فمن ذلك الوقت يشم من فيّ هذه الرائحة •

وذكر مسعدة في كتابه في الرؤيا عن ربيع بن زيد الرقاشي قال : أتاني رجلان فقعدا الي فاغتابا رجلا فنهيتهما ، فأتاني أحدهما بعد فقال : اني رأيت في المنام كأن زنجيا أتاني بطبق عليه جنب خنزير، لم ار لحما قط أسمن منه ، فقال لي : كل، فقلت: آكل لحم خنزير ، فتهددني فأكلت فأصبحت وقد تغير فمي فلم يزل يجد الريح في فمه شهرين •

وكان العلاء بن زياد له وقت يقوم فيه فقال لأهله تلك الليلة : اني أجد فترة فاذا كان وقت كذا فأيقظوني ، فلم يفعلوا

قال فأتاني آت في منامي فقال: قم يا علاء بن زياد اذكر الله
يذكرك ، وأخذ بشعرات في مقدم رأسي فقامت تلك الشعرات
في مقدم رأسي ، فلم تزل قائمة حتى مات . قال يحيى بن بسطام :
فلقد غسلناه يوم مات وانهن لقيام في رأسه . . .

وقال القيرواني : أخبرني شيخ لنا من اهل الفضل قال
أخبرني أبو الحسن المطلبى امام مسجد النبي صلى الله عليه
وسلم . قال : رأيت بالمدينة عجبا كان رجل يسب أبا بكر وعمر
رضي الله عنهما . فبينما نحن يوما من الايام بعد صلاة الصبح
اذ أقبل رجل وقد خرجت عيناه وسالتا على خديه فسألناه ما
قصتك ؟ فقال رأيت البارحة رسول الله صلى الله عليه وسلم
وعلي بن أبي طالب ومعه أبو بكر وعمر . فقالا يا رسول الله :
هذا الذي يؤذينا ويسبنا فقال لي رسول الله صلى الله عليه
وسلم من أمرك بهذا يا أبا قيس فقلت له : علي وأشرت اليه
فأقبل علي علي بوجهه ويديه وقد ضم أصابعه وبسط السبابة
والوسطى وقصد بها الى عيني فقال ان كنت كذبت فقا الله
عينيك وأدخل أصبعه في عيني ، فانتبعت من نومي وأنا على
هذه الحال . فكان يبكي ويخبر الناس وأعلن التوبة . . .

وأعجب من هذا : الرجل يرى في المنام وهو شديد العطش والجوع والآلم أن غيره قد سقاه وأطعمه أو داواه بدواء ، فيستيقظ وقد زال عنه ذلك كله ، وقد رأى الناس من هذا عجائب •

وقد ذكر مالك عن أبي الرجال عن عمرة عن عائشة رضي الله عنها ان جارية لها سحرتها وأن سنديا دخل عليها وهي مريضة فقال : انك سحرت ، فقالت : ومن سحرني قال : جارية في حجرها صبي قد بال عليها ، فدعت جارتها ، فقالت : حتى أغسل بولا في ثوبي فقالت أسحرتني قالت نعم ، قالت وما دعاك الى ذلك • قالت أردت تعجيل العتق فأمرت أختها أن يبيعها من الاعراب ممن يسيء ملكتها فباعها ثم إن عائشة رأت في منامها أن اغتسلي من ثلاثة آبار يمد بعضها بعضها فاستسقي لها فاغتسلت فبرئت •

وكان سمالك بن حرب قد ذهب بصره فرأى ابراهيم الخليل عليه السلام في المنام فمسح على عينيه وقال اذهب الى الفراش فانغمس فيه ثلاثا ففعل فأبصر •

وكان اسماعيل بن هلال الحضرمي قد عمي فأتي في المنام خفيل له : قل يا قريب يا مجيب يا سميع الدعاء يا لطيف بمن شاء

رد عليّ بصري فقال الليث بن سعد : أنا رأيته قد عمي ثم أبصر » (١) .

وقد أطلال الامام ابن القيم رحمه الله في سرد أمثال ما رأيت واني اخترت بعضها ليعلم القارئ طول نفسه بالكتابة وسرد الحجج والبراهين على ما يرى من رأي •

وما ذكرنا وهو الدليل المائة من أصل مائة وخسعة عشرة دليلا أتى بها على جسمية الروح ، وأن لها تصرفا مع اتصالها بالاجسام •

ولعل قائلا من لا يؤمن بتصرف الارواح من ظفر بشذرة من العلوم المادية ينكر ذلك ويزعم ان الثقافة العصرية تنكر ذلك وتعدد خرافة : أذكر له ما شاهدته وشاهده ملايين البشر وهو ما عرضه التلفزيون الاردني منذ شهر تقريبا اذ عرض فلما امريكا خلاصته : ان استاذنا جامعا رأى في منامه ان رجلا جرح له يده فلما استيقظ رأى اثر الجرح في يده ، فذهب لمن يفسر له حلمه . فقال المفسر ان هذا الجرح قديم وقد كثرت له الرؤى وكلما استيقظ في اليوم التالي يرى تحقيق ما رأى ، وكان من يستمعون الى محاضراته طالب مادي لا يؤمن بالروح ينكر على المحاضر ما يزعمه من تأثير الارواح فقال له الاستاذ : أنا رأيته الليلة في المنام وقد أطبق باب

(١) الروح ص ٣٣٠ .

السيارة على رجلك ، وأنت تمشي على عكاز ، قال الطالب ومتى كان ذلك ، قال : أمس حوالي منتصف الليل فنهض الطالب وقال نعم في الوقت نفسه كنت أصعد الى غرفتي فزلت قدمي والتوت وهأناذا أمشي على عكاز مستعينا بها .

وقد عرض الفلم مشاهد كثيرة لرؤى رآها الاستاذ فتحقت الى أن رأى أنه يسوت غدا ، فأخبر زوجته بذلك فنهرته وقالت : هلوسة اصابتك ، تصدق أضغاث أحلام فلما كان اليوم الثاني ، أقبلت امرأته توقظه فوجدته ميتا .

وأخيرا وقد أطلت على القارئ في بحث الروح وكان بودي ان أختصر ولكنني عند دراستي للكتاب - الروح للامام ابن القيم - وجدت البحث متعا لذيذا لما حواه من فرائد وفوائد وطرائف قلما أن توجد في كتاب غيره ، وهذا الكتاب طبع مرارا وآخر طبعاته كانت عام ١٣٨٣ هـ و ١٩٦٣ م أي منذ عشر سنوات بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند وقد عز وجود نسخة منه بمكاتب سورية ومصر التجارية الى أن عثرت على نسخة منه بالمكتبة الظاهرية بدمشق ومثله كتاب روضة المحبين أيضا عز وجوده في المكاتب التجارية بمصر وسورية حتى تفضل بعض الاخوان فأعارني مشكورا ، فعسى أن يلهم الله إحدى دور النشر لاعادة طبعهما

مشكورين مأجورين •

وأخيرا أحيل من شاقه البحث وأراد التعمق فيه الى ما
كتبه الاقدمون والمحدثون في هذا الموضوع فمسن كتب فيه
قديما :

مؤلفو التوراة اذ جاء ذكر استحضار الارواح في
قصة طالوت المسمى في التوراة شاول

٢ - حجة الاسلام الامام الغزالي في بداية النهاية له
ابحاث مستعة في علم الارواح والحياة بعد الموت ، وفي حادي
الارواح للامام ابن القيم فصول قيمة •

٣ - اخوان الصفا في رسائلهم المشهورة ابحاث فلسفية
شيقة •

وممن كتب في هذا الموضوع من المتأخرين المحدثين :
١ - روبرت هير الامريكي في كتابه « ابحاث عرفية في
ظهور الارواح »

٢ - روبرت دال روين في كتابه « عثار في حدود عالم
الغيب »

٣ - روسل والاس وهو مساعد داروين في اعساله في
كتابه « عجائب الروحانية الحديثة »

٤ - مجلة أشباح الاحياء التي تصدر في أمريكا

٥ - المذهب الروحاني للشيخ الاستاذ الحكيم
طنطاوي جوهري

٦ - الارواح للشيخ الاستاذ الحكيم طنطاوي جوهري
ثم قد يغني عن مطالعة هذه الكتب ما حرره طنطاوي
جوهري في تفسيره للآيات من سورة البقرة « فقلنا اضربوه
ببعضها كذلك يحيي الله الموتى » وقوله تعالى : « قال كم
لبثت ، قال لبثت يوما أو بعض يوم » وقوله تعالى : « ألم
تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم الوف حذر الموت فقال
لهم الله موتوا ثم أحياهم »

وقوله تعالى في سورة يوسف : (اذ قال يوسف لابيهِ
يا أبت اني رأيت احد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي
ساجدين) •

وقوله تعالى في سورة الكهف : (فضربنا على آذانهم في
الكهف سنين عددا) •

وقوله عز وجل في سورة الاسراء : (ويسألونك عن الروح
قل الروح من امر ربي وما اوتيتم من العلم الا قليلا) •

ابن القيم بين شكره وصبره :

يؤثر عن سيدنا عمر رضي الله عنه قوله : لو كان الشكر والصبر بعيرين لما باليت أيهما ركبت .

ويقول ابن القيم رحمه الله : « لما كان الايمان نصفين نصف صبر ونصف شكر كان حقيقا على من نصح نفسه واجب نجاتها وآثر سعادتها أن لا يهمل هذين الاصلين العظيمين . ولا يعدل عن هذين الطريقين القاصدين : وأن يجعل سيره الى الله بين هذين الطريقين ، ليحمله الله يوم لقائه مع خير الفريقين . ولهذا جعل كتابه « عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين » (١)

للتعريف بشدة الحاجة اليهما ، وبيان توقف سعادة الدنيا والآخرة عليهما . فجاء كتابا جامعا حاويا نافعا فيه من الفوائد ما هو حقيق على ان يعرض عليه بالنواجذ ، وتثنى عليه الخناصر ، ممتعا لقارئه صريحا للناظر فيه . مسليا للحزين . منهضا للمقصرين ، محرضا للمششرين . مشتملا على نكات حسان من تفسير

(١) قوله : عدة . مصدر بناء مرة من الوعد بوزن (علة) .

القرآن ، وعلى احاديث نبوية معزوة الى مظانها . وآثار سلفية
منسوبة الى قائلها ، ومسائل فقهية حسان مقررة بالدليل .
ودقائق سلوكية على سواء السبيل . . . فهو كتاب يصلح
للملوك والامراء والاغنياء والفقراء . والصوفية والفقهاء .
ينفض القاعد الى المسير ويؤنس السائر في الطريق وينبه السالك
على المقصود (١) .

ثم ذكر معنى الصبر لغة فقال : « اصل هذه الكلمة هو
المنع والحبس ، فالصبر حبس النفس عن الجزع . واللسان عن
التشكي ، والجوارح عن لطم الخدود وشق الثياب ونحوهما . .
ويقال : صبرت فلانا إذا حبسته ، وصبرته إذا حملته على الصبر ،
وفي حديث الذي أمسك رجلا وقتله آخر : « يقتل القاتل ويصبر
الصابر » (٢) أي يحبس للموت كما حبس من أمسكه
للموت » (٣) .

ثم قال : « وأما حقيقته فهو خلق فاضل من اخلاق النفس
يتمتع به من فعل مالا يحسن ولا يجمل . وهو قوة من قوى
النفس التي بها صلاح شأنها وقوام امرها » (٤) .

(١) عدة الصابرين ص ٧ .

(٢) في النهاية لابن الاثير (مادة صبر) : اقتلوا القاتل
واصبروا الصابر .

(٣) عدة الصابرين ص ١٠ .

(٤) عدة الصابرين ص ١١ .

ثم ذكر تعريف الصبر عند العارفين أمثال الجنيد وذي النون ، فرضي منها ماوافق ظاهرة الكتاب والسنة واحتمال النفس البشرية له ، ورد منها ما لا يطاق ولا يمكن للنفس البشرية احتماله ، وآخر ما ذكر من التعاريف قول أبي علي الدقاق : (حد الصبر ان لا يعترض على التقدير) فاما اظهار البلاء على غير وجه الشكوى فلا ينافي الصبر ، قال الله تعالى في قصة أيوب : (انا وجدناه صابرا) مع قوله (مسني الضر) وقد علق على هذا التعريف بتعليق لطيف شرح فيه معنى الشكوى فقال : اما قوله : « على غير معنى الشكوى » فالشكوى نوعان احدهما : الشكوى الى الله فهذا لا ينافي الصبر كما قال يعقوب عليه السلام : « انما اشكو بشي وحزني الى الله » مع قوله : « فصبر جميل » ، وقال ايوب « مسني الضر » مع وصف الله له بالصبر « انا وجدناه صابرا » وقال سيد الصابرين صلوات الله وسلامه عليه : « اللهم اشكو اليك ضعف قوتي وقلة حيلتي » .

أقول : ان هذا النوع من الشكوى مطلوب بل مأمور به اذ انه لا يخرج عن الدعاء وهو الشكوى الى الله لا شكوى من قضائه وقدره . وهو النوع الثاني الذي رده ابن القيم لانه ينافي الصبر ويبطله ، وهو شكوى الخالق الى المخلوق او

شكوى من يرحم الى من لا يرحم ، والفرق ظاهر بين الشكوى منه والشكوى اليه .

ثم قال : « وحفظ من خطب الحجاج » اقدعوا هذه النفوس فانها طلعة الى كل سوء « ^(١) فرحم الله امرءا جعل لنفسه خطا ما وزاما فقادها بخطامها الى طاعة الله ، وصرفها بزمامها عن معاصي الله ، فان الصبر عن محارم الله ايسر من الصبر على عذابه » ^(٢) .

قلت : والنفس فيها قوتان : قوة الاقدام ، وقوة الاحجام ، فحقيقة الصبر ان يجعل قوة الاقدام مصروفة الى ما ينفعه وقوة الاحجام امساكا عما يضره ، ومن الناس من تكون قوة صبره على فعل ما ينتفع به وثباته عليه اقوى من صبره عما يضره

(١) اورد ابن الاثير في النهاية عن الحجاج « اقدعوا هذه النفوس فانها اسأل شيء إذا أعطيت وأمنع شيء اذا سئلت » أي كفوها عما تتطلع اليه من شهوات . ومنه حديث الحسن « اقدعوا هذه النفوس فانها طلعة » . وفي البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ١٦٢ عن حفص قال سمعت عيسى بن عمر يقول : سمعنا الحسن يقول : اقدعوا هذه النفوس فانها طلعة واعصوها فانكم ان اطعتموها تنزع بكم الى غاية الشر . وحادثوها بالذكر فانها سريعة الدثور » .

(٢) عدة الصابرين ص ١٣ .

قيصر على مشقة الطاعة ولا صبر له عن داعي هواه الى ارتكاب ما نهى عنه ، كالمرايبي الذي يقوم الليل ويصوم النهار ولا صبر له عن جمع المال وكنزه ومنع الزكاة ، ومنهم من تكون قوة صبره عن المخالفات اقمى من صبره على مشقة الطاعات ، ومنهم من لا صبر له على هذا ولا على هذا ، وافضل الناس اصبرهم على النوعين » (١) .

فاذا كانت القوة والغلبة لداعي الهوى يستسلم البائس للشيطان وجنده ، فيقودونه حيث شاءوا وله معهم حالتان : احدهما ، ان يكون من جندهم وأتباعهم ، وهذه حال العاجز الضعيف . والثانية : ان يصير الشيطان من جنده ، وهذه حال الفاجر القوي المتسلط والمبتدع الداعية المتبوع كما قيل : وكنت امرءا من جند ابليس فارتقى

بي الحال حتى صار ابليس من جندي
قال ابن القيم رحمه الله :

وههنا نكتة بدیعة يجب التفطن لها ، وينبغي اخلاء القلب لتأملها وهي ان هذا المغرور لما اذل سلطان الله الذي أعزه به وشرفه ، ورفع به قدره وسلمه في يد أبغض اعدائه اليه وجعله اسيرا له تحت قهره وتصرفه وسلطانه ، سلط الله عليه من كان

(١) عدة الصابرين ص ١٤ .

حقه هو ان يسلط عليه فجعله تحت قهره وتصرفه وسلطانه
يسخره حيث شاء ، ويسخر منه ، ويسخر منه جنده وحزبه فكما
اذل سلطان الله وسلمه الى عدوه اذله وسلط عليه عدوه الذي
امره ان يتسلط هو عليه ويذله ويقهره ، فصار بمنزلة من سلم
نفسه الى اعدى عدو له يسومه سوء العذاب وقد كان يصدد ان
يستأسره ويقهره ويشفي غيظه منه ، فلما ترك مقاومته ومحاربتة
واستسلم له تسلط عليه عقوبة له ، قال الله تعالى : « فاذا
قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، انه ليس له
سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، انما سلطانه على
الذين يتولونه والذين هم به مشركون » (١) فان قيل فقد اثبت
له على اوليائه هاهنا سلطانا فكيف نفاه بقوله تعالى حاكما عنه
مقررا له : (وقال الشيطان لما قضي الامر أن الله وعدكم وعد
الحق ووعدتكم فاخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان الا ان
دعوتكم فاستجبتم لي) (٢) . وقال تعالى : (ولقد صدق عليهم
ابليس ظنه فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين وما كان له عليهم من
سلطان الا لنعلم من يؤمن بالآخرة من هو منها في شك) (٣) .
قيل : السلطان الذي اثبت له عليهم غير الذي نفاه من وجهين :

(١) النحل الآية ٩٨ و ٩٩ .

(٢) ابراهيم الآية ٢٢ .

(٣) سبأ الآية ٢٠ و ٢١ .

احدهما : ان السلطان الثابت هو سلطان التمكن منهم
وتلاعبه بهم وسوقه اياهم كيف اراد بتمكينهم . اياه من ذلك
بطاعته وموالياته ، والسلطان الذي نفاه سلطان الحجة فلم يكن
لإبليس عليهم من حجة يتسلط بها غير أن دعاهم فأجابوه بلا
حجة ولا برهان .

الثاني : ان الله لم يجعل له عليهم سلطانا ابتداء البتة ،
ولكن هم سلطود على انفسهم بطاعته ودخولهم في جملة جنده
وحزبه . فلم يتسلطن عليهم بقوته فان كيده ضعيف ، وانما
تسلطن عليهم بأرادتهم واختيارهم ، والمقصود ان من قصد
اعظم اوليائه وأحبابه ونصحائه فأخذه وأخذ اولاده وحاشيته
وسلبهم الى عدوه كان من عقوبته ان يتسلط عليه ذلك العدو
نفسه .

أقسام الصبر باعتبار متعلقه :

قال ابن القيم رحمه الله : الصبر باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام : صبر على الاوامر والطاعات حتى يؤديها ، وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها : وصبر على الاقدار والاقضية حتى لا يتسخطها . وهذه الانواع الثلاثة هي التي قال فيها الشيخ عبد القادر الجيلاني في فتوح الغيب : « لا بد للعبد من امر يفعله ونهي يجتنبه وقدر يصبر عليه » .

وهذا الكلام يتعلق بطرفين : طرف من جهة الرب تعالى ، وطرف من جهة العبد ، فأما الذي من جهة الرب ، فهو ان الله تعالى له على عبده حكمان : حكم شرعي ديني ، وحكم كوني قدري ، فالشرع متعلق بأمره ، والكوني متعلق بخلقه ، وهو سبحانه له الخلق والامر . وحكمه الديني الطلبي نوعان بحسب المطلوب ، فان المطلوب ان كان محبوبا له فالمطلوب فعله اما واجبا واما استحبابا ، ولا يتم ذلك الا بالصبر وان كان مبعوضا له ، فالمطلوب تركه اما تحريما واما كراهة ، وذلك ايضا

موقوف على الصبر . فهذا حكمه الديني الشرعي ، واما حكمه الكوني فهو ما يقضيه ويقدره على العبد من المصائب التي لا صنع له فيها ، وفرضه الصبر عليها وفي وجوب الرضا بها قولان للعلماء ، وهما وجهان في مذهب أحمد ، أصحهما أنه مستحب فرجع الدين كله الى هذه القواعد الثلاث فعل المأمور ، وترك المحذور . والصبر على المقدور •

واما الذي من جهة العبد ، فانه لا ينفك عن هذه الثلاث ما دام مكلفا ، ولا تسقط عنه هذه الثلاث حتى يسقط عنه التكليف ، فقيام عبوديته الامر والنهي والقدر على ساقه الصبر لا تستوي الا عليه ، كما لا تستوي السنبلة الا على ساقها •

تقسيم الصبر باعتبار تعلق الأحكام الخمسة به :

وهو ينقسم بهذا الاعتبار الى واجب ، ومندوب ، ومحذور . ومكروه ، ومباح •

- ١ - فالصبر الواجب ثلاثة انواع : احدها الصبر عن المحرمات ، والثاني الصبر على اداء الواجبات ، والثالث الصبر على المصائب التي لا صنع للعبد فيها كالامراض والفقر وغيرها •
- ٢ - الصبر المندوب : فهو الصبر عن المكروهات ، والصبر على المستحبات ، والصبر عن مقابلة الجاني بشئ فعله •

٣ - الصبر المحذور : الصبر عن الطعام والشراب حتى يسوت ، وكذا الصبر عن الميتة والدم ولحم الخنزير عند المخصصة

حرام ، اذا خاف بتركه الموت • قال طاووس وبعده الامام
احمد : « من اضطر الى أكل الميتة والدم فلم يأكل فمات دخل
النار » •

ومن الصبر المحظور . صبر الانسان على ما يقصد إهلاكه
من سبع أو حيات أو حريق أو ماء أو كافر يريد قتله •

٤ - والصبر المكروه فله أمثلة : احدها : أن يصبر عن
الطعام والشراب واللبس وجناح أهله حتى يتضرر بذلك
بدنه ، وصبره عن جناح زوجته اذا احتاجت الى ذلك ولم
يتضرر به . وصبره على المكروه ، وصبره عن فعل المستحب •

٥ - الصبر المباح هو الصبر عن كل فعل مستوي الطرفين .
خير بين فعله وتركه والصبر عليه •

وبالجملة فالصبر على الواجب اوجب وعن الواجب
حرام • والصبر عن الحرام واجب ، وعليه حرام • والصبر على
المستحب مستحب وعنه مكروه ، والصبر عن المكروه مستحب ،
وعليه مكروه . والصبر عن المباح مباح • والله اعلم •

وقد روي عن الامام أحمد رضي الله عنه انه قال :
« ذكر الله الصبر في القرآن في تسعين موضعا » وقيل في خمس
وتسعين موضعا ، وهو صريح كقوله تعالى : (واصبر وما
صبرك الا بالله) (واصبر لحكم ربك) (يا أيها الذين آمنوا

اصبروا وصابروا) (ان الله مع الصابرين) (واستعينوا بالصبر
والصلاة) وغيرها كثير •

وجزى الله الصابرين على صبرهم جزاء موفورا ،
قال سليمان بن القاسم : كل عمل يعرف ثوابه الا الصبر ، قال
الله تعالى : (انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) •

وقد اثنى الله تعالى على نبيه أيوب بأحسن الثناء على
صبره فقال : (انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب) فأطلق
عليه نعم العبد بكونه وجده صابرا ، وهذا يدل على ان من لم
يصبر اذا ابتلي فانه بئس العبد ، وقد حكم سبحانه حكما عاما
على كل من لم يؤمن ولم يكن من اهل الحق والصبر ،
بالخسران المبين ، وهذا يدل على انه لا رابح سواهم فقال :
(والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا
الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) هذا بعض ما ورد
في الكتاب العزيز في الصبر وثوابه والثناء على أهله •

اما ما ورد في السنة في مدحه والحث عليه فنجتريء منها
شذرات ، ففي الصحيحين من حديث انس بن مالك رضي الله
عنه أن رسول الله صلى عليه وسلم اتى على امرأة تبكي على
صبي لها ، فقال لها : « اتقي الله واصبري » فقالت : وما تبالي
بمصيبتى ؟ فلما ذهب ، قيل لها : انه رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، فأخذها مثل الموت ، فأثت بابه ، فلم تجد على بابه بوابين
فقلت : يا رسول الله لم اعرفك فقال : « انما الصبر عند اول
صدمة » وفي لفظ : « عند الصدمة الاولى » .

وفي صحيح مسلم عن ام سلمة قالت : سعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من مسلم تصيبه مصيبة
فيقول ما أمره الله : انا لله وانا اليه راجعون ، اللهم أجرني
في مصيبتى وأخلف لي خيرا منها ، الا أخلف الله له خيرا
منها » . قالت : فلما مات أبو سلمة قلت : أي المسلمين خير من أبي
سلمة ، أول بيت هاجر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
ثم اني قتلته فأخلف الله لي رسوله صلى الله عليه وسلم .

وفي صحيح البخاري من حديث أنس رضي الله عنه قال
اشتكى ابن لابي طلحة فمات وابو طلحة خارج ، فلما رأت
امراته انه قد مات هيأت شيئا وسجته في جانب البيت ، فلما
جاء ابو طلحة قال : كيف الغلام قالت : هدأت نفسه وأرجو ان
يكون قد استراح ، فظن أبو طلحة أنها صادقة قال : فبات معها
فلما أصبح اغتسل ، فلما اراد ان يخرج اعلمته انه قد مات
فصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم اخبره بما كان
منهما ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لعل الله
يبارك لكما في ليلتكما » . قال ابن عيينة : فقال رجل من الانصار
فرايت له تسعة اولاد كلهم قد قرؤوا القرآن .

تنازع الناس في الافضل من الصبر والشكر :

حكى أبو الفرج بن الجوزي في ذلك ثلاثة أقوال: أحدها :
ان الصبر أفضل ، والثاني : ان الشكر أفضل ، والثالث : انهما
سواء ، كما قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « لو
كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما ركبت » •

حجج القائلين بان الصبر أفضل :

قال الصابرون : قد اثنى الله سبحانه على الصبر واهله
ومدحه وامر به وعلق عليه خير الدنيا والآخرة ، وقد ذكره الله
في كتابه في نيف وتسعين موضعا •

فسا احتج به القائلون بأفضلية الصبر :

١ - قوله صلى الله عليه وسلم : « الطاعم الشاكر
بمنزلة الصائم الصابر » فذكر ذلك بعرض تفضيل الصبر ورفع
درجته على الشكر ، فانه ألحق الشاكر بالصابر ، وشبهه به ،
ورتبة المشبه به اعلى من رتبة المشبه •

٢ - قالوا : الصبر يدخل في كل مسألة من مسائل الدين ،
ولهذا كان من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد •

٣ - قالوا : وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال : « يقول الله تعالى كل عمل ابن آدم له الا الصوم

فانه لي وأنا أجزي به » . وما ذاك الا لانه صبر النفس ومنعها من شهواتها ، كما في الحديث : « يدع شهوته وطعامه وشرابه من أجلي » .

٤ - قالوا : ويكفي في فضل الصبر على الشكر قوله تعالى : (اني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون) ، فجعل فوزهم جزاء صبرهم .

٥ - قالوا : وقال الله تعالى : (والله مع الصابرين) . ولا شيء يعدل معيته لعبده سبحانه وتعالى ، وقال جل ذكره (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) ، وهذا يتضمن الحراسة والكلاءة والحفظ للصابر لحكمه .

٦ - قالوا : وقد وعد الله الصابرين بثلاثة اشياء كل واحد خير من الدنيا وما عليها ، وهي صلواته تعالى عليهم ، ورحته لهم ، وتخصيصهم بالهداية ، وذلك في قوله تعالى : (وبشر الصابرين الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون) ، وهذا مفهم لحصر الهدى فيهم .

٧ - قالوا : وقد دل الدليل على أن الزهد في الدنيا والتقلل منها مهسا امكن ، خير من الاستكثار منها ، والزهد فيها حال الصابرين والاستكثار منها حال الشاكرين .

٨ - قالوا : وقد سئل المسيح صلوات الله وسلامه عليه عن رجلين مرا بكنز فتخطاه احدهما ولم يلتفت اليه ، وأخذہ الآخر وأنفقہ في طاعة الله تعالى . أيهما أفضل ؟ فقال : الذي لم يلتفت اليه وأعرض عنه افضل عند الله .

٩ - قالوا : ويدل على صحة هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم عرضت عليه مفاتيح كنوز الارض فلم يأخذها ، وقال : بل اجوع يوما وأشبع يوما ، ولو اخذها لأنفقها في طاعة الله ومرضاته فأثر مقام الصبر عنها والزهد فيها .

هذا وقد أفاض تغمدہ الله برحمتہ ورضوانہ بسر ادلة القائلين بافضلية الصبر على الشكر بما يربو على الخسین دليلا واغلب الظن ان ما ذكره من ادلة مطولة ينهج فيها نهج المناظرين لما في تلك الادلة من شواهد واستنتاجات هي من وحي خاطره وكنوز علمه اذ يبعد مثل هذه الخواطر والسوانح عن فئة الزهاد الصابرين فسيبيلهم بأدلتهم على منهجهم ، اختصار الكلام والبعد عن فلسفة المتكلمين والمناظرين كما هو المعروف من سيرتهم رضي الله عنهم .

ادلة الشاكرين :

لئن ذكر من ادلة الصابرين على افضلية الصبر بضع عشر دليلا لقد ذكر من ادلة الشاكرين ما يربو على مائة دليل مشفوعة

بشرح آيات الكتاب العزيز الواردة بتعظيم الشاكرين وجزائهم .
وقد استنتج من الآيات الواردة في الشكر والشاكرين من
المعاني ما لا يتاح لغيره من أئمة الاسلام ، وذلك فضل الله
يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، واليك شاهدا على
ذلك قوله في الفصل الذي عقده على لسان الشاكرين وهو من
أمتع فصول الكتاب قال رحمه الله :

« قال الشاكرون : لقد تعديتم طوركم - الضمير هنا
للصابرين - وفضلتم مقاما ، غيره افضل منه ، وقدمتم الوسيلة
على الغاية ، والمطلوب لغيره على المطلوب لنفسه ، والعمل الكامل
على الاكمل ، والفاضل على الافضل ، ولم تعرفوا للشكر حقه ، ولا
وفيتموه مرتبته ، وقد قرن تعالى ذكره الذي هو المراد من الخلق
بذكره ، وكلاهما المراد بالخلق والامر ، والصبر خادم لهما ، ووسيلة
اليهما ، وعون عليهما ، قال تعالى : (واذكروني اذكركم واشكروا
لي ولا تكفرون) وقرن سبحانه الشكر بالايان ، واخبر انه
لا غرض له في عذاب خلقه ان شكروا وآمنوا به فقال :
« ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم » أي إن وفيتم
ما خلقتكم له وهو الشكر والايان فما أصنع بعذابكم
بعد هذا .

وأخبر سبحانه أن أهل الشكر هم المخصوصون بسنته
عليهم من بين عباده فقال : « وكذلك فتننا بعضهم ببعض ليقولوا

أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ، أليس الله بأعلم بالشاكرين •
أقول : فانظر يا أخي الى هذا الاستنتاج الباهر الذي أغلق
فهو على كثير ممن سبق ابن القيم رحمه الله •

ثم قال : وقسم الله سبحانه وتعالى الناس الى شكور
وكفور ، فأبغض الاشياء الى الله عز وجل الكفر وأهله ، وأحب
الاشياء اليه سبحانه الشكر وأهله ، قال تعالى : « إنا هديناه
السييل إما شاكراً وإما كفوراً » وقال سبحانه فيما حكاه عن
نبيه سليمان عليه السلام : « هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر
أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني
كریم » وقال تعالى : « وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن
كفرتم إن عذابي لشديد » وقال تعالى : « إن تكفروا فإن الله
غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم »
وهذا كثير في القرآن يقابل الله سبحانه بين الشكر والكفر
فهو ضده •

وقال تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله
الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على
عقبه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين • » والشاكرون
هم الذين ثبتوا على نعمة الإيمان فلم ينقلبوا على أعقابهم •
وعلق سبحانه المزيد بالشكر ، والمزيد منه لا نهاية له كما
لا نهاية لشكره •

« فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء) وقوله في الرزق : (يرزق
من يشاء) وفي المغفرة : (يغفر لمن يشاء) والتوبة : (ويتوب الله
على من يشاء) •

وأطلق جزاء الشكر اطلاقاً حيث ذكر ، كقوله «وسيجزي الله
الشاكرين » «وسنجزي الشاكرين » •

ولما عرف عدو الله ابليس مقام الشكر وانه من اجل المقامات
بواعلاها ، جعل غايته ان يسعى في قطع الناس عنه فقال «ثم لآتينهم
من بين ايديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم ولا تجد
اكثرهم شاكرين » •

ووصف الله سبحانه وتعالى الشاكرين بأنهم قليل من عباده
فقال تعالى : «وقليل من عبادي الشكور » وذكر الامام احمد عن
عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه سمع رجلاً يقول : اللهم اجعلني
من الاقلين ، فقال ما هذا فقال يا امير المؤمنين ان الله قال «وما آمن
معه الا قليل » وقال : « و قليل من عبادي الشكور ،
إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات و قليل ما هم » فقال عمر :
صدقت : وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على أول رسول
بعثه الى اهل الارض بالشكر فقال « ذرية من حملنا مع نوح
انه كان عبدا شكورا » وفي تخصيص نوح ها هنا بالذكر وخطاب

العباد بأنهم من ذريته إشارة الى الاقتداء به فانه ابوهم الثاني -
 فان الله سبحانه وتعالى لم يجعل للخلق بعد الغرق نسلا الا من
 ذريته كما قال تعالى « وجعلنا ذريته هم الباقين » فأمر الذرية
 ان يتشبهوا بابيهم في الشكر «أنه كان عبدا شكورا » وقد
 أخبره سبحانه : أنه انما يعبد من شكره ، فمن لم يشكره لم يكن
 من أهل عبادته فقال : « واشكروا لله ان كنتم إياه تعبدون »
 وأمر عبده موسى أن يتلقى ما آتاه من النبوة والرسالة
 والتكليم بالشكر فقال تعالى : « يا موسى إني اصطفيتك على
 الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من
 الشاكرين »

وأول وصية وصى الله بها الانسان بعدما عقل عنه
 بالشكر له ولوالدين فقال : « ووصينا الانسان بوالديه حملته
 امه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك
 الي المصير »

وأخبر أن رضاه في شكره فقال تعالى : « وإن تشكروا
 يرضه لكم » وأثنى سبحانه على خليفه ابراهيم بشكر نفسه
 فقال : « إن ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من
 المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم » فأخبر
 سبحانه بأنه أمة أي قدوة يؤتم به في الخير وأنه كان قانتا، والقانت

هو المطيع المقيم على طاعته ،والحنيف هو المقبل على الله المعرض عما سواه ثم ختم له بهذه الصفات بأنه شاكراً لأنعمه فجعل الشكر غاية خليله •

وأخبر سبحانه بأن الشكر هو الغاية من خلقه وأمره بل هو الغاية التي خلق عبده لأجلها فقال : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار والأفئدة لعلكم تشكرون »

فهذه غاية الخلق وغاية الامر •

قالوا : فالشكر مراد لنفسه ، والصبر مراد لغيره ، والصبر إنما حشد لإفضائه وإيصاله الى الشكر ، فهو خادم الشكر ، وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قام حتى تفطرت قدماه فقبل له : أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً » •

أقول : ثم سرد ابن القيم رحمه الله كثيراً من أقوال السلف الصالحين والعلماء العاملين ، والعباد والزهاد وأهل الحديث ، فيما يجب على العبد تجاه ربه من الحمد والشكر على جزييل إنعامه وعظيم إكرامه وأن العبد لو عاش حامداً شاكراً لما وفى حق الله من الشكر ، تقتطف من أقوالهم بهـضها ليدل المؤمن على ما يجب عليه تجاه هذه النعم الظاهرة والباطنة من الشكر على

فضل الله سبحانه وتعالى وكان فضله عظيماً ، وكرمه جسيماً
فكيف وهو القائل : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها »
والقائل : « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » . فمن هذه
الاقوال : ما روي عن مروان بن الحكم انه كان يقول اذا ذكر
الاسلام : « بنعمة ربي وصلت اليه ، لا بما قدمت يداي ولا
بإرادتي ، اني كنت خاطئاً ، وكم من مدخل لو مت فيه لكنت
فيه نكالا في العثيرة ، ووقيت السوء والمكروه فيه - الاسلام -
ورحت بنعمة منه كبيرة ، وكم من نعمة لله تسي وتصبح في
العيان وفي السريرة »

ودعي عثمان بن عفان رضي الله عنه الى قوم على ريبة
فانطلق ليأخذهم ففترقوا قبل أن يأخذهم ، فاعتق رقبة شكراً
لله على أن لا يكون جرى على يديه خزي مسلم .

وقال يزيد بن هارون : أخبرنا أصبغ بن يزيد أن نوحا عليه
السلام كان اذا خرج من الخلاء قال: الحمد لله الذي أذاقني لذته
وأبقى منفعتي في جسدي وأذهب عني أذاه، فسمي عبدا شكورا .

وقال ابن أبي الدنيا حدثني العباس بن جعفر عن الحارث
ابن شبل قال حدثتنا أم النعمان أن عائشة حدثتها عن النبي صلى
الله عليه وسلم أنه لم يقيم عن خلاء قط الا قاله .

أقول : وهكذا شأن المؤمن كما أخبر صلى الله عليه

وسلم : أن الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيشا وجدها انتقطها
ومن أجدر بالكلمة الحكمة الضالة ، من سيد المؤمنين وإمام
المُرشدين من أن يلتقطها •

وسأل رجل أبا حازم فقال : ما شكر العيين يا أبا حازم ؟
قال : ان رأيت بهما خيرا أعلنته ، وان رأيت بهما شرا سترته •
قال : فما شكر الاذنين ؟ قال : ان سمعت بهما خيرا وعيته ، وان
سمعت بهما شرا دفنته ، قال : فما شكر اليدين ؟ قال : لا تأخذ
بهما ما ليس لهما ، ولا تسنح حقا لله هو فيهما ، قال : فما
شكر البطن ؟ قال : أن يكون أسفله طعاما وأعلاه علما ، قال : فما
شكر الفرج ؟ قال : قال الله تعالى : « والذين هم لفروجهم
حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيماهم فإنهم غير ملومين
فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » قال : فما شكر الرجلين ؟
قال : ان علمت ميتا تغبطه استعملت بهما عمله ، وان مقته رغبت
عن عمله وأنت شاكر لله • وأما من شكر بلسانه ولم يشكر
بجميع أعضائه فمثله كمثل رجل له كساء فأخذ بطرفه ولم يلبسه
فما ينفعه ذلك من الحر والبرد والثلج والمطر » •

ثم قال : اذا عرف هذا فكل من الصبر والشكر داخل في
حقيقة الآخر لا يمكن وجوده إلا به وانما يعبر عن أحدهما باسمه
الخاص به باعتبار الاغلب عليه والظاهر منه • والا فحقيقة الشكر

انما يلتئم من الصبر والارادة والفعل ، فان الشكر هو العمل بطاعة الله وترك معصيته ، والصبر أصل ذلك فالصبر على الطاعة وعن المعصية هو عين الشكر ، واذا كان الصبر مأمورا به فأدأؤه هو الشكر ، والسؤال عن أيهما أفضل كالسؤال عن الحسن والحركة أيهما أفضل ، وعن الطعام والشراب أيهما أفضل . وعن خوف العبد ورجائه أيهما أفضل •

فالمأمور لا يؤدي الا بصبر وشكر ، والمحذور لا يترك الا بصبر وشكر ، وأما المقدور الذي يُقدَّر على العبد من المصائب فتتى صبر عليه اندرج شكره في صبره كما يندرج صبر الشاكر في شكره •

أما مسألة الغني الشاكر، والفقر الصابر أيهما أفضل ؟، فهي التي حكاها أبو الفرج بن الجوزي وغيره في عموم الصبر والشكر أيهما أفضل ؟ حيث قال: للناس فيها ثلاثة أقوال، وقد مرت أقواله وحجج الفريقين • والتحقيق أن يقال : أفضلهما أتقاها لله تعالى فإن استويا في التقوى استويا بالفضل ، فالله سبحانه لم يفضل بالفقر والغنى كما لم يفضل بالعافية والبلاء ، وإنما فضل بالتقوى كما قال سبحانه وتعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » والتقوى مبنية على أصلين : الصبر ، والشكر وكل من الغني والفقر لا بد له منهما فمن كان صبره وشكره أتم كان أفضل •

فأتقاهما لله في وظيفته ومقتضى حاله هو الافضل ولا يصح
التفضيل بغير هذا البتة .

وقد احتج لحكمه هذا بأن الله سبحانه وتعالى جمع لنبيه
وحبيبه صلى الله عليه وسلم بين المقامين كليهما على أتم الوجود
فكان سيد الاغنياء الشاكرين ، وسيد الفقراء الصابرين ، فحصل
له من الصبر على الفقر ما لم يحصل لاحد سواه ، ومن الشكر
على الغنى ما لم يحصل لغني سواه ، ومن قرأ سيرته صلى الله
عليه وسلم وجد الامر كذلك ، فكان صلى الله عليه وسلم
أصبر الخلق في مواطن الصبر ، وأشكر الخلق في مواطن الشكر .

ثم ذكر ابن القيم رحمه الله أن الغنى والفقر امتحان من
الله للعبد كما أن الموت والحياة والصحة والسقم كلها امتحان
من الله ليبلو العباد أيهم أحسن عملا ، كما قال عزت كلته :
« . . . الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا »
فليس للفقراء الحق بأن يفخروا على الاغنياء ، وليس للاغنياء
حق أن يفخروا على الفقراء ، وان كان لا بد من المفاخرة فلتكن
من المفاخرة المحمودة التي يتنافس فيها المتنافسون بالعمل الصالح
ليحظوا بالدرجات العلى لدى رب العالمين .

أما المنافسة في الدنيا ، وهي التكاثر في الاموال والاولاد
فيجب أن يكثر بني جنسه في ذلك ، ويفرح بأن يرى نفسه أكثر

من غيره مالاً وولداً ، فهذا من أعظم ما يليه النفس عن الترقى في درجات الكمال ، كما قال تعالى « ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون »

وليس التكاثر بالمال والولد فحسب ، بل يكون التكاثر والتفاخر بالجاه والعلم والحسب والنسب ، فكل من شغله وألهاه التكاثر بأمر من الأمور عن الله والدار الآخرة فهو داخل في حكم هذه الآية ، فمن الناس من يليه التكاثر بالمال والولد ، ومنهم من يليه التكاثر بالعلم ، فيجسعه تكاثراً وتفاخراً وهذا أسوأ حالاً عند الله من يكثر بالمال والجاه ، لانه جعل أسباب الآخرة للدنيا ، والمكاثر بالمال والجاه استعمل أسباب الدنيا لها وكاثراً بأسبابها •

وعلى ذكر الدنيا وأسباب التكاثر والتفاخر فيها ذكر أنها لا تدم لذاتها . فهي دار صلاح للصالحين ، ودار فساد للفسادين • ولما كان حب الدنيا هو الدافع للتكاثر والتفاخر وهو رأس كل الخطايا ، لأنه يقتضي تعظيمها ، وهي حقيرة ، ملعونة ، ملعون ما فيها الا ذكر الله وما والاه ، ولانها اذا أحبها العبد صيرها غاية وهي وسيلة للآخرة ولان محبتها تعترض بين العبد وبين فعل ما ينفعه في الآخرة •

ولان محبتها تجعلها أكبر هم العبد . ولهذا جاء الاثر من

أدعية النبي صلى الله عليه وسلم « اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا » فمحبها من أشد الناس عذابا كما هو مشاهد ملموس ، وكذا فإن عاشقها من أبعده الناس عقلا ، لأنه يعشق ما لا بقاء له ولا قدرة له على امتلاكها ونيل بغيته منها •

وعلى ذكر الدنيا وذمها وأنها ليست بدار قرار ، بل هي مسرح حياة أطول مدى ، وأبعد أثرا ، في بؤسها ونعيمها ضرب نيفا وعشرين مثالا لها من الكتاب والسنة وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه الكرام ، وذكر عمر الدنيا بأكلها منذ أن وجدت إلى يوم فنائها بالنسبة للأزل القديم والباقي المستديم فقال : « للعبد ثلاثة أحوال : حالة لم يكن فيها شيئا ، وهي ما قبل أن يوجد ، وحالة أخرى : وهي من ساعة موته إلى ما لا نهاية له في البقاء السرمدي ، فلنفسه وجود بعد خروجها من البدن إما في الجنة ، وإما في النار ، ثم تعاد إلى بدنه فيجازى بعمله ويسكن إحدى الدارين في خلود دائم ، ثم بين هاتين الحالتين وهي ما بعد وجوده وما قبل موته حالة متوسطة وهي أيام حياته ، فانظر إلى مقدار زمانها وانسبه إلى الحالتين تعلم أنه أقل من طرفة عين •

وقد اخترت من هذه الأمثلة هذا المثال :

قال رحمه الله : « المثال الثالث لها ولأهلها في اشتغالهم بنعيمها عن الآخرة ، وما يعقبهم من الحسرات ، مثل أهلها في

غفلتهم مثل قوم ركبوا سفينة فأتته بهم الى جزيرة ، فأمرهم
الملاح بالخروج لقضاء الحاجة وجذرهم الابطاء ، وخوفهم مرور
السفينة ، ففرقوا في نواحي الجزيرة ففقد بعضهم حاجته وبادروا
الى السفينة فصادف المكان خاليا فأخذ أوسع الاماكن وألینها
وأوقفها لمراده • وتوقف بعضهم في الجزيرة ، ينظر الى أزهارها
وأنوارها العجيبة ويسمع نغمات طيورها ، ويعجبه حسن احجارها
ثم حدثته نفسه بفوت السفينة وسرعة مرورها وخطر ذهابها • فلم
يصادف الا مكانا ضيقا فجلس فيه ، وأكب بعضهم على تلك الحجارة
المستحسنة والازهار الفاتقة فحمل منها حملة فلما جاء لم يجد
بالسفينة الا مكانا ضيقا ، وزاده حملة ضيقا فصار محموله ثقلا
عليه ووبالا ، ولم يقدر على نبذه بل لم يجد من حملة بدا ، ولم
يجد له في السفينة موزعا فحملة على عنقه وندم على أخذه ، فلم
تنفعه الندامة ، ثم ذبلت الازهار وتغيرت أراييجها وآذاه تننھا ،
وتولج بعضهم في تلك الغياض ونسي السفينة ، وأبعد في نزهته
حتى إن الملاح نادى بالناس عند دفع السفينة ، فلم يبلغه صوته
لاشتغاله بسلامهيه ، فهو تارة يتناول من الثمر ، وتارة يشم تلك
الانوار ، وتارة يعجب من حسن الاشجار ، وهو على ذلك خائف
من سبع يخرج عليه غير منفك من شوك يتشبث في ثيابه ، ويدخل
في قدميه أو غصن يجرح بدنه ، أو عوسج يخرق ثيابه ، ويهتك
عورته ، أو صوت هائل يفزع • ثم من هؤلاء من لحق السفينة

ولم يبق فيها موضع فمات على الساحل ، ومنهم من شغله لهوه
فافترسته السباع ، ونهشته الحيات ، ومنهم من تاه فهام على وجهه
حتى هلك .

فهذا مثال أهل الدنيا في اشتغالهم بحضوظهم العاجلة ونسيانهم
موردهم وعاقبة أمرهم ، وما أقبح العاقل أن تغرد أحجار ونبات
يصير هشيما قد شغل باله وعوقه عن نجاته ولم يصحبه .

ومثلها بالبحر الذي لا بد للخلق من ركوبه ليقطعوه الى
الساحل .

- ومثلها بالعسل وأهلها بالذباب .
- ومثلها بالفخ فيه الحب وأهلها بالطير .
- ومثلها بالنار وأهلها تنهافت فيها كالقراش .
- ومثلها بالوادي المخصب والعدو خلفه .
- ومثلها بالماء المالح وأهلها عطاش .
- ومثلها بالمرأة الجميلة على طريق المنزل المقصود .
- ومثلها بشجرة زائلة في طريق مدينة خالدة .

ثم ختم هذا الفصل فقال : « عرضت الدنيا بحذاييرها على
النبي صلى الله عليه وسلم فدفع في صدرها باليدين ، وردها
على عقبها . ثم عرضت بعده على اصحابه وتعرضت لهم ، فمنهم
من سلك سبيله ودفعها عنه ، وهم قليل ، ومنهم من استعرضها وقال

ما فيك ؟ قالت : فيّ الحلال والشبهة والمكروه والحرام ، فقالوا هاتي حلالك ولا حاجة لنا فيما عداه فأخذوا حلالها ، ثم تعرضت لمن بعدهم ، فطلبوا حلالها فلم يجدوه فطلبوا مكروها وشبهها فقالت : قد أخذه من قبلكم فقالوا : هاتي حرامك ، فأخذوه فطلبه من بعدهم فقالت : هو في أيدي الظلمة قد استأثروا به عليكم فتحيلوا على تحصيله منهم بالرغبة والرغبة ، فلا يمد فاجر يده الى شيء من الحرام الا وجد أفجر منه وأقوى قد سبقه اليه هذا وكلهم ضيوف وما بأيديهم عارية فالضيف مرتحل ، والعارية مستردة » •

ولكي لا يفهم من كلامه انه يدعو الى الاعراض عن الدنيا والزهد فيها والكسل والخمول ، عقب على ما ذكر بأحاديث الاخلاص لله في العمل دون أن يشرك بعبادته وزهده سبعة أو رياء ، واختار من باب الاخلاص أحاديث الجهاد فقال : وفي المسند وسنن النسائي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من غزا في سبيل الله عز وجل وهو لا ينوي في غزاته الا عقلا فله ما نوى » وفي المسند والسنن عن يعلى بن منية قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثني في سرايا ، فبعثني ذات يوم في سرية وكان رجل يركب بغلا ، فقلت له : ارحل فان النبي صلى الله عليه وسلم بعثني في سرية ، فقال : ما انا بخارج معك حتى تجعل لي

ثلاثة دنانير ، ففعلت فلما رجعت من غزاتي ، ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: « ليس له من غزاته هذه ومن دياه وآخرته الا ثلاثة دنانير » .

وفي سنن ابي داود أن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال يا رسول الله اخبرني عن الجهاد والغزو فقال : « يا عبد الله ابن عمرو ان قاتلت صابرا محتسبا ، بعثك الله صابرا محتسبا ، وان قاتلت مراثيا مكاثرا بعثك الله مراثيا مكاثرا ، يا عبد الله ابن عمرو على أي حال قاتلت او قتلت بعثك الله على تلك الحال » .

وهكذا لئلا يفهم من كلامه انه يدعو الى الفقر والذلة والمسكنة ، فقد ذكر في الفصل الذي عقده لاحتجاج الاغنياء الصالحين المنفقين من اموالهم في مرضاة الله ، ذكر آيات واحاديث وشذرات مستعة من سيرة السلف الصالح وبين ان الاتفاق في سبيل الله ، ربما كان اعلى درجة من الجهاد بالنفس لذلك قال : والجهاد ذروة سنام العسل ، فتارة يكون بالنفس ، وتارة يكون بالمال ، وربما كان الجهاد بالمال انكى وانفع .

وبأي شيء فضل عثمان على علي ، وعلي اكثر منه جهادا بنفسه وأسبق اسلاما من عثمان ، وهذا الزبير وعبد الرحمن بن عوف افضل من جمهور الصحابة مع الغنى الوافر . وتأثيرهم في الدين اعظم من تأثير اهل الصفة وقد استعاذ رسول الله

صلى الله عليه وسلم من الفقر وقرنه بالكفر فقال : اللهم اني
 اعوذ بك من الكفر والفقر •• ونحن لا ننكر ان رسول الله
 صلى الله عليه وسلم كان فقيرا ثم اغناه الله ، والله فتح
 عليه وخوله ووسع عليه ، وكان يدخر لاهله قوت سنة ، ويعطي
 العطايا التي لم يعطها احد غيره ، وكان يعطي عطاء من لا يخاف
 الفقر • ومات صلى الله عليه وسلم عن فذك والنضير واموال
 خصه الله بها ، وقال تعالى : « ما أفاء الله على رسوله من
 أهل القرى : فلله وللرسول • » فنزله ربه سبحانه عن الفقر الذي
 يسوغ أخذ الصدقة • وعوضه عما نزهه عنه بأشرف المال واحله
 وافضله ، وهو ما أخذ بظل رمحه قائم سيفه من اعداء الله الذين
 كان ما الله بأيديهم ظلما وعدوانا ، فانه خلق المال ليستعان به
 على طاعته وهو بأيدي الكفار والفجار ظلما وعدونا فاذا رجع الى
 اوليائه وأهل طاعته فاء اليهم ما خلق لهم • ولكن لم يكن غنى رسول
 الله صلى الله عليه وسلم وملكه من جنس غنى بني الدنيا
 واملاكهم • فان غناهم بالشيء ، وغناه صلى الله عليه وسلم عن
 الشيء • وهو الغني العالي وملكهم ملك يتصرفون فيه بخسب
 ارادتهم وهو صلى الله عليه وسلم انما يتصرف في ملكه تصرف
 العبد الذي لا يتصرف الا بأمر سيده •

ثم ذكر اختلاف الفقهاء في حكم ما أفاء الله على رسوله

من اهل القرى • هل كان ملكا للنبي صلى الله عليه وسلم على قولين وهما روايتان عن احمد والتحقيق ان ملكه له كان نوعا آخر من الملك • وهو ملك يتصرف فيه بالامر كما قال صلى الله عليه وسلم : « والله لا أعطي احدا ولا امنع احدا ، انما انا قاسم اضع حيث امرت » •

ثم جعل لكتابه خاتمة يدعو بها من اراد السفر الى الله ، وناداهم نداء الناصح الحكيم ، والاب الرحيم : فقال : (يا من عزم على السفر الى الله والدار الآخرة قد رفع لك علم فشمري اليه فقد امكن التشير • • نهج للعبد طريق النجاة وفتح له ابوابها . وعرفه طرق تحصيل السعادة ، واعطاه اسبابها ، حذره من وبال معصيته ، وأشهدته في نفسه وفي غيره شؤمها وعقابها ، وقال ان اطعت فبفضلي وأنا اشكر . وان عصيت فبقضائي وأنا اغفر ، ان من الزلل ، ان ربنا لغفور شكور •

ازاح عن العبد العلل ، وامره ان يستعيز به من العجز والكسل ، ووعدته ان يشكر له القليل من العمل ، ويغفر له الكثير . من الزلل : ان ربنا لغفور شكور •

اعطاه ما يشكر عليه ثم يشكره على احسانه لنفسه ، لاعلى احسانه اليه ، ووعدته على احسانه لنفسه ان يحسن جزاءه ويقربه لديه ، وان غفر له خطاياها اذا تاب منها ولا يفضحه بين يديه ان

ربنا لغفور شكور •

يجود على عبده بالنوال قبل السؤال ، ويعطي سائله ومؤمله فوق ما تعلق به منهم الآمال ، ويغفر لمن تاب اليه ولو بلغت ذنوبه عدد الامواج ، والحصى والتراب والرمال ، ان ربنا لغفور شكور •

افاض على خلقه النعمة . وكتب على نفسه الرحمة ، وضمن الكتاب الذي كتبه ان رحمته تغلب غضبه ان ربنا لغفور شكور • يطاع فيشكر . وطاعته من توفيقه وفضله ، ويعصى فيحلم ومعصية العبد من ظلمه وجهله ، ويتوب اليه فاعل القبيح فيغفر له حتى كأنه لم يكن قط من اهله ، ان ربنا لغفور شكور •

الحسنة عنده بعشر امثالها ، او يضاعفها بلا عدد ولا حسابان والسيئة عنده بواحدة ومصيرها الى العفو والغفران ، وباب التوبة مفتوح لديه منذ خلق السموات والارض الى آخر الزمان ان ربنا لغفور شكور •

خاياك ايها المتسرد ان يأخذك على غرة ، فانه غيور واذا أقمت على معصية ، وهو يبدك بنعمته فاحذره ، فانه لم يهلك لكنه صبور وبشراك ايها التائب بسفرفته ورحمته انه غفور شكور • من علم ان الرب شكور تنوع في معاملته ، ومن علم انه واسع المغفرة تعلق بأذيال مغفرته ، ومن علم ان رحمته سبقت غضبه ، لم ييأس من رحمته ان ربنا لغفور شكور •

فأهل شكره أهل زيادته . وأهل ذكره أهل مجالسته ، وأهل طاعته أهل كرامته . وأهل معصيته لا يقنطهم من رحمته ، أن تابوا فهو حبيبهم وإن لم يتوبوا فهو طيبهم ، يتليهم بأنواع المصائب فيكفر عنهم الخطايا ويظهرهم من المصائب ، أنه غفور شكور .

والحمد لله رب العالمين حمدا طيبا مباركا فيه كما يحب ربنا ويرضى ، وكما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله حمدا يملأ السموات والارض وما بينهما . وما شاء ربنا من شيء بعد بمجامع حمده كلها ما علمنا منها وما لم نعلم على نعمه كلها ما علمنا منها وما لم نعلم ، عدد ما حمده الحامدون وغفل عن ذكره الغافلون .

والآن بعد أن قطعنا شوطا بعيدا مع الامام ابن القيم نتقلب بين الشكر والصبر ، ورأينا من فرائد فوائده ، وغرائب عجائبه ، وبدائع استنباطاته لمعاني آيات الصبر ، وآيات الشكر ، مما لم يسبق اليها وقل أن تجدها في تفسير ، مهما تنوعت مناهج التفسير ، ندعه يأخذ بأيدينا ويحدونا الى بلاد الافراح التي اعدّها الله تعالى للصابرين حقا ، والساكرين صدقا ، نتقل اليها بخيالنا ونبصرها بنور ايماننا نعم فيها مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا .

فمهما حاولت الكتابة في هذا الموضوع فكلامي مما يسطره
القلم من وحي الجنان ، وان زانه فصيح العبارة وسحر البيان ،
اما ما حبره يراع ابن القيم فهو نابع من قلب ملؤه الايمان ،
يشع عليه نور الجنان ، وذلك لطول تهجده والتزامه باب
الملك الديان .

هذا وقد آن الاوان بعدما رأينا من نفحات ابن القيم
الروحية تفيض على قلوبنا لتزودنا ب زاد التقوى ، الذي هو خير
زاد ، ندعه يأخذ بأيدينا ويرشدنا في سيرنا الى منازل السعداء في
دار السلام ويحده أرواحنا الى بلاد الافراح .

مع الإمام ابن القيم في كتابه حادي الأرواح الى بلاد الأفراح :

للإمام ابن القيم رحمه الله في كل علم من علوم المسلمين مؤلفات ، منها المجلد ومنها ما بلغ المجلدات ، ولو أنك أخذت أي كتاب من مؤلفاته سواء أكان بالعلوم أو الفنون أو الآداب أو اللغة ، لوجدت الروحانية الخالصة تفيض عليك من بين سطوره ، إذ أنه لم يكتب بالعقل مجردا عن الروح ، فكل ما حبره يراعه يقصد به التقرب الى الله بإيقاظ الهمم الفاترة ، لتأخذ سمتها الى الدار الآخرة دار القرار .

فالعلم عنده وسيلة للعمل ، مهما كان نوعه فاللغة بشتى فروعها وسيلة لتصحيح اللسان الذي هو أداة الذكر وتنبية العقل لتصحيح ما يقرأ ليكون الفهم صحيحا واضحا ، والقرآن والحديث والتفسير والفقه لتصحيح العمل ليكون مقبولا ، والرقائق لتصحيح القلب ليكون مخلصا في أداء ما يجب عليه من عبادة ربه ، فان تنكب طالب العلم هذا المنهج كان علمه حجة

عليه لا له ، والمطالع لكتبه يرى هذه الفكرة ظاهرة يرددها في أكثر المواضع بأساليب وتعابير حسب ما يقتضيه المقام ، والآن حان الشروع للمسير معه الى بلاد الافراح .

وصف الكتاب نتركه للمؤلف لأنه أعلم بما فيه :

قال رحمه الله : وهذا كتاب اجتهدت في جمعه وترتيبه وتفصيله وتبويبه ، فهو للمحزون سلوة ، وللمشتاق الى تلك العرائس جلوة ، محرك للقلوب ، الى أجلّ مطلوب ، وحاد للنفوس ، الى مجاورة الملك القدوس ، ممتع لقارئه ، مشوق للناظر فيه ، لا يسأمه الجليس ، ولا يمله الانيس ، مشتمل على بدائع الفوائد ، وفرائد القلائد ، على ما لعل المجتهد في الطلب لا يظفر به فيما سواه من الكتب ، مع تضمينه لجملة كثيرة من الاحاديث المرفوعات والآثار الموقوفات ، والاسرار المودعة في كثير من الآيات ، والنكت البديعات ، وإيضاح كثير من المشكلات ، والتنبيه على أصول من الاسماء والصفات ، اذا نظر فيه الناظر زاد إيمانا ، وجلّى عليه الجنة حتى كأنه يشاهدها عياناً ، فهو مثير ساكن العزمات ، الى روضات الجنات ، وباعث الهمم العليات الى العيش الهني في تلك الغرفات

وكان جل المقصود منه بشارة أهل السنة ، بما أعد الله

لهم في الجنة ، فانهم المستحقون للبشرى ، في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ونعم الله عليهم باطنة وظاهرة ، وهم أولياء الرسول وحزبه ، ومن خرج عن سنته فهم أعداؤه وحربه ، لا تأخذهم في نصره سنته ملامة اللوام ، ولا يتركون ماصح عنه القول لقول أحد من الانام ، والسنة أجل في صدورهم من أن يقدموا عليها رأياً فقهياً ، أو بحثاً جدلياً ، أو خيالاً صوفياً ، أو تناقضاً كلامياً ، أو قياساً فلسفياً ، أو حكماً سياسياً ، فمن قدم عليها شيئاً من ذلك فباب الصواب عليه مسدود ، وهو عن طريق الرشاد مسدود ، فيا أيها الناظر فيه لك غنمه ، وعلى مؤلفه غرمه ، ولك صفوه ، وعليه كدره ، وهذه بضاعته المزجاة تعرض عليك ، وبنات أفكاره تزف اليك ، فإن صادفت كفاء كريماً لم تعد منه إمساكاً بمعروف ، أو تسريحاً باحسان ، وإن كان غيره فالله المستعان ، فما كان من صواب فمن الواحد المنان ، وما كان من خطأ فمني ومن الشيطان ، والله بريء منه ورسوله » •

وجعله سبعين باباً وجعل لبعض الابواب بعض الفصول إذا دعت الحاجة للشرح والايضاح والاستطراد بحيث لا يخرج عن موضوع الباب ، فجعل الباب الاول لبيان وجود الجنة الآن ، رداً على المعتزلة والقدرية القائلين بعدم وجودها الآن ، وأن الله ينشئها يوم القيامة ، فقال رحمه الله : « لم يزل

أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتابعون وتابعوهم وأهل السنة والحديث قاطبة ، وفقهاء الاسلام ، وأهل التصوف والزهد ، على اعتقاد وجودها الآن ، وإثبات ذلك مستندين في ذلك الى نصوص الكتاب والسنة ، وما علم بالضرورة من أخبار الرسل كلهم ، من أولهم الى آخرهم ، فإنهم دعوا الامم اليها وأخبروا بها ، الى أن نبغت نابغة من القدرية والمعتزلة فأنكرت أن تكون مخلوقة الآن ، وقالت : بل الله ينشئها يوم القيامة ، وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة ، فيما يفعله الله ، وأنه ينبغي له أن يفعل كذا ، ولا ينبغي له أن يفعل كذا ، وقاسوه على خلقه في أفعالهم ، فهم مشبهة في الافعال ، ودخل التجهم ^(١) فيهم فصاروا معطلة في الصفات ، وقالوا : خلق الجنة قبل الجزاء عبث ، فإنها تصير معطلة مدداً متطاولة ، ليس فيها سكانها ، قالوا : ومن المعلوم أن ملكاً لو اتخذ داراً وأعد فيها من الوان الاطعمة والآلات والمصالح ،

(١) التجهم : مذهب الجهمية . نسبة الى جهنم بن صفوان الراسبي الترمذي السمرقندي القائل : بالجبرية ، اي الانسان مسير لا مخير ، والقائل بنفي الصفات صفات الباري عز وجل ، اي ان الله سميع بلا سمع عليم بلا علم الخ . وكتب الامام ابن القيم مشحونة بالرد على هؤلاء المعطلة وله كتاب مفرد في الرد عليهم هو « الصواعق المرسلة » .

وعظلها من الناس ولم يمكنهم من دخولها قروناً متطاولة لم يكن ما فعله واقعاً على وجه الحكمة ، ووجد العقلاء سبيلاً الى الاعتراض عليه ، فحجروا على الرب تعالى بعقولهم الفاسدة وآرائهم الباطلة ، وشبهوا أفعاله بأفعالهم ، وردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب أو حرفوها عن مواضعها ، وضللوا وبدعوا من خالفهم فيها ، والتزموا فيها لوازم أضحكوا عليهم فيها العقلاء ... كما ذكر ذلك أبو الحسن الاشعري في مقالاته » •

ثم أورد عقيدة ابي الحسن الاشعري وما يدين به المسلمون مقرأ له بكل ما جاء فيها بلا تعقيب ولا تفسير ، وهو دليل على ما يعتقد من صفات الله عز وجل ، سواء أكانت صفات ذات أو صفات معنى وهذا أكبر دليل ورد على من نسب اليه التجسيم ممن لم يفهم كلامه أو كان إمعة لم يقرأ له شيئاً من ذلك ، فقال : قال أبو الحسن الاشعري في كتابه مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين « جملة ما عليه أصحاب الحديث وأهل السنة ، الاقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وما جاء من عند الله وما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يردون من ذلك شيئاً ، وأذن الله تعالى إليه واحد فرد صمد لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأن محمداً

عبدہ ورسولہ وأن الجنة حق ، وأن النار حق ، وأن الساعة آتية
لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور » •

« وأن الله تعالى على عرشه كما قال : « الرحمن على
العرش استوى » وأن له يدين بلا كيف كما قال « خلقت بيدي »
وكما قال : « بل يدها مبسوطتان » وأن له عينين بلا كيف قال :
« تجري بأعيننا » وأن له وجهاً كما قال : « ويبقى وجه ربك ذو
الجلال والاكرام » •

وأن أسماء الله تعالى لا يقال : إنها غير الله كما قالت المعتزلة
والخوارج ، وأقروا أن لله علماً ، كما قال : « أنزله بعلمه »
وكما قال : « وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه » وأثبتوا
السمع والبصر ولم ينفوا ذلك عن الله كما يعتقد المعتزلة ،
وأثبتوا لله القوة كما قال : « أو لم يروا أن الله الذي خلقهم
هو أشد منهم قوة » وقالوا انه لا يكون في الارض من خير ولا
شر إلا ما شاء الله ، وأن الاشياء تكون بمشيئة الله كما قال
تعالى : « وما تشاؤون إلا أن يشاء الله » وكما قال المسلمون :
ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وقالوا : — أي المسلمون —
إن أحداً لا يستطيع أن يفعل شيئاً قبل أن يفعله ، أو يكون أحد
يقدر أن يخرج عن علم الله وأن يفعل شيئاً ، علم الله انه لا يفعله •

وأقروا أنه لا خالق إلا الله تعالى ، وإن أفعال العباد يخلقها الله تعالى وأن العباد لا يقدرُونَ أن يخلقوا شيئاً ، وأن الله تعالى وفق المؤمنين لطاعته وخذل الكافرين ولطف بالمؤمنين ونظر لهم وأصلحهم وهداهم ، ولم يلطف بالكافرين ولا أصلحهم ولا هداهم ، ولو أصلحهم لكانوا صالحين ، ولو هداهم لكانوا مهتدين ، وأن الله تعالى يقدر أن يصلح الكافرين ويلطف بهم حتى يكونوا مؤمنين ، ولكنه أراد أن يكونوا كافرين كما علم وخذلهم وأضلهم وطبع على قلوبهم ، وأن الخير والشر بقضاء الله وقدره ، ويؤمنون بقضاء الله وقدره خيره وشره حلوه ومره ، ويؤمنون بأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً إلا ما شاء الله كما قال (قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرراً إلا ما شاء الله) ويلجؤون أمرهم الى الله ، ويشتون الحاجة الى الله في كل وقت ، والفقر الى الله في كل حال ، ويقولون ان القرآن كلام الله غير مخلوق ، والكلام في الوقف واللفظ ، فمن قال باللفظ أو بالوقف فهو مبتدع عندهم — أي المسلمين — فلا يقال : للفظ بالقرآن مخلوق ، ولا يقال غير مخلوق .

ويقولون : ان الله تعالى يرى بالأبصار يوم القيامة ، كما يرى القمر ليلة البدر ، ويراه المؤمنون ولا يراه الكافرون ، لأنهم عن الله تعالى محجوبون ، قال تعالى : « كلا إنهم عن

ربهم يومئذ لمحجوبون » وأن موسى سأل الله تعالى الرؤية في الدنيا ، وأن الله تعالى تجلى للجبل فجعله دكا ، فأعلمه بذلك أنه لا يراه في الدنيا بل يراه في الآخرة . ولا يكفرون أهل القبلة بذنب يرتكبه ، كنحو الزنى والسرقة وما أشبه ذلك من الكبائر ، وهم بما معهم من الايمان مؤمنون وإن ارتكبوا الكبائر ، والايمان عندهم هو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقدر خيره وشره حلوه ومره (وباليوم الآخر) وأن ما أخطأهم لم يكن ليصيبهم ، وأن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم .

ثم قال : والاسلام هو أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله كما جاء في الحديث ، والاسلام عندهم — عند المسلمين — غير الايمان ويقرون بأن الله مقلب القلوب . ويقرون بشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنها لأهل الكبائر من أمته ، وبعداب القبر ، وأن الحوض حق ، والصراط حق ، والبعث بعد الموت حق ، والمحاسبة من الله لعباده حق ، والوقوف بين يدي الله تعالى حق ، ويقرون بأن الإيـمان قول وعمل يزيد وينقص ، ولا يقولون مخلوق ولا غير مخلوق ، ويقولون : أسماء الله هي الله تعالى ولا يشهدون على أحد من أهل الكبائر بالنار ، ولا يحكمون بالجنة لأحد من الموحدين حتى يكون الله تعالى ينزلهم حيث شاء ، ويقولون أمرهم الى الله إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم ، ويؤمنون بأن الله تعالى

يخرج قوماً من الموحدين من النار على ما جاءت به الروايات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينكرون الجدل والمراء في الدين ، والخصومة في القدر ، والمناظرة فيما يتناظر فيه أهل الجدل ، ويتنازعون فيه من دينهم بالتسليم للروايات الصحيحة ، ولما جاءت به الآثار التي رواها الثقات عدلاً عن عدل حتى ينتهي ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يقولون كيف ؟ ولا لم ؟ لأن ذلك بدعة ، ويقولون إن الله تعالى لم يأمر بالشرك بل نهى عنه ، وأمر بالخير ، ولم يرض بالشرك ، وإن كان مريداً له ، ويعرفون حق السلف الذين اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ويأخذون بفضائلهم ، ويمسكون عما شجر بينهم . صغيرهم وكبيرهم . ويقدمون أبا بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علياً رضي الله عنهم ، ويقرون بأنهم الخلفاء الراشدون المهديون . وأنهم أفضل الناس كلهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويأخذون بالكتاب والسنة كما قال تعالى « فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ » ويرون اتباع من سلف من أئمة الدين ، وأن لا يتبعوا في دينهم ما لم يأذن به الله . ويقولون بأن الله تعالى يجيء يوم القيامة كما قال : « وجاء ربك والملك صفاً صفاً » وأن الله تعالى يقرب من خلقه كيف شاء كما قال : « ونحن أقرب إليه من حسب الوريد » .

ويرون العيدين والجمعة والجماعة ، خلف كل امام بر أو فاجر ويشبتون المسح على الخفين سنة ، ويرونه في الحضر والسفر ، ويتبعون فرض الجهاد للمشركين ، منذ بعث الله نبيه الى آخر عصابة ، تقاتل الدجال وبعد ذلك يرون الدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح ، وأن لا يخرج عليهم بالسيف وأن لا يقاتلوا في الفتنة ، ويصدقون بخروج الدجال ، وأن عيسى بن مريم عليه السلام يقتله ، ويؤمنون بمنكر ونكير والمعراج ، والرؤيا في المنام ، وأن الدعاء لموتى المسلمين والصدقة عنهم بعد موتهم تصل اليهم ، ويصدقون أن في الدنيا سحرة ، وأن الساحر كافر ، كما قال تعالى « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلسون الناس السحر » وأن السحر كائن موجود في الدنيا ، ويرون الصلاة على كل من مات من أهل القبلة : مؤمنهم وفاجرهم • ويقولون أن الجنة والنار مخلوقتان وأن من مات مات بأجله ، وكذلك كل من قتل قتل بأجله ، وأن الارزاق من قبل الله تعالى يرزقها عباده حلالا كانت أو حراما ، وأن الشيطان يوسوس للإنسان ويشككه ويخطئه ، وأن الصالحين قد يجوز أن يخصهم الله تعالى بآيات تظهر عليهم ، وأن السنة لا تنسخ القرآن وأن الاطفال أمرهم الى الله إن شاء عذبهم وإن شاء فعل بهم ما أراد ، وأن الله تعالى عالم ما العباد عاملون .

وكتب ان ذلك يكون ، وأن الامور بيد الله تعالى ، ويرون الصبر على حكم الله ، والاخذ بما أمر الله تعالى ، والانتفاء عما نهى الله عنه ، واخلاص العمل لله والنصيحة للمسلمين ، ويدينون بعبادة الله في العاقلين ، والنصيحة لجماعة المسلمين ، واجتناب الكبائر والزنى وقول الزور والمعصية والفخر والكبر والازدراء على الناس والعجب ، ويرون مجانية كل داع الى بدعة ، والتشاغل بقراءة القرآن ، وكتابة الآثار والنظر في الفقه مع التواضع والاستكانة وحسن الخلق ، وبذل المعروف وكف الأذى وترك الغيبة والنسيئة والسعاية ، وتقتد المآكل والمشارب . «فهذه جملة ما يأمرون به ويستعملونه ويرونه ، وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول ، وإليه نذهب وما توفيقنا إلا بالله وهو حسبنا ونعم الوكيل وبه نستعين وعليه نتوكل وإليه المصير .

ثم قال الامام ابن القيم رحمه الله : « وسقنا جملة كلامه ^(١) ليكون الكتاب مؤسساً على معرفة من يستحق البشارة المذكورة ، وأن أهل هذه المقالة هم أهلها وبأنه التوفيق »

(١) الضمير في (كلامه) يعود على أبي الحسن الاشعري في مقالاته .

أقول : ونحن نقلناها برمتها لنبين عقيدة أهل السنة وأن هذه العقيدة هي ما يعتقدہ الامام ابن القيم من حيث صفات الله عز وجل سواء أكانت صفات ذات أم صفات معنى وأنه رضي الله عنه خلاف ما يشنع عليه خصومه من أنه مشبه أو مجسم ، فهذه كتبه مشحونة بالرد على المشبهة والمجسمة ، يذكر ذلك قصدا واستطراداً •

أما الذين يشيعون عنه التشبيه والتجسيم فهم أحد اثنين ، إما رجل لم يفهم المقصود من كلامه ، أو فهمه ولكن يغالط ليقال إنه رد على الامام ابن القيم ، هذا واحد ، وإما أن يكون إمعة يقول ما قاله غيره من غير أن يكلف نفسه عناء مطالعة ما كتب ابن القيم في هذا الموضوع ، ونحن اظهرا للحقيقة التي لبست على كثير من الناس نذكر عقيدته التي هي عقيدة السلف الصالح من حيث صفات الله عز وجل والتي فهمناها من كتبه فنقول باختصار :

إن الله سبحانه وتعالى ذكر لنفسه في كتابه وذكر له رسوله الكريم فيما نقل عنه في الاحاديث الصحيحة صفات تتفق من حيث الاسماء فقط مع صفات المخلوقين فذكر عن نفسه في كتابه أن له سبحانه وتعالى وجهاً وعيناً ويدين فقال تعالى : « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » وقال : (ولتصنع

على عيني) وقال : « بل يدها مبسوطتان » وذكر له النبي
الكريم صلى الله عليه وسلم من هذه الصفات الاصبع والاصابع
كما ورد في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم من حديث عبد
الله بن عمرو وحديث جهنم عندما تطلب المزيد . فيضع الجبار
قدمه فيها فتقول قط قط وفي رواية : قطني قطني .

ولا بد قبل تبسيط الكلام في هذه المسألة من تقرير
قاعدتين اثنتين ، يجعلهما الباحث في هذا الموضوع نصب عينيه ،
كلما مر على ذكر صفة من صفات الباري سواء أكانت صفة
ذات أو صفة معنى ، وهاتان القاعدتان هما :

١ - ما روي عن إمام دار الهجرة سيدنا مالك بن أنس
رضي الله عنه عندما سئل عن معنى « الرحمن على العرش
استوى » فقال جوابه المشهور : الاستواء معلوم ، والكيف
مجهول ، والايان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

٢ - من المعلوم البدهي : أن الصفات تتبع الذوات
وتختلف باختلافها ، فالانسان والحيوان والجناد والمعاني ذوات
ولكل ذات منها صفات ثلاثها ، مثاله تقول : وجه الانسان
وجه الغزال ، وجه الساء ، وجه المسألة ، فالانسان والغزال
والساء والمسألة ذوات ، ولكنها مختلفة الذوات فوجب أن
تختلف صفاتها ، فوجه الانسان لا يشابه وجه الغزال ووجه

الساء لا يشبه وجه المسألة . فإذا تقرر أن الصفات تتبع
الذوات وتختلف باختلافها ، فإن كانت الذات معلومة كالإنسان
والحيوان كانت الصفات معلومة وإن كانت الذات - معنى -
كالمسألة ، كانت الصفات تابعة لها ، فوجهها معنى لا يدرك
بالحواس الظاهرة •

وأيضاً للقاعدة الثانية إليك ما روي عن عبد الله بن
عباس رضي الله عنهما حيث يقول : ليس في الآخرة مما في الدنيا
إلا الاسماء • أي : أن في الآخرة طعاماً وشراباً ولباساً وفاكهة
مختلفة وأطياراً وأنهاراً إلى غير ذلك ، فتتفق تلك مع مثيلات لها في
الدنيا في الاسم فقط . أما حقيقتها فلا تعلم لأنها لا تزال مجهولة
لأننا لما نلبسها الآن ولم نذوقها بعد ، فطعام أهل الدنيا وشرابها
ولباسها معروف مصيره ، أما طعام وشراب ولباس ونكاح
الآخرة لا تزال كفيته مجهولة وبعد :

فإذا تقرر لديك ذلك نقول : إننا نؤمن بوجود الله ،
إله واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد
وأن ذات الله مجهولة لدينا وقد أمرنا أن نتفكر في آلاء الله ،
ونهيها عن أن نتفكر في ذات الله ، كما صح عن سيدنا رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا كانت الذات الإلهية مجهولة
لدينا فكذلك كيفية صفاتها مجهولة لدينا ، فنحن نؤمن بكل

ما ورد في صفات الله سواء أكانت بكتاب الله عز وجل أم بما صح من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بلا كيف ، وتؤمن بما ورد وصح من المغيبات كالعرش والكرسي ، وسدرة المنتهى والحجب وتؤمن بصفات الرب سبحانه وتعالى الذاتية كالوجه والعين واليد والقدم ، وصفاته المعنوية كالسمع والبصر والقدرة والعلم والحياة والرحمة والحلم والغضب ولكن بلا تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه .

ولا ننفي عنه سبحانه وتعالى ما وصف به نفسه من صفات ، كما فعلت المعتزلة والمعتلة القائلة : عليم بلا علم ، سميع بلا سمع ، بصير بلا بصر . ولا نقول : إن هذه الصفات مجاز لا حقيقة ، فنجعله - أستغفر الله - عدماً ، ولا نقول : إن هذه الصفات صفات حقيقية كصفات المخلوقين أي وجه كوجهنا ويد كيدنا وعين كعيننا فنجعله صنماً : فهذا ما فهمته ويفهمه كل من قرأ كتبه ^(١) بتمعن وروية ونزاهة وهو ما كان يعتقد سلف هذه الأمة الذين هم خير البشر .

وفي تقديري أن هذا كاف لكل منصف طالب للحقيقة ، أما الذين فطروا على الجدل والمراء لو أتيتهم بكل آية ما تبعوا

(١) الضمير يعود لابن القيم .

رأي أحد ، لأن أهواءهم سيطرت على عقولهم فلا يرون الحقيقة
الناصرة إلا من خلال الأهواء والاغراض •

عودة الى ابن القيم ليأخذ بأيدينا الى بلاد الافراح في كتابه
حادي الارواح :

بعد أن أثبت وجود الجنة الآن ذكر اختلاف العلماء في
الجنة التي أسكنها الله آدم عليه السلام ، هل هي جنة الخلد أم
جنة أخرى ، ثم ذكر حجج من قال إنها جنة الخلد ، ودليلهم
ما جاء في قصة آدم وإخراجه من الجنة • كما وردت في سورة
البقرة ، قال تعالى : « وإذ قلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك
الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا
من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا
اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى
حين » فهذا يدل على أن هبوطهم كان من الجنة الى الأرض من
وجهين : أحدهما : من لفظة اهبطوا فإنه نزول من علو الى سفلى
والثاني: قوله : ولكم في الأرض مستقر عقب قوله : « اهبطوا »
فدل ذلك على أنهم لم يكونوا قبل ذلك في الأرض ، ثم أكد ذلك
بقوله في سورة الاعراف : « قال فيها تحيون وفيها تموتون
ومنها تخرجون » ولو كانت الجنة في الأرض لكانت حياتهم
فيها قبل الاخراج وبعده •

قالوا : وقد وصف الله سبحانه جنة آدم بصفات لا تكون إلا في جنة الخلد فقال « إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنت لا تظمأ فيها ولا تضجى » وهذا لا يكون في الدنيا أصلاً .

ثانيا ما رواه مسلم في صحيحه عن حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يجمع الله تعالى الناس فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة ، فيأتون آدم عليه السلام ، فيقولون يا أبانا استفتح لنا الجنة ، فيقول : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم » وما جاء في الصحيحين من حديث احتجاج آدم وموسى وقول موسى أخرجتنا ونفسك من الجنة » .

وقالوا : الجنة جاءت معرفة بلام التعريف في جميع المواضع كقوله : « اسكن أنت وزوجك الجنة » ونظائره ، ولا جنة يعدها المخاطبون ويعرفونها الا جنة الخلد التي وعد الرحمن عباده بالغيب ، فقد صار هذا الاسم علما عليها بالغلبة ، ولا يرد علينا قوله تعالى : « انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة » فانها وان جاءت هنا معرفة لكنها مقيدة من السياق بما يدل على أنها جنة في الارض .

ثم ذكر حجج القائلين انها ليست جنة الخلد وانما هي جنة في الارض فقال : هذا قول تكثر الدلائل الموجبة للقول به فنذكر بعضها قالوا قد اخبر الله سبحانه على لسان جميع رسله أن جنة

الخلد اننا يكون الدخول اليها يوم القيامة ، ولم يأت زمن دخولها بعد ، وقد وصفها الله سبحانه وتعالى لنا في كتابه بصفاتها ومحال أن يصف الله سبحانه وتعالى شيئاً بصفة ثم يكون ذلك الشيء بغير تلك الصفة التي وصفه بها ، قالوا : وجدنا الله تعالى وصف الجنة التي اعدت للمتقين بأنها دار المقامة فمن دخلها أقام بها ولم يقيم آدم بالجنة التي دخلها •

ووصفها بأنها جنة الخلد وآدم لم يخلد فيها •
ووصفها بأنها دار ثواب جزاء لا دار تكليف وأمر ونهي •
ووصفها بأنها دار سلامة مطلقة لا دار ابتلاء وامتحان وقد ابتلي آدم فيها بأعظم الابتلاء •

ووصفها بأنها دار لا يعصى الله فيها أبداً ، وقد عصى آدم ربه في جنته التي دخلها •

ووصفها بأنها ليست دار خوف ولا حزن وقد حصل للأبوين فيها من الخوف والحزن ما حصل •

وسماها دار السلام ولم يسلم فيها الابوان من الفتنة ودار القرار ، ولم يستقرا فيها •

وقال في داخلها : « وما هم منها بمخرجين » وقد أخرج الابوان منها •

وقال « لا يسهم فيها نصب » ، وقد ند فيها آدم هارباً فاراً وطلق يخصف ورق الجنة على نفسه •

وأخيراً : إنه لا لغو فيها ولا تأثيم ، وقد سمع فيها آدم لغو ابليس واثمه •

وقالوا : وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن آدم عليه السلام نام في جنته ، وجنة الخلد لا نوم فيها بالنص واجماع المسلمين ، فان النبي صلى الله عليه وسلم سئل « أينام أهل الجنة في الجنة ؟ قال : لا ، النوم أخو الموت والنوم وفاة » وقد نطق به القرآن ، والوفاة تقلب حال ، ودار السلام مسلمة من تقلب الاحوال ، والنائم ميت أو كالميت •

وقالوا : لا نزاع ان الله سبحانه وتعالى خلق آدم في الارض ، ولم يذكر في موضع واحد أنه نقله الى السماء بعد ذلك ولو كان نقله بعد ذلك الى السماء لكان هذا أولى بالذكر ، لأنه من أعظم الآيات ، ومن أعظم النعم ، وقد أخبر ملائكته أنه جاعله في الارض خليفة •

قالوا : ولو لم يكن معنا في المسألة إلا أن الله سبحانه أهبط ابليس من السماء حين امتنع من السجود لآدم عليه السلام — وهذا أمر تكوين لا يمكن وقوع خلافه — ثم ادخل آدم عليه السلام الجنة بعد هذا ، فان الامر بالسجود كان عقب خلقه من غير فصل فلو كانت الجنة فوق السموات لم يكن لابليس سبيل الى صعوده اليها وقد أهبط منها •

ثم قال : وأما تلك التقادير التي قدرتموها فتكلفت ظاهرة
كقول من قال : يجوز أن يصعد إليها صعوداً عارضاً لا مستقراً
وقول من قال : أدخلته الحية •
وقول من قال : دخل في أجوافها •

وقول من قال : يجوز أن تصل وسوسته إليهما وهو في
الأرض وهما فوق السماء •

ولا يخفى ما في ذلك من التعسف والتكلف البعيد وهذا
بخلاف قولنا فانه سبحانه لما أهبطه من ملكوت السماء حيث لم
يسجد لآدم عليه السلام ، اشرب عداوته فلما أسكنه جنته حسده
عدوه وسعى بكيدته وغروره في اخراجه منها ، والله أعلم •

ثم ذكر ابن القيم رحمه الله جواب أرباب هذا القول
لأصحاب القول الأول وفنده فقرة فقرة بما يربو على عشر
صفحات •

وانه ليأخذك العجب عندما تقرأ لهذا الجبر العظيم تقرير
مسألة ما - قبل اطلاعك على عنوانها - تعتقد أن ما يقوله الحق
كل الحق ولا يمكن لاحد الرد عليه فاذا ما أشبع المسألة أدلة
وحججا من كتاب الله تعالى وسنة رسوله الكريم صلى الله عليه
وسلم ، وما ذكره أئمة هذا الشأن أخذ بسرد أقوال النافين لها

ان كانت المسألة مسألة اثبات أو اخذ بسرد المثبتين لها ان كانت المسألة مسألة نفي ، يشرع بالرد عليها وتقنيدها وتأويل الآيات وتفسيرها بما ورد لها من نظائر في القرآن الكريم وتفسيرها حسب قواعد اللغة وما يقتضيه المقام ، من شرح المجل وتخصيص العموم ، وتعميم المخصص ، بالاضافة الى شرح ما ورد فيها من معاني الحديث الشريف ، وتقنيده الاحاديث الواردة في الباب من حيث السند أو المتن ، وما قاله علماء الحديث من تجريح بعض الرواة وذكر درجة الحديث ومصدره ، وما قيل في المسألة من أدلة عقلية ونقلية ، فانه يورد في بعض الاحايين على صحة ما يذكر نيفاً وأربعين حجة ووجهاً (١) ، ثم بعد ذلك ترى أن ايراده للمسألة من الوجهة الثانية - سواء بالنفي أو الاثبات - أصح وأقوى مما سبق ان ذكره ، وبعد هذا وذاك يورد قوله الفصل وهو مما يفتح الله به عليه في المسألة ويرجح أحد القولين ترجيحاً

(١) على سبيل المثال انظر ما ذكر في «مفتاح دار السعادة»

ج ٢ ص ٤٥ - ٩٦ تر أنه بعد أن ذكر الأصول التي بنى عليها القائلون في التحسين والتقبيح العقليين ذكر قول من قال إن للفعل حسناً أو قبحاً بمعنى الملاءمة ثم ذكر واحداً وأربعين وجهاً على ابطال تلك المزاعم .

لا يتطرق اليه الشك أو الطعن ، وعنده يثبت لديك أنه أوتي من العلم الإلهي والفتح الرباني ما أغلق على غيره من أكابر العلماء (١) ،

(١) وهذا يذكرنا بقصة أحد المحامين المشهورين عندما كان يدافع عن موكله ويورد الأدلة على صحة دعواه بقوله : « فهذه قضية حق لأنها تعتمد أولاً على المادة كذا من قانون كذا وثانياً . وثالثاً ورابعاً وعاشراً ، وكان موكله يصغي اليه فرأى أن هذه الأدلة تدينه وهي حجج لخصمه فاقترب منه وقال هامساً : يا سيدي هذه الأدلة تثبت الحق للخصم وهي كلها ضد مصلحتي فتحنج المحامي التقدير ثم قال : هذا كل مايمكن للخصم أن يقوله من حجج وبراهين على ما سوف يدعيه . فأما المسألة الأولى فجوابها كذا وكذا وأما المسألة الثانية فباطلة لكذا وكذا . وهكذا أخذ يفند ما ذكر من حجج وبراهين ، « مع الفارق بين هدف المحامي والغاية التي يرمي إليها شيخ الإسلام ابن القيم .

ابتداء المسير الى دار الأفراح :

ولنبداً مع شيخ الاسلام يصف لنا الطريق الى دار الافراح مرحلة فمرحلة فبدأ في المرحلة الاولى عندما يوضع العبد في قبره ويتولى عنه أصحابه فروى ما جاء في المسند ومستدرک الحاكم وصحيح ابن حبان وغيرهم من حديث البراء بن عازب قال «خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الانصار... فذكر الحديث بطوله وفيه ... فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي ، فأفرشوه من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له باباً الى الجنة ، قال : فيأتيه من روحها وطيبها » .

وفي الصحيحين من حديث انس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان العبد اذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه وانه ليسمع قرع نعالهم ، قال : فيأتيه ملكان فيقعدهانه فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ قال فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله . قال فيقولان له انظر الى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا في الجنة ، فيراها جميعا ، وفي صحيح ابن عوانه الاسفراييني وسنن أبي داود من

حديث البراء بن عازب الطويل في قبض الروح : « ثم يفتح له باب من الجنة وباب من النار فيقال هذا كان منزلك لو عصيت الله تعالى ابذلك به هذا فاذا رأى ما في الجنة قال : رب عجل قيام الساعة كيما أرجع الى أهلي ومالي فيقال اسكن » •

فاذا ما حشروا وحسبوا ذهبوا لدخول الجنة كما قال سبحانه : « وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » فانظر ما في سوقهم الى الجنة زمرا ، وهم فرحون باخوانهم وسيرهم معهم كل زمرة على حدة ، كل مشتركين في عمل ، متصاحبين فيه على زمرة وجماعتهم مستبشرين أقوياء القلوب ، كما كانوا في الدنيا وقت اجتماعهم على الخير كذلك يؤنس بعضهم بعضا ويفرح بعضهم ببعض » فاذا ما أقبلوا عليها وجدوا لها ثمانية أبواب كما في الصحيحين من حديث سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « في الجنة ثمانية أبواب : باب منها يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون » وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أنفق زوجين في شيء من الاشياء في سبيل الله دعي من أبواب الجنة يا عبد الله هذا خير ، فمن كان من أهل الصلاة ، دعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل

الجهاد ، دعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصدقة ، دعي من باب الصدقة ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان » .

وروى أبو الشيخ قال : لكل مؤمن في الجنة أربعة أبواب : فباب يدخل عليه منه زواره من الملائكة ، وباب يدخل عليه منه أزواجه من الحور العين ، وباب فيسا بينه وبين أهل النار يفتحه اذا جاء ينظر اليهم لتعظم النعمة عليه ، وباب فيما بينه وبين دار السلام يدخل منه على ربه اذا شاء .

وروى البزار عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال : إن أبواب الجنة هكذا بعضها فوق بعض ، ثم قرأ (حتى اذا جاؤوها وفتحت أبوابها) اذا هم عندها بشجرة في أصلها عINAN تجريان فشربون من احدهما فلا تترك في بطونهم قذى ولا أذى الا رمته ويغتسلون من الاخرى فتجري عليهم نضرة النعيم فلا تشعث رؤوسهم ، ولا تغير ابشارهم بعد هذا أبدا ، ثم قرأ : (طبتم فادخلوها خالدين) فيدخل الرجل وهو يعرف منزله ويتلقاهم الولدان فيستبشرون برويتهم كما يستبشر الاهل بالحيم يقدم من الغيبة ، فينطلقون الى أزواجهم فيخبرونهم بمعانياتهم فتقول أنت رأيته ؟ فيقوم الى الباب فيدخل الى بيته فيتكى على سريره فينظر الى أساس بيته فاذا هو قد أسس

على اللؤلؤ ، ثم ينظر في أخضر وأحمر وأصفر ثم يرفع رأسه الى
سواء بيته فلولاً انه خلق له لالتمع بصره (١)

فيقول : الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا
أن هدانا الله •

وروى الامام أحمد في مسنده « مفتاح الجنة شهادة أن لا
اله الا الله » وفي الصحيحين عن وهب بن منبه انه قيل له أليس
مفتاح الجنة لا اله الا الله ؟ قال بلى ، ولكن ليس من مفتاح الا
وله أسنان فان أتيت بمفتاح له أسنان فتح لك والا لم يفتح
وروى أبو الشيخ عن يزيد بن سخرية قال : ان السيوف
مفاتيح الجنة •

ثم ذكر للجنة عدة أسماء باعتبار صفاتها ومعانيها واشتقاقاتها
فقال : ان للجنة أسماء عدة وذلك باعتبار صفاتها ومعانيها
واشتقاقاتها ومسمائها ، واحد باعتبار الذات فهي مترادفة من
هذه الوجه ، وتختلف باعتبار الصفات فهي متباينة من هذا
الوجه ، وهكذا أسماء الرب سبحانه وتعالى وأسماء كتابه
وأسماء رسله وأسماء اليوم الآخر فالاسم الاول : الجنة وهو
الاسم العام المتناول لتلك الدار وما اشتملت عليه من النعيم

(١) اي اختطف .

واللذة والبهجة والسرور وقرة العين ، الاسم الثاني : دار السلام وقد سماها الله بهذا الاسم في قوله : « دار السلام عند ربهم » و « والله يدعو الى دار السلام » وهي أحق بهذا الاسم فانها دار السلام من كل بلية وآفة ومكروه ، وهي دار الله واسمه سبحانه وتعالى السلام •

الاسم الثالث: دار الخلد، وسميت بذلك لأن أهلها لا يظعنون عنها أبدا ، قال تعالى : « عطاء غير مجذوذ » وقال : « ان هذا لرزقنا ماله من نفاذ » وقال : « أكلها دائم وظلها » وقال : « وما هم منها بمخرجين » •

الاسم الرابع : دار المقامة ، قال تعالى حكاية عن أهلها : وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يسننا فيها نصب ••• »

الاسم الخامس : جنة المأوى ، قال تعالى : « عندها جنة المأوى » روى عطاء عن ابن عباس : هي الجنة التي يأوي اليها جبريل والملائكة ، وقال مقاتل والكلبي : هي جنة تأوي اليها أرواح الشهداء •

السادس : جنات عدن ، قال تعالى : « جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب » وقال تعالى : « جنات عدن يدخلونها

يخلقون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير » وقال تعالى « ومساكن طيبة في جنات عدن » •

السابع : دار الحيوان ، قال تعالى : « وان الدار الآخرة لهي الحيوان » قال : ان تفسيرها يحتل معنيين : أحدهما : ان حياة الآخرة هي الحياة لانها لا تنغيص فيها ، ولا نفاذ ، الثاني : انها الدار التي لا تقنى ولا تنقطع ولا تبيد •

الثامن : الفردوس ، قال تعالى : « أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » وقال تعالى : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً خالدين فيها » والفردوس : البستان الذي يجتمع كل ما يكون في البساتين •

التاسع : جنات النعيم ، قال تعالى : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم » •

العاشر : المقام الأمين ، قال تعالى : « إن المتقين في مقام أمين » •

الحادي عشر : مقعد صدق • وقدم صدق قال تعالى : « إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر » اهـ ملخصاً من ص ٧٦ •

فصل

فاذا جمع المؤمنون : « وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمراً حتى اذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم باب الجنة فيستفتح فيقول الخازن من أنت فيقول محمد فيقول : بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك ولا أقوم لأحد بعدك وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه ، عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أنا أول من يفتح باب الجنة الا أن امرأة تبادرني فأقول : مالك ومن أنت؟ فتقول : أنا امرأة قعدت على يمامي »^(١)

فصل

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نحن السابقون الاولون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم » وزاد مسلم : « ونحن أول من يدخل الجنة بيد أنهم اوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ، فاختلفوا ، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق باذنه » فهذه الامة أسبق الامم خروجا من الارض وأسبقهم الى أعلى مكان في الموقف ، وأسبقهم الى ظل العرش ، وأسبقهم الى الفصل والقضاء بينهم ، وأسبقهم الى الجواز على الصراط ، وأسبقهم الى دخول الجنة ، فالجنة

(١) حادي الارواح ص ٨٣ .

محرمة على الانبياء حتى يدخلها محمد صلى الله عليه وسلم ،
 ومحرمة على الامم حتى تدخلها أمته « وأما أول الناس دخولا
 الجنة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد روى أبو داود
 في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى
 الله عليه وسلم أنه قال : « أتاني جبريل فأخذ بيدي فأراني
 باب الجنة الذي تدخل منه أمتي » ، فقال أبو بكر يا رسول الله
 وددت أني كنت معك حتى أنظر اليه فقال رسول الله صلى
 الله عليه وسلم : « أما انك يا أبا بكر أول من يدخل الجنة
 من أمتي » فأبو بكر هو أول الناس دخولا الجنة من أمة محمد
 صلى الله عليه وسلم .

وأما ما رواه الامام أحمد والترمذي وصححه من حديث
 بريدة بن الحصيب قال : « أصبح رسول الله صلى الله عليه
 وسلم فدعا بلالا فقال : يا بلال بهم سبقتني الى الجنة ؟ فما دخلت
 الجنة قط الا سمعت خشخشتك أمامي فأتيت على قصر مريع
 مشرف من ذهب ، فقلت : لمن هذا القصر ؟ قالوا : لرجل من أمة
 محمد ، قلت أنا محمد لمن هذا القصر قالوا لعمر بن الخطاب
 فقال بلال يا رسول الله ما أذنت قط الا وصليت ركعتين ، وما
 أصابني حدث قط الا توضأت عندها ، ورأيت أن لله علي
 ركعتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فبذلك «

قال الامام ابن القيم رحمه الله : تتلقاه بالقبول والتصديق ، ولا يدل على أن أحدا يسبق رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الجنة ، وأما تقدم بلال بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجنة فلا لأن بلالا كان يدعو الى الله أولا بالاذان فيتقدم أذانه بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم فتقدم دخوله بين يديه كالحاجب والخادم وقد روي في حديث «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث يوم القيامة وبلال بين يديه ينادي بالاذان» فتقدمه بين يديه صلى الله عليه وسلم كرامة لرسوله ، واطهارا لشرفه وفضله، لا سبقا من بلال ، بل هذا السبق من جنس سبقه الى الوضوء ودخول المسجد ونحوه والله أعلم ^(١) .

أقول : ليس المراد من الحديث أن كل من عمل عمل بلال له ما لبلال من الاسبقية الى الجنة ، وكمن - والله أعلم - أن المراد من ذلك حث المؤمنين ليعملوا عمل بلال من المداومة على الطهور والمبادرة له اذا ما أحدث المرء، والمبادرة للصلاة عقب الوضوء ولو ركعتين خفيفتين ، وهكذا اذا ما ورد حديث بهذا المعنى فالغاية منه المسارعة للطاعة تشبها بعمل الصالحين ، ومثله ما ورد في دخول فقراء هذه الامة الجنة قبل أغنيائها بنصف يوم أي خمسمائة عام (كما في مسند أحمد) أو أربعين خريفا كما رواه الترمذي ^(١) .

(١) حادي الارواح ص ٨٦ .

أقول : لئن كان النبي سبياً في منع الاغنياء من دخول الجنة في بعض الشرائع المحرفة أو الوضعية ، فلم يكن يوماً في شريعتنا سبياً في عدم دخول الاغنياء الجنة أو تأخيرهم عن دخولها، ولكن لما كان أكثر الاغنياء يسرفون في ملاذهم ، وتلهيهم زخارف الحياة الدنيا ، فينسبون عاقبة أمرهم كان لكل حكم الاكثرية ، وأيضا فليس كل الفقراء يسبقون الاغنياء الى دخول الجنة ولكن لما كان أكثر الفقراء يمنعمهم فقرهم من التمتع بملاذ الحياة الدنيا كان لكل حكم الاكثرية ، وقد سبق للامام ابن القيم أن فصل ذلك بكتابه عدة الصابرين كما مر معنا في هذا الكتاب (١)

وكيف يكون هذا وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « كاد الفقر أن يكون كفرا » (١) وكان صلى الله عليه وسلم يستعيز بالله من شر الفقر كما يستعيز بالله من الكفر، والآن لنصنع الى الامام ابن القيم يحدثنا عن الاسباب الموجبة لدخول الجنة ، وما أعد الله فيها لمستحقها ، وذكر أصناف أهل الجنة الذين ضمنت لهم دون غيرهم حيث يقول :

قال تعالى : « وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله

(١) أخرجه ابو نعيم في « الحلية » والبيهقي في « الشعب » وغيرهما وفي سنده يزيد بن أبان الرقاشي وهو ضعيف .

يحب المحسنين ، والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم
ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله
ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ، أولئك جزاؤهم مغفرة
من ربهم وجنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ونعم أجر
العاملين »

« فأخبر أنه أعد الجنة للمتقين دون غيرهم، ثم ذكر أوصاف
المتقين فذكر بذلهم للاحسان في حالة اليسر والعسر والشدة ،
والرخاء فان من الناس من يبذل في حال اليسر والرخاء ،
ولا يبذل في حال العسر والشدة ، ثم ذكر كف أذاهم عن الناس
بحبس الغيظ بالكظم وحبس الانتقام بالعفو ، ثم ذكر حالهم
بينهم وبين ربهم ، في ذنوبهم وأنها اذا صدرت منهم قابلوها
بذكر الله والتوبة والاستغفار وترك الإصرار ، فهذا حالهم
مع الله وذاك حالهم مع خلقه ^(١) » •

ثم ذكر زمرة من الخلق يدخلون الجنة بغير حساب فقال :
« روى مسلم من حديث حصين بن عبد الرحمن قال :
كنت عند سعيد بن جبير فقال : « أيكم الذي رأى الكوكب
الذي انقض البارحة ؟ فقلت : أنا ، ثم قلت : أما اني لم أكن في

(١) حادي الارواح ص ٨٨ .

صلاة ولكنني لدغت ، قال فما صنعت ؟ قلت استرقيت قال : فما حملك على ذلك ، قلت حديث حدثناه الشعبي ، قال : وما حدثكم الشعبي ؟ قلت حدثنا عن بريدة بن الحصيب الاسلمي أنه قال : «لارقية الا من عين أو رحمة» فقال: قد احسن من انتهى الى ما سمع، ولكن حدثنا عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: عرضت عليّ الامم فرأيت النبي ومعه الرّكيط، والنبي ومعه الرجل ، والرجلان ، والنبي وليس معه أحد ، ورفع اليّ سواد عظيم فظننت أنهم أمتي ، فقيل لي : هذا موسى وقومه ، ولكن انظر الى الافق، فنظرت فإذا سواد عظيم ، فقيل لي : هذه امتك ومعهم سبعون الفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ثم نهض فدخل منزله . فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: لعلمهم الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال بعضهم : فلعلمهم الذين ولدوا في الاسلام ولم يشركوا بالله شيئا ، وذكروا اشياء ، فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما الذي تخوضون فيه ؟ فأخبروه فقال: هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون ، فقام عكاشة بن محصن ، فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال : أنت منهم ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال : سبقك بها عكاشة « (١) » .

(١) حادي الارواح ص ٩٥ .

وهذه الجنة التي وعدها المتقون يصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : في حديث ابن عمر : « من يدخل الجنة يحيا لا يموت ، وينعم لا يأس ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه ، .. بناؤها لبنة من ذهب ولبنة من فضة ، وبلاطها مسك اذفر ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران » وقال صلى الله عليه وسلم : « أرض الجنة بيضاء عرصتها صخور الكافور ، وقد احاط بها المسك مثل كثران الرمل ، فيها انهار مطردة فيجتمع فيها اهل الجنة أذناهم وآخرهم فيتعارفون فيبعث الله ريح الرحمة ، فتهيج عليهم ريح المسك فيرجع الرجل الى زوجته وقد زاد حسنا وطيبا فتقول : لقد خرجت من عندي وأنا بك معجبة وأنا بك الآن أشد اعجابا » (١) .

وفي حديث أسامة بن زيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الاهل مشمر للجنة ، فان الجنة لا خطر لها ، هي ورب الكعبة نور يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ونهر مطرد ، وثمره نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ومقام في أبد في دار سليمة ، وفاكهة وخضرة وحبرة ونعمة ، في محلة عالية بهية » ، قال تعالى : (لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية) فأخبر أنها غرف فوق غرف وأنها مبنية بناءً حقيقة لثلاثتهم النفوس أن ذلك تمثيل .

(١) حادي الارواح ص ١٠٠ .

معرفة أهل الجنة منازلهم :

قال تعالى (والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل اعمالهم ، سيهديهم ويصلح بالهم ، ويدخلهم الجنة عرفها لهم) وفي الصحيحين ان نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : « اذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار فيتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى اذا نقوا وهذبوا أذن لهم بدخول الجنة والذي نفسي بيده ، لأحدهم بمنزله في الجنة أدل منه بمسكنه كان في الدنيا » .

وقال تعالى (وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا) وقال تعالى : (يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا) وقد سأل الامام علي كرم الله وجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ، فقال : « والذي نفسي بيده انهم اذا خرجوا من قبورهم استقبلوا بنوق بيض لها اجنحة عليها رحال الذهب ، شرك نعالهم نور يتلألأ ، كل خطوة منها مثل مد البصر وينتهون الى باب الجنة فاذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح

الذهب ، واذا شجرة على باب الجنة ينبع من أصلها عيان ، فاذا شربوا من احدهما جرت في وجوههم نضرة النعيم، واذا توضؤوا من الاخرى لم تشعث اشعارهم أبدا ، فيضربون الحلقة بالصفيحة - فلو سمعت طنين الحلقة - فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد اقبل ، فتستخفها العجلة فتبعث قيمها ، فيفتح له الباب فلولا أن الله عز وجل عرفه نفسه لخر له ساجدا ، مما يرى من النور والبهاء فيقول انا قيمك الذي وكلت بأمرك ، فيتبعه فيقفوا اثره فيأتي زوجته فتستخفها العجلة ، فتخرج من الخيمة فتعانقه وتقول : أنت حبي وأنا حبك ، وأنا الراضية فلا أسخط أبدا . وأنا الناعمة فلا أبأس أبدا ، والخالدة فلا اظعن أبدا ، فيدخل بيتا من أساسه الى سقفه مائة ذراع مبني على جندل اللؤلؤ والياقوت ، طرائق حمراء وطرائق خضراء وطرائق صفراء، ما منها طريقة تشاكل صاحبته ، فيأتي الاريكة فاذا عليها سرير على السرير سبعون فراشا ، عليها سبعون زوجة ، على كل زوجة سبعون حلة ، يرى منخ ساقها من باطن الجلد ، يقضي جماعهن في مقدار ليلة ، تجري تحتها انهار مطردة ، انها من ماء غير آسن صاف ليس فيه كدر ، وأنهار من غسل مصفى لم يخرج من بطون النحل ، وأنهار من خمرة لذة للشاربين لم تعصره الرجال بأقدامها ، وانهار من لبن لم يتغير طعمه ، لم يخرج من بطون الماشية ، فاذا اشتهوا الطعام ، جاءهم طيور بيض ، فترفع اجنحتها فيأكلون من

جنوبها ، من أي الألوان شاؤوا ، ثم تطير فتذهب ، فيها ثمار متدلية اذا اشتهوها انشعب الغصن اليهم ، فيأكلون من اي الثمار شاؤوا، ان شاء قائما وان شاء متكئا، وذلك قوله عز وجل (وجنى الجنتين دان) وبين أيديهم خدم كاللؤلؤ « (١) » .

وروى ابن المبارك عن حميد بن هلال قال : « ذكر لنا ان الرجل اذا دخل الجنة صور صورة اهل الجنة ، والبس لباسهم ، وحلي حليهم وأري أزواجه وخدمه ويأخذه سوار فرح (٢) لو كان ينبغي أن يموت لمات من سوار فرحه ، فيقال له أرأيت سوار فرحتك هذه ، فانها قائمة لك أبدا » وفي الصحيحين من حديث سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ليدخلن الجنة من امتي سبعون الفا او سبعمائة الف متماسكون آخذ بعضهم ببعض لايدخل اولهم حتى يدخل آخرهم ، وجوههم على صور القمر ليلة البدر » (٣) .

فيعت اهل الجنة على صورة آدم ، في ميلاد ثلاث وثلاثين

(١) حادي الارواح ص ١٠٧ .

(٢) يقال : اخذه سوار الفرح ، السوار بالضم دبيب الشراب في الراس ، اي ذب فيه الفرح دبيب الشراب . النهاية

(٣) حادي الارواح ص ١٠٩ .

سنة ، جردا مردا مكحلين ثم يذهب بهم الى شجرة في الجنة فيكسون منها ، لا تبلى ثيابهم ولا يفنى شبابهم •

وأعلى اهل الجنة منزلة سيد ولد آدم صلوات الله وسلامه عليه ، ففي صحيح مسلم عن عمرو بن العاص انه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا علي ، فانه من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه عشرا ، ثم سلوا لي الوسيلة فانها منزلة في الجنة لا تنبغي الا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة » •

وفي صحيح مسلم ايضا من حديث المغيرة بن شعبة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : « ان موسى سأل ربه ما ادنى اهل الجنة منزلة ؟ فقال رجل يجيء بعد ما دخل اهل الجنة الجنة • فيقال له ادخل الجنة ، فيقول : رب كيف وقد نزل الناس منازلهم ، وأخذوا أخذاتهم ، فيقال له اترضى ان يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا فيقول رضيت رب فيقول لك ذلك ، ومثله ومثله ومثله ومثله فقال في الخامسة رضيت رب ، ... قال : رب فأعلاهم منزلة ؟ قال أولئك الذين أردت ، غرست كرامتهم بيدي ، وختست عليها فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر » (١) •

(١) حادي الارواح ص ١١١ •

ريح الجنة : جاء في الصحيحين من حديث انس قال : « لم
 بشهد عمي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرا ، قال
 فشق عليه ، قال اول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه
 وسلم غبت عنه ، فان اراني الله مشهدا فيما بعد مع رسول
 الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله ما أصنع ، قال فهاب
 ان يقول غيرها ، قال فشهد مع رسول الله صلى الله عليه
 وسلم يوم احد ، قال : فاستقبل سعد بن معاذ فقال له : أين ؟
 فقال واهل لريح الجنة اجدد دون احد ، قال فقاتلهم حتى قتل ،
 قال : فوجد في جسده بضع وثمانون من بين ضربة وطعنة
 مورية ، فقالت اخته ، عمة الربيع بن النضر ، فما عرفت اخي الا
 ببنائه ، ونزلت هذه الآية : (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا
 الله عليه) قال الامام ابن القيم : وريح الجنة فوعان ، ريح
 يوجد في الدنيا تشمه الارواح أحيانا لا يدركه العباد ،
 وريح يدرك بحاسة الشم كما تشم روائح الازهار وغيرها ،
 وهذا يشترك اهل الجنة في ادراكه في الآخرة من قرب ومن بعد
 وأما في الدنيا فقد يدركه من شاء الله من أنبيائه ورسله ،
 وهذا الذي وجدته أنس بن النضر ، يجوز أن يكون من هذا
 القسم ... والله اعلم » وريح الجنة يوجد من مسيرة الف
 عام ، والله لا يجدها عاق ولا قاطع رحم » (١) .

(١) حادي الارواح ص ١١٥ .

الأذان الذي يؤذن به مؤذن الجنة فيها :

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ينادي منادٍ ، إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً ، ونودوا ان تلكم الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون . »

وفي صحيح مسلم أيضا عن صهيب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى منادٍ يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً ، يقولون ما هو ؟ ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا . ويدخلنا الجنة ، وينجبنا من النار ؟ فيكشف الحجاب فينظرون الى الله فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب اليهم من النظر اليه » .

أشجارها وبساتينها وظلالها :

قال تعالى : « وأصحاب اليمين ، ما أصحاب اليمين ، في سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب ، وفاكهة كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة » •

قال عبد الله بن المبارك : « كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون إن الله لينفعنا بالأعراب ومساءلهم ، أقبل اعرابي يوماً فقال يا رسول الله ذكر الله في الجنة شجرة مؤذية ، وما كنت أرى في الجنة شجرة تؤذي صاحبها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما هي ؟ قال : السدر فان له شوكاً مؤذياً ، قال : أليس الله يقول في سدر مخضود ؟ أخضد الله شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة •

أما الطلح فأكثر المفسرين قالوا إنه شجرة الموز ، ولهذا الشجر نور ورائحة ، وظل ظليل ، وقد نضد بالحمى ، والتمر مكان الشوك •

وعن ابن عباس قال : « نخل الجنة جذوعها من زمرد أخضر ، وكربها ^(١) ذهب أحمر ، وسعفها كسوة لأهل الجنة منها مقطعاتهم وحللهم . وترها امثال القلال والدلاء ، أشد بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل ، وألين من الزبد ليس فيها عجم » ^(٢) .

وروى الامام احمد عن عتبة بن عبد السلسي قال : « جاء أعرابي الى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الحوض وذكر الجنة ثم قال الاعرابي : فيها فاكهة ؟ قال نعم ، وفيها شجرة تدعى طوبى فذكر شيئا لا أدري ما هو ؟ فقال أي شجر أرضنا تشبهه قال ليست تشبه شيئا من شجر أرضك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم أتيت الشام ؟ قال : لا قال تشبه شجرة بالشام يقال لها الجوزة تنبت على ساق واحد ، وينفرش أعلاها ، قال ما عظم أصلها ؟ قال او ارتحلت جذعة من ابل أهلك ، ما أحاطت بأصلها حتى تتكسر ترقوتها هرما . قال فيها عنب ؟ قال نعم ، قال فسا عظم العنقود ؟ قال : مسير شهر للغراب لا يقع ولا يفتر ، قال فسا عظم الحبة ؟ قال هل ذبح

(١) قوله : كربها هو ما يبقى من اصول السعف في النخلة بعد القطع كالمراتي .

(٢) عجم أي نوى أو بذر .

أَبُوكَ تَيْسَا مِنْ غَنَمِهِ قَطْعٌ عَظِيمًا ، قَالَ نَعَمْ قَالَ فَسَلَخَ إِهَابَهُ
فَأَعْطَاهُ أَمْلَكَ ، وَقَالَ لَهَا اتَّخِذِي لَنَا مِنْهُ دَلْوًا قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ
الْأَعْرَابِيُّ : فَإِنَّ تِلْكَ الْحَبَّةَ لَتَشْبَعَنِي أَنَا وَأَهْلُ بَيْتِي ، قَالَ : نَعَمْ
وَعَامَّةُ عَشِيرَتِكَ .

وَرَوَى مُجَاهِدٌ قَالَ : أَرْضُ الْجَنَّةِ مِنْ وَرْقٍ ، وَتَرَابِهَا
مَسْكٌ ، وَأَصُولُ أَشْجَارِهَا ذَهَبٌ ، وَوَرَقُ أَفْنَانِهَا لَوْلُؤٌ وَزَبْرَجْدٌ
وَيَاقُوتٌ وَالْوَرَقُ وَالشَّرُّ تَحْتَ ذَلِكَ ، فَمَنْ أَكَلَ قَائِمًا لَمْ يُوْذِهِ ،
وَمَنْ أَكَلَ جَالِسًا لَمْ يُوْذِهِ ، وَمَنْ أَكَلَ مُضْطَجِعًا لَمْ يُوْذِهِ ، وَذَلِكَ
قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا .

وَرَوَى جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : نَزَلْنَا الصَّفَاحَ ، فَإِذَا
رَجُلٌ نَائِمٌ تَحْتَ شَجَرَةٍ قَدْ كَادَتْ الشَّمْسُ أَنْ تَبْلُغَهُ ، قَالَ فَقُلْتُ
لِلْغَلَامِ انْطَلِقْ بِهَذَا النُّطْعِ فَأُظِلَّهُ ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ إِذَا هُوَ سَلْمَانٌ
فَأَتَيْتُهُ اسْلَمْ عَلَيْهِ فَقَالَ : يَا جَرِيرُ ! تَوَاضَعْ لِلَّهِ فَإِنَّ مِنْ تَوَاضَعٍ
لِلَّهِ رَفْعَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا جَرِيرُ هَلْ تَدْرِي مَا الظُّلُمَاتُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟
قُلْتُ لَا أَدْرِي قَالَ ظَلَمَ النَّاسُ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ أَخَذَ عَوِيدًا لَا أَكَادُ
أُرَاهُ بَيْنَ أَصْبَعَيْهِ ، فَقَالَ : يَا جَرِيرُ إِذَا ضَلَبْتَ مِثْلَ هَذَا فِي الْجَنَّةِ
لَمْ تَجِدْهُ ، قُلْتُ يَا عَبْدَ اللَّهِ فَأَيْنَ النَّخْلِ وَالشَّجَرِ ؟ قَالَ : أَصُولُهَا
الْلَوْلُؤُ وَالذَّهَبُ وَأَعْلَاهَا الثَّمَرُ ^(١) .

(١) حَنَادِي الْأَرْوَاحِ ص ١٢٢ .

أما ثمارها وتعداد أنواعها وصفاتها وريحانها :

قال تعالى : (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل ، وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون)

قال الامام ابن القيم : « معناه أنه يشبه بعضه بعضا ، ليس أوله خيرا من آخره ، ولا هو مما يعرض له ما يعرض لثمار الدنيا عند تقادم الشجر وكبرها من نقصان حبلها وصغر ثمرها وغير ذلك ، بل أوله مثل آخره وآخره مثل أوله وهو خيار كله يشبه بعضه بعضا . »

وفي حديث لمسلم عن جابر قال : « بينما نحن في صلاة الظهر اذ تقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتقدمنا ثم تناول شيئا ليأخذه ثم تأخر فلما قضى الصلاة قال له أبيّ ابن كعب يا رسول الله صنعت اليوم في صلاتك شيئا ما كنت

تصنعه، قال : انه عرضت علي الجنة وما فيها من الزهرة والنضرة فتناولت منها قطفا من عنب لآتيكم به فحيل بيني وبينه ، ولو آتيكم به لاكل منه من بين السماء والارض » •

زرع اهل الجنة :

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم يحدث يوما وعنده رجل من أهل البادية ، قال : إن رجلا من أهل الجنة استأذن ربه عز وجل في الزرع فقال له : أولست فيما اشتيت ؟ فقال : بلى ، ولكني أحب ان ازرع ، فأسرع وبذر فبادر الطرف نباته واستواؤه واستحصاده وتكويره أمثال الجبال ، فيقول الله عز وجل دونك يا ابن آدم فانه لا يشبعك شيء ، فقال الاعرابي : يا رسول الله لا نجد هذا الا قرشيا أو أنصاريا فانهم أصحاب زرع ، فأما نحن فلسنا بأصحاب زرع ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم »

انهار الجنة وعيونها واصنافها ومجراها :

قال تعالى في مواضع عدة من القرآن الكريم : (جنات تجري من تحتها الانهار) (تجري تحتها الانهار) (تجري من تحتهم الانهار) وقال تعالى (فيهما عينان نضاختان) قال سعيد — وأظنه ابن المسيب — : (نضاختان بالماء والقواكه) وقال

أنس « نضاختان بالمسك والعنبر ، ينضخان على أهل الجنة
كما ينضخ المطر على أهل الدنيا » .

وقال تعالى : « مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار
من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من
خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ، ولهم فيها من كل
الثمرات ، ومغفرة من ربهم »

قال الامام ابن القيم : ذكر الله سبحانه هذه الاجناس
الاربعة ونفى عن كل واحد منها الآفة التي تعرض له في الدنيا
فآفة الماء أن يأسن ويأجن من طول مكثه ، وآفة اللبن أن يتغير
طعمه الى الحموضة وأن يصير قارصا ، وآفة الخمر كراهة
مذاقها المنافي للذة شربها ، وآفة العسل عدم تصفيته .

وهذا من آيات الرب تعالى أن تجري انهار من اجناس
لم تجر العادة في الدنيا باجرائها ، ويجريها في غير اخدود
وينفي عنها الآفات التي تمنع كمال اللذة بها ، كما ينفي عن خمر
الجنة جميع آفات خمر الدنيا فتتال العقل ، ويكثر اللغو على
شربها ، بل لا يطيب لشرابها ذلك الا باللغو وتنزف في نفسها
وتنزف المال ، وتصدع الرأس ، وهي كريهة المذاق ، وهي رجس
من عمل الشيطان ، توقع العداوة والبغضاء بين الناس ، وتصد

عن ذكر الله وعن الصلاة وقد أطال رحمه الله
بذكر مفاسدها ومضارها وتناجى شربها ، ثم قال : « فهي جماع
الاثم ، ومفتاح الشر ، وسلاية النعم ، وجلابة النقم ، ولو لم
يكن من رذائلها إلا أنها لاتجتمع هي وخمر الجنة في جوف عبد
كما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من شرب الخمر
في الدنيا لم يشربها في الآخرة » لكفى .

أقول : (الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك
يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما)

وأنهار الجنة تنفجر من أعلاها ، ثم تنحدر نازلة الى أقصى
درجاتها ، كما روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة
عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن في الجنة مائة
درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله ، بين كل درجتين كما
بين السماء والارض ، فاذا سألتهم الله فأسألوه الفردوس ،
فانه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تنفجر
أنهار الجنة) (١) .

أما العيون فقد قال تعالى « ان المتقين في جنات وعيون »
« ان الابرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا ، عينا
يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا » وقال تعالى :

(١) حادي الأرواح ص ١٢٩

« ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا ، عينا فيها تسمى
سلسيلا » وقال تعالى « ان الابرار لفي نعيم ، على الارائك
ينظرون ، تعرف في وجوههم نضرة النعيم ، يسقون من رحيق
مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه
من تسنيم ، عينا يشرب بها المقربون »

طعامهم ومشربهم ومصرفه :

قال تعالى : « ان المتقين في ظلال وعيون ، وفواكه مما
يشتهون ، كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون » وقال تعالى
« فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه إني
ظننت أني ملاق حساييه ، فهو في عيشة راضية ، في جنة عالية ،
قطوفها دانية ، كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الايام الخالية »
وقال تعالى : « تلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ،
لكم فيها فاكهة كثيرة ، منها تأكلون » وقال تعالى : « وأمددناهم
بفاكهة ولحم مما يشتهون ، يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها
ولا تأثيم » وفي المسند وسنن النسائي عن زيد بن أرقم قال :
(جاء رجل من أهل الكتاب الى النبي صلى الله عليه وسلم
فقال يا أبا القاسم ، تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون ،
قال نعم والذي نفس محمد بيده ، إن أحدهم ليعطى قوة مائة
رجل ، في الاكل والشرب والجماع والشهوة ، قال : فإن الذي

يأكل ويشرب تكون له الحاجة وليس في الجنة أذى ، قال تكون
حاجة أحدهم رشحا يفيض من جلودهم كرشح المسك، فيضمر
بطنه» (١) .

تحقيق علمي طريف :

أقول لما كان أمثال هذا الكتابي — الذي سأل النبي صلى
الله عليه وسلم مسألة احراج في زعمه — كثيرين في كل زمان لا
سيما في زمن طغت فيه المادة على الروح طغيانا لم يشهد العالم
له مثيلا ، كان من اللازم أن يبرهن الامام ابن القيم على صحة
ما ذكره لمثل هؤلاء الملحدين ببراهين مادية لا تخلو من نزعة
روحية ايمانية فقال : فالاطعمة والجلوس والتجمر تستدعي
أسبابا تتم بها ، والله خالق السبب والمسبب وهو رب كل
شيء ومليكه لا اله الا هو ، وكذلك جعل الله لهم — لاهل
الجنة — سبحانه أسباب تصرف الطعام من الجشاء والعرق
الذي يفيض من جلودهم فهذا سبب اخراجه ، وذاك سبب
انضاجه ، وكذلك جعل في أجوافهم من الحرارة ما يطبخ ذلك
الطعام ويلطفه ويهيئه لخروجه رشحا وجشاء .

وكذلك ما هنالك من الفواكه والثمار يخلق لها من
الحرارة ما ينضجها ويجعل سبحانه أوراق الشجر ظلالها ، قرب

(١) حادي الارواح ص ١٣٤ .

الدنيا والآخرة واحد ، والاسباب مظهر أفعاله وحكمته ، ولكنها تختلف ولهذا يقع التعجب من العبد لورود افعاله سبحانه على أسباب غير الاسباب المعهودة المألوفة وربما حمله ذلك على الانكار والكفر وذلك محض الجهل والظلم ، والا فليست قدرته سبحانه وتعالى مقصورة عن أسباب آخر ومسيبات ينشئها منها كما لا تقتصر قدرته في هذا العالم المشهود عن أسبابه ومسيباته ، وليس هذا بأهون عليه من ذلك ولعل النشأة الاولى التي أنشأها الرب سبحانه وتعالى فيها بالعيان والمشاهدة أعجب من النشأة الثانية التي وعدنا بها اذا تأملها اللبيب .

ولعل اخراج هذه الفواكه والثمار من بين هذه التربة الغليظة والماء والخشب والهواء المناسب لها ، أعجب عند العقل من اخراجها من بين تربة الجنة ومائها وهوائها ، ولعل اخراج هذه الاشربة التي هي غذاء ودواء وشراب ولذة من بين فرث ودم ومن قيء ذباب ، أعجب من اجرائها أنهارا في الجنة بأسباب اخرى ، ولعل اخراج جوهري الذهب والفضة من عروق الحجارة من الجبال وغيرها ، أعجب من انشائها هناك من أسباب آخر ، ولعل اخراج الحرير من لعاب دود القز وبنائها على انفسها القباب البيض والاحمر والصفر أحكم بناء ، أعجب من اخراجه من أكمام تنشق عنه شجر هناك قد أودع فيها وأنشئ منها ، ولعل جريان بخار الماء بين السماء

والارض على ظهور السحاب أعجب من جريانها في الجنة
بغير اخدود •

وبالجملة فتأمل آيات الله التي دعا عباده الى التفكير فيها
وجعلها آيات دالة على كمال قدرته وعلمه ومشيبته وحكمته
وملكه وعلى توحده بالربوبية والإلهية ، ثم وازن بينها وبين
ما أخبر به من أمر الآخرة والجنة والنار ، تجد هذه أدل شيء
على تلك وشاهدة لها وتجدهما من مشكاة واحدة ورب واحد
وخالق واحد ومالك واحد فبعداً لقوم لا يؤمنون »

آنيتهم انتي ياكلون فيها ويشربون واجناسها وصفاتها :

قال الله تعالى : «يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب»
وفي الصحيحين من حديث أبي موسى الاشعري أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال : « جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما
وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا
الى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » وفيهما من
حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم (إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة
البدر والذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة ،
لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون ولا يتفلون ، أمشاطهم

الذهب ، ورشحهم المسك ومجامرهم الألوة ، وأزواجهم الحور
العين أخلاقهم على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم » •

أما لباسهم وحليهم ومناديلهم وبسطهم ووسائدهم ونمازقهم
وزرايهم • قال تعالى : « إن المتقين في مقام أمين في جنات وعيون
يلبسون من سندس واستبرق متقابلين » ^(١) وقال تعالى :
« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن
عملاً ، أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها
من أساور من ذهب ، ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق
متكئين فيها على الأرائك » •

ذكر الامام أحمد في مسنده عن ابن عمر قال : « جاء اعرابي
حرمي ، فقال : يا رسول الله أخبرنا عن الهجرة إليك أينما كنت ؟
أم لقوم خاصة أم الى أرض معلومة ، إذا مت انقطعت ، فسأل
ثلاث مرات ثم جلس فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يسيراً ثم قال : أين السائل ؟ فقال ها هو ذا يا رسول الله قال :
الهجرة أن تهجر الفواحش ما ظهر منها وما بطن وتقيم الصلاة
وتؤتي الزكاة ، ثم أنت مهاجر وان مت بالحضر ، فقام آخر فقال

(١) الدخان الآية : ٥١-٥٣ ، وتمامها : « كذلك وزوجناهم بحور
عين يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ، لا يدعون فيها الموت الا الموتة الاولى ،
ووقاهم عذاب الجحيم فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم » •

يا رسول الله أخبرني عن ثياب أهل الجنة أتخلق خلقاً أم تنسج نسجاً ، قال فضحك بعض القوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تضحكون من جاهل يسأل علماً !!! فاستك النبي صلى الله عليه وسلم ساعة ثم قال : أين السائل عن ثياب أهل الجنة ؟ فقال ها هو ذا يا رسول الله ، قال : لا بل يشفق عنها ثمر الجنة » ثلاث مرات •

ملابسهم والتهيجان على رؤوسهم :

ذكر البيهقي من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من قرأ القرآن فقام به آناء الليل ، وأطراف النهار ، ويحل حلاله ويحرم حرامه خلطه الله بلحمه ودمه وجعله رفيق السفرة الكرام البررة ، وإذا كان يوم القيامة كان القرآن له حجيجاً ، قال : - القرآن - يا رب كل عامل في الدنيا يأخذ بعمله من الدنيا إلا فلاناً كان يقوم في آناء الليل وأطراف النهار فيحل حلاله ويحرم حرامه يقول : يا رب فأعطه ، فيتوجه الله تاج الكرامة ويكسوه من حلة الكرامة ثم يقول - الله - هل رضيت ؟ فيقول يا رب أرغب له في أفضل من هذا • فيعطيه الله الملك بيمينه والخلد بشماله ثم يقول هل رضيت ؟ فيقول : نعم يا رب •

ذكر خيامهم وسررهم وأرائكهم :

قال تعالى : « حور مقصورات في الخيام » وفي الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن للمؤمنين في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلا ، فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضا *) وهذه الخيم غير الغرف والقصور بل هي خيام في البساتين وعلى شواطئ الأنهار *

أما الأرائك ، قال مجاهد عن ابن عباس : لا تكون أريكة حتى يكون السرير في الحجلة فإذا كان سريراً بغير حجلة لا يكون أريكة ، وإن كانت حجلة بغير سرير لم تكن أريكة ، ولا تكون أريكة إلا والسرير في الحجلة فإذا اجتمعا كانت أريكة * قال الامام ابن القيم : ها هنا ثلاثة أشياء (أحدها) السرير و (الثانية) الحجلة وهي البشخانة ^(١) التي تعلق فوق السرير و (الثالث) الفراش الذي على السرير ولا يسمى السرير أريكة حتى يجمع ذلك كله *

(١) قوله البشخانة : هي ما يسمى في عرف أهل الشام (إنناموسية) أو (كلة) وهي تتخذ من قماش رقيق شفاف فوق السرير لتمنع البعوض والذباب ولا تمنع النور والهواء .

خدمهم وغلماهم وأزواجهم :

قال تعالى : (يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين) وقال تعالى : (ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً) • وهل هم من ولدان الدنيا أم أنشأهم الله في الجنة انشاءً •

فعن علي بن أبي طالب والحسن البصري هم أولاد المسلمين يموتون ولا حسنة لهم ولا سيئة لهم يكونون خدم أهل الجنة وولدانهم ، وقيل : هم أطفال المشركين فجعلهم الله خداماً لأهل الجنة لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « سألت ربي اللاهين من ذرية البشر أن لا يعذبهم فأعطانيهم فهم خدام أهل الجنة » والاشبه أن هؤلاء الولدان مخلوقون في الجنة كالحوار العين فإن من تمام كرامة الله لهم أن يجعل أولادهم مخدمين معهم ولا يجعلهم غلماناً لهم •

أما الأزواج وأصنافهن وحسنهن وجمالهن الظاهر والباطن الذي وصفهن الله تعالى في كتابه الكريم فقد قال الله تعالى : (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج

مطهرة وهم فيها خالدون » •

فتأمل جلالة المبشر ومنزلته وصدقه وعظمته من أرسله
إليك بهذه البشارة وقدر ما بشرك به وضمنه لك على أسهل
شيء عليك وأيسره •

وجمع سبحانه في هذه البشارة بين نعيم البدن بالجنات
وما فيها من الانهار والثمار ، ونعيم النفس بالازواج المطهرة ،
ونعيم القلب وقرة العين بمعرفة دوام هذا العيش أبد الآباد
وعدم انقطاعه •

والمطهرة من ظهرت من الحيض والبول والنفاس والغائط
والمخاط والبصاق وكل قذر وكل أذى يكون من نساء الدنيا
فطهر مع ذلك باطنها من الاخلاق السيئة والصفات المذمومة
وطهر لسانها من الفحش والبذاءة وطهر طرفها من أن تطمح به
إلى غير زوجها وظهرت أثوابها من أن يعرض لها دنس أو وسخ •
وقوله تعالى : (وزوجناهم بحور عين) •

والحور ، جمع حوراء وهي المرأة الحسناء الشابة الجميلة
البيضاء شديدة سواد العين التي يحار فيها الطرف من رقة
الجلد وصفاء اللون واسعة العين مع صفاء بياضها وشدة
سوادها •

وقال تعالى : « فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس

قبلهم ولا جان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، كأنهن الياقوت والمرجان » •

وقال تعالى : « وعندهم قاصرات الطرف عين » وقال تعالى : « وعندهم قاصرات الطرف أتراب » قال مجاهد - شيخ المفسرين - قاصرات الطرف على أزواجهن فلا يرين غيرهم ما هن متبرجات ولا متطلعات قصرن أبصارهن وقلوبهن وأنفسهن على أزواجهن فلا يرين غيرهم •

وقال تعالى في وصفهن : « حور مقصورات في الخيام » فالله سبحانه وتعالى وصفهن بصفات النساء المخدرات المصونات ، مقصورات قلوبهن على أزواجهن في خيام اللؤلؤ • وقال تعالى : « فيهن خيرات حسان » فالخيرات جمع خيرة وهي من خيرة ، وفي الأثر : لكل مسلم خيرة ولكل خيرة خيسة ولكل خيسة أربعة أبواب ، يدخل عليها في كل يوم من كل باب تحفة وهدية وكرامة لم تكن قبل ذلك لا ترحات ولا ذفات ولا بخرات ولا طماحات » •

وروى الطبراني عن أم سلمة قالت : « قلت يا رسول الله أخبرني عن قول الله عز وجل « حور عين » قال حور بيض ، عين ضخام العيون ، شفر الحوراء بمنزلة جناح النسر ، قلت : أخبرني عن قوله عز وجل « كأنهم لؤلؤ مكنون » قال :

صفاؤهن صفاء الدر الذي في الاصداف ، الذي لم تمسه
 الايدي • قلت يا رسول الله أخبرني عن قوله عز وجل :
 «فيهن خيرات حسان» قال : خَيْرَاتِ الْاَخْلَاقِ ، حَسَانِ الْوُجُوهِ ،
 قلت يا رسول الله أخبرني عن قوله عز وجل : « كأنهن بيض
 مكنون » قال : رِقَّتِهِنَّ كَرَفَةِ الْجِلْدِ الَّذِي رَأَيْتَهُ فِي دَاخِلِ الْبَيْضَةِ
 مَا يَلِي الْقَشْرَ ، وَهُوَ الْغَرَقِيُّ ، قلت يا رسول الله أخبرني عن
 قوله عز وجل (عرباً أتراباً) قال هن اللواتي قبضن في دار الدنيا
 عجائز رمصاً شمطاً ، خلقهن الله بعد الكبر فجعلهن عذارى •
 عرباً متعشقات متحبيات ، أتراباً على ميلاد واحد » •

سَمَاعُ أَهْلِ الْجَنَّةِ :

قال الله تعالى : « ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون •
 فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون » •
 الحبرة اللذة والسماح والإكرام • وروى الترمذي عن علي
 قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنْ فِي الْجَنَّةِ
 لِمَجْتَمَعٍ لِلْحُورِ الْعِينِ يَرْفَعْنَ بِأَصْوَاتٍ لَمْ تَسْمَعْ الْخَلَائِقُ بِمِثْلِهَا
 يَقْلُنَ نَحْنُ الْخَالِدَاتُ فَلَا نَبِيدُ ، وَنَحْنُ النَّاعِمَاتُ فَلَا نَبَأُ ،
 وَنَحْنُ الرَّاغِيَاتُ فَلَا نَسْخَطُ ، طُوبَى لِمَنْ كَانَ لَنَا وَكُنَّا لَهُ » •
 وعن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنْ

أزواج أهل الجنة ليغنين أزواجهن بأحسن أصوات ما سمعها أحد قط ، وإن مما يغنين به نحن الخيرات الحسان : أزواج قوم كرام ، ينظرون بقرة أعين . » وعن ابن شهاب قال : « إن في الجنة لشجراً حسله اللؤلؤ والزبرجد تحته جوار ناهدات ، يتغنين بألوان . يقلن نحن الناعمات فلا نبأس ، ونحن الخالدات فلا نسوت ، فإذا سمع ذلك الشجر صفق بعضه بعضاً فأجبن الجوّاري ، فلا ندري أصوات الجوّاري أحسن أم أصوات الشجر » (١) .

قال الامام ابن القيم : ولهم سماع أعلى من هذا يضمحل دونه كل سماع وذلك حين يسمعون كلام الرب جل جلاله وخطابه ، وسلامه عليهم ، ومحاضرتهم لهم ، يقرأ عليهم كلامه . فإذا سمعوه منه فكأنهم لم يسمعوه قبل ذلك .

وروى ابن أبي الدنيا عن مالك بن دينار في قوله تعالى : « وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب » قال إذا كان يوم القيامة أمر بمنبر رفيع فوضع في الجنة . ثم نودي يا داود مجدي بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنت تمجدي به في دار الدنيا ، قال فيستفرغ صوت داود نعيم أهل الجنان .

وروي عن شهر بن حوشب قال : « إن الله جل ثناؤه يقول للملائكة : إن عبادي كانوا يحبون الصوت الحسن في الدنيا

(١) حادي الارواح ص ١٨٢ .

فيدعونه من أجلي فاسعوا عبادي • فيأخذوا بأصوات من تهليل وتسييح وتكبير لم يسعوا بشله قط •

وعن ابن عباس قال : « إن في الجنة شجرة على ساق ، قدر ما يسير الراكب في ظلها مائة عام . فيتحدثون في ظلها ، فيشتهي بعضهم فيذكر لهو الدنيا فيرسل الله ريحاً من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهو في الدنيا » وعن سعيد الحارثي قال : حدثت « أن في الجنة آجماً من قصب من ذهب حملها اللؤلؤ فاذا اشتهى أهل الجنة أن يسعوا صوتاً حسناً بعث الله على تلك الآجام ريحاً فتأتيهم بكل صوت يشتهونه » •

سوتى أهل الجنة وما أعد الله فيه لاهلها :

ففي صحيح مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن في الجنة سوقاً يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم فيزدادون حسناً وجمالاً فيرجعون الى أهليهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً ، فيقول لهم أهلهم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً • فيقولون والله وأتتم لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً » •

وروى ابن أبي عاصم في كتاب السنة عن سعيد بن المسيب قال : لقيت أبا هريرة فقال لي : أسأل الله أن يجمع

بيني وبينك في سوق الجنة ، فقال سعيد : أوفيهما سوق ؟ قال
 نعم ، أخبرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل الجنة
 إذا دخلوها نزلوها بفضل أعمالهم . فيؤذن لهم في مقدار يوم
 الجمعة عن أيام الدنيا فيزورون الله تبارك وتعالى فيبرز لهم
 عرشه ، ويتبدى لهم في روضة من رياض الجنة ، فيوضع لهم
 منابر من نور ومنابر من لؤلؤ ومنابر من زبرجد ومنابر من
 ياقوت ومنابر من ذهب ومنابر من فضة ، ويجلس أدناهم
 وما فيهم دنيء على كئبان المسك والكافور ما يرون أن أصحاب
 الكراسي بأفضل منهم مجلساً ، قال أبو هريرة : وهل نرى ربنا
 عز وجل ؟ قال نعم هل تمارون في رؤية الشمس والقمر ليلة
 البدر ؟ قلنا لا . قال فكذلك لا تمارون في رؤية ربكم ،
 ولا يبقى في ذلك المجلس أحد الا حاضره الله محاضرة حتى
 يقول : يا فلان بن فلان أتذكر يوم فعلت كذا وكذا فيذكره
 ببعض غدراته في الدنيا فيقول بلى أفلم تغفر لي ، فيقول بلى
 فبمسغفرتي بلغت منزلتك هذه ، قال فيبينما هم على ذلك إذ
 غشيتهم سحابة من فوقهم فأمرت عليهم طيباً لم يجدوا مثل
 ريحه شيئاً قط ، قال ثم يقول ربنا تبارك وتعالى : قوموا الى
 ما أعددت لكم من الكرامة فخذوا ما اشتهيتم قال فيأتون سوقاً
 قد حفت بها الملائكة فيها ما لم تنظر العيون الى مثله ، ولم
 تسمع الآذان ولم يخطر على القلوب ، قال فيحمل لنا ما اشتهينا

ليس يباع ولا يشتري ، وفي ذلك السوق يلقي أهل الجنة بعضهم بعضاً ، فيقبل ذو البزة المرتفعة فيلقى من هو دونه وما فيهم دنيء ، فيروعه ما يرى عليه من اللباس والهيئة فما ينقضي آخر حديثه حتى يتمثل عليه أحسن منه ، وذلك أنه لا ينبغي لأحد أن يحزن فيها • قال ثم ننصرف الى منازلنا فيلقانا أزواجنا فيقلن : مرحباً وأهلاً بجنبنا لقد جئت وإن بك من الجمال والطيب أفضل مما فارقتنا عليه ، فنقول : إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار عز وجل وبحقنا أن تنقلب بمثل ما انقلبنا » •

وروى الترمذي عن علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن في الجنة سوقاً ما فيها شراء ولا بيع إلا الصور من الرجال والنساء فإذا اشتهى الرجل الصورة دخل فيها » •

وبعد : فطالما حاولت الاختصار على ما ذكرت ونقلت من حداء شيخ الاسلام الامام ابن القيم لارواح المؤمنين يحدو بهم الى دار الافراح دار السرور المقيم في جوار رب العالمين مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، فيلوح لي عن قرب أحد معالم النور ، التي نصبها الله عز وجل في طريق أحبابه الى دار كرامته فأجدث السير بك يا قارئ الكريم ، فان اشتقت الى تلك النعم ، ولذ لسمعتك

(١) حادي الارواح ص ١٩٠ •

ذلك النعم ، فعليك بالرجوع الى الاصل الذي اخترت لك منه الصحيح الاصح من كتاب الله عز وجل وسنة النبي الاكرم صلى الله عليه وسلم ومما ورد في الصحاح والسنن والمسانيد فقد ذكر الامام ابن القيم في كتابه (حادي الارواح) كل ما يتعلق بالموضوع من آثار صحاح فلم يترك لقائل مقالا ولا لمستبع مجالا أحاط بالموضوع احاطة السوار بالمعصم ، فذكر تكليم المولى عز وجل لاهل الجنة وخطابه لهم جعلا وفرادى وذكر محاضراته لهم ، وسلامه عليهم ، ودخولهم عليه ، وذكر ان نعيم الجنة أبدي ، وأن الجنة أبدية النعيم ، وأنها لا تنفى ولا تبعد ، ثم ذكر الخلاف في أبدية النار ودوامها وأورد حجج المثبتين والنافين ثم عقد فصلا ممتعا مقنعا وبين الفرق بين دوام الجنة والنار شرعا وعقلا وهذا الفصل مما يعنى به المتكلمون والمناظرون المحاجون ، وهو مما ليس نحن بسبيله اذ ان سبيلنا في ذلك عرض ما استحسناه من أقواله ليكون للمطالع نورا يهتدي به في سيره الى الله عز وجل ، وراحة له في دنياه ، وفوزا في اخراه ، ونحن نختم عرضنا لهذه الصور المنيرة ، والمشاهد المثيرة بما أورده في الباب التاسع والستين من كتابه وهو باب جامع لكثير من الشوارد الواردة في الموضوع •

فروى ابن أبي الدنيا عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يدخل أهل الجنة الجنة على

طول آدم ستين ذراعا بذراع الملك على حسن يوسف وعلى
ميلاد عيسى ثلاث وثلاثون سنة وعلى لسان محمد صلى الله
عليه وسلم جرد مرد مكحولون » وروي عن ابن عباس قال :
لسان أهل الجنة عربي •

وفي احتجاج الجنة والنار :

جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « احتجت النار
والجنة فقالت هذه يدخلني الجبارون والمتكبرون وقالت هذه
يدخلني الضعفاء والمساكين • فقال الله عز وجل لهذه أنت
عذابي اعذب بك من أشاء • وقال لهذه أنت رحمتي ارحم بك من
أشياء ولكل واحدة منكما ملؤها » •

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك عن النبي صلى
الله عليه وسلم قال : « لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل
من مزيد ، حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوي بعضها الى
بعض وتقول قط قط ، بعزتك وكرمك • ولا يزال في الجنة
فضل حتى ينشئ الله لها خلقا فيسكنهم فضل الجنة » •

وعن جابر قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقيل أينام أهل الجنة فيقال : « النوم أخو الموت وأهل الجنة
لا ينامون »

وأخرج الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما خلق الله
جنة عدن خلق فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على
قلب بشر » • وعن كعب قال : « ما نظر الله الى الجنة الا
قال : طيبى لاهلك فتزداد ضعفا حتى يدخلها أهلها » •

حكاية لطيفة : قال ابو سليمان الداراني : كان شاب
بالعراق يتعبد فخرج مع رفيق له الى مكة ، فكان ان نزلوا
فهو يصلي ، وان أكلوا فهو صائم ، فصبر عليه رفيقه ذاهبا
وجائيا فلما أراد أن يفارقه قال له يا أخي أخبرني ما الذي هيجك
الى ما رأيت ؟ قال : رأيت في النوم قصرا من قصور الجنة
واذا لبنة من فضة ولبنة من ذهب ، فلما تم البناء اذا شرافة
من زبرجد ، وشرافة من ياقوت وبينهما حوراء من حور العين
مرخية شعرها عليها ثوب من فضة ينثني معها كلما تثنت فقالت
جد الى الله في طلبي فقد والله جددت اليه في طلبك ،
فهذا الذي تراه في طلبها ، قال ابو سليمان هذا في طلب حوراء
فكيف بمن طلب ما هو أكثر من ذلك (١) •

(١) حادي الارواح ص ٢٨٨ •

ذبح الموت بين الجنة والنار :

روى الترمذي والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : اذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار أتى بالموت ملبياً فيوقف على السور الذي بين أهل الجنة وأهل النار ، ثم يقال يا أهل الجنة فيطلعون خائفين ، ثم يقال يا أهل النار فيطلعون مستبشرين يرجون الشفاعة ، فيقال لأهل الجنة وأهل النار هل تعرفون هذا فيقول هؤلاء وهؤلاء ، قد عرفناه هو الموت الذي وكل بنا فيضجع فيذبح ذبحاً على السور ثم يقال يا أهل الجنة خلود لا موت ، ويا أهل النار خلود لا موت وقال الترمذي حديث حسن صحيح •

قال الامام ابن القيم : وهذا الكبش والاضجاع والذبح ومعاناة الفريقين ذلك حقيقة لا خيال ولا تمثيل ، كما أخطأ فيه بعض الناس خطأ قبيحاً ، وقال : الموت عرض والعرض لا يتجسم ، فضلاً عن أن يذبح ، وقال : وهذا لا يصح فان الله سبحانه ينشئ من الموت صورة كبش يذبح كما ينشئ من الاعمال صوراً معاناة يثاب بها ويعاقب ، والله تعالى ينشئ من الاعراض أجساماً تكون الاعراض مادة لها ، وينشئ من الاجسام أعراضاً كما ينشئ سبحانه من الاعراض أعراضاً ، ومن الاجسام أجساماً ، فالاقسام الاربعة ممكنة مقدورة للرب

تعالى فالله سبحانه ينشئ من الاعراض أجساما
ويجعلها مادة لها كما في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم
« تجيء البقرة وآل عمران يوم القيامة كأنهما غمامتان » الحديث
فهذه القراءة التي ينشئها الله سبحانه غمامتين ، وكذلك
قوله في الحديث الآخر « إن ما تذكرون من جلال الله من
تسيحه وتحميده وتهليله يتعاطفن حول العرش لهن دوي كدوي
النمل ، يذكرن بصاحبهن » رواه أحمد وكذلك قوله في حديث
عذاب القبر ونعيمه للصورة التي يراها « فيقول من أنت
فيقول : أنا عملك الصالح ، أنا عملك السيء » وهذا حقيقة لا
خيال ولكن الله سبحانه أنشأ له من عمله صورة حسنة وصورة
قبيحة ، وهل النور الذي يقسم بين المؤمنين يوم القيامة الا
نفس ايمانهم أنشأ الله سبحانه لهم منه نورا يسعى بين أيديهم
فهذا أمر معقول لو لم يرد به النص ، فورود النص به من
باب تطابق السمع والعقل (١) .

أقول يستحسن هنا أن يرجع القارئ الى ما كنا كتبناه
في الصفحة عند الكلام عن صفات الرب عز وجل ليتضح
له المعنى المراد هنا من تصوير الاعمال الصالحة بصورة حسنة
حتى ليقول له المؤمن من أنت ، فوالله اني لأراك امراً الصديق
فيقول له أنا عملك فيكون له نورا وقائدا الى الجنة ، وكذا

(١) حادي الارواح ص ٢٩٠ .

الكافر يصور له عمله بصورة سيئة فيقول له من أنت فوالله اني لا راك امرأ السوء فيقول له : أنا عملك فينطلق به حتى يدخله النار . فهذه امور غيبية من أمور الآخرة لا يسع المؤمن الا الايمان بها من غير تكيف ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل فليس في الآخرة مما في الدنيا الا الاسماء واختلفت بالصفات .

فاذا رجع القارىء الى ما كتبناه هناك يدرك معنى تمثيل الايمان بنور يهدي المؤمن الى الجنة ، وهكذا تشبيه مجيء سورة البقرة وآل عمران يوم القيامة كأنهما غمامتان ، يتضح له أن هذه الامور حقيقية لا خيالية ، ولكنها من امور الآخرة التي لا ندركها حتى نلامسها ونعيشها فنحن نؤمن بوجودها بلا كيف ولا تمثيل ، فالله سبحانه وتعالى يقول : (ثم ننشئكم فيما لا تعلمون ، ولقد علمتم النشأة الاولى أفلا تتذكرون)

وسنجتمع ان شاء الله هناك في دار كرامته ويقبل بعضنا على بعض وتتناكر ما كنا فيه أيام الدنيا من خلافات نبتعي من ورائها اجلاء الحقيقة للاذهان ، ونشاهدها مشاهدة عيان كما روى ابن أبي الدنيا عن أنس يرفعه قال : « اذا دخل أهل الجنة الجنة فيشتاق الأخوان بعضهما الى بعض فيسير سرير هذا الى سرير هذا ، أو سرير هذا الى سرير هذا ، حتى يجتمعا جميعا فيتكئ هذا ويتكئ هذا ، فيقول أحدهما لصاحبه تعلم

متى غفر الله لنا فيقول صاحبه نعم يوم كذا وكذا موضع كذا وكذا فدعونا الله فغفر لنا «واذا تذاكروا ما كان بينهم فتذاكرهم فيما كان يشكل عليهم في الدنيا من مسائل العلم وفهم القرآن والسنة وصحة الاحاديث اولى واحرى فان المذاكرة في الدنيا في ذلك الذ من الطعام والشراب ... وتذاكر ذلك في الجنة أعظم لذة ، وهذه لذة يختص بها أهل العلم العاملون ويتميزون بها على من سواهم ، جعلنا الله سبحانه وتعالى منهم بمنه وكرمه •

من يستحق هذه البشارة دون غيره :

وختاماً لحذاء شيخ الاسلام للمؤمنين المستحقين بالفوز العظيم في دار الاقامة دار القرار ،دار السلامة والسعادة الكبرى نورد بعض البشائر التي بشر الله بها عباده المؤمنين مقتصرين على سرد الآيات بعد أن مر الكثير من شرحها ، قال تعالى :

١ - « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ان لهم جنات تجري من تحتها الانهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون »

٢ - « الا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون

الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم «

٣ - « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الاتخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون » •

٤ - « فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الالباب «

٥ - « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله أولئك هم الفائزون يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبدا ان الله عنده أجر عظيم «

٦ - « والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات «

٧ - « إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم «

٨ - « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله بإذنه وسراجا منيرا وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا «

٩ - « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أموالا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين »

١٠ - « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم »

١١ - « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون »

١٢ - « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الانهار

ومساكن بلية في جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم ، وأخرى
تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين »

ثم قال : ونختتم الكتاب بما ابتدأنا به أولا وهو خاتمة
أهل الجنة . قال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ
دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ
أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »

قال ابن جريج أخبرت ان قولهم سبحانك اللهم .
قال : اذا مر بهم الطير فيشتهونه ، قالوا : سبحانك اللهم ،
وذلك دعواهم فيأتيهم الملك بما اشتها فيسلم عليهم فيردون
عليه ، فذلك قوله تعالى وتحييتهم فيها سلام ، قال : فإذا أكلوا
حمدوا الله ربهم . فذلك قوله تعالى : (وآخرا دعواهم ان الحمد
لله رب العالمين) .

الخلاصة :

وبعد ، فلئن أطلت في سرد آراء الشيخ الامام ابن القيم ، ونقل كلامه ، حتى ليكاد يكون اختزالا أو اختصاراً لما حرره يراعه في الباب ، فليس ذلك سهوا مني ولا عجزا ، فما اردت بالكتابة عنه تحليلا لآرائه ولا تصويرا لشخصيته ، بل الذي أرمي اليه عرض آرائه بقلمه ، إذ اسلوبه الكتابي على غاية من الوضوح والبيان حتى في الامور التي تحتاج الى نقاش كلامي ، وجدل منطقي ، وهذا مما امتاز به على كثيرين من علماء عصره وبهذا الاسلوب الهين العذب بسط آراء شيخه ابن تيمية ، إذ كان ابن تيمية ثائرا بطبعه على الامراء والعلماء لانحرافهم عن سير السلف وقلة اعتبارهم بما انصب على العالم الاسلامي من ويلات التتر والصليبيين ، تلك الويلات التي لا زلنا نعاني من عقابيلها حتى يوم الناس هذا •

لقد توخيت عرض آرائه واسلوبه في الدعوة الى الله،

والعودة بالناس لسيرة السلف الصالح في الاعتقادات والعبادات
والمعاملات ، وهدايتهم من نور سيرة الصالحين . فالعالم الاسلامي
آنذاك كان يعيش في ليل من الهموم دامس ، وظلمة من
ظلام الظالمين حالكة ، رغم وجود بعض العلماء والاعلام ، كالامام
النووي ، وسلطان العلماء العز بن عبد السلام ، وتلميذه ابن
دقيق العيد ، وابن هشام ، وابن مالك وغيرهم من الجهابذة في
شتى علوم الاسلام ، فهؤلاء كانوا يعيشون في بروجهم العاجية
في نطاق اختصاص كل فرد منهم ، فهؤلاء كأن الله هياهم في
ذلك العصر ليحفظوا على الامة الاسلامية تراثها من العلوم
والفنون والمعارف ، فكانوا همزة وصل بين الماضي والحاضر
وساروا على منهج أئمة المسلمين في الفقه كأبي حنيفة ومالك
والشافعي وأحمد ، وأئمة الحديث كالبخاري ومسلم واصحاب
السنن وأئمة التفسير كالقربي وأبي حيان .

فمن عاصر ابن القيم من جهابذة العلماء لم يكن تأثيرهم
في المجتمع مجديا بقدر ما افادوا الامة بسا خلفود من تراث
علمي عظيم ، فلم يعملوا على النهوض بالمجتمع الاسلامي من
كبوته لاقتصار كل امام مهم على فنه الذي افنى عمره في تقصي
مسائله وشرح غوامض مشكله .

وكان الى جانب هؤلاء الاعلام - في الطرف الاخر -

علماء الرسوم - علماء السوء - أرباب الوظائف من افتاء وقضاء وتدريس ، فهؤلاء يحابون العوام ويسايرونهم، ويتزلفون للحكام من دنياهم للدنيا باسم الدين ، يعيشون على شفى هاوية جهالة الأمة ، كقادة وسادة ، تتلمذوا على كبار الشيوخ فحصلوا على شذرات من العلوم تخولهم ان تسند اليهم الوظائف ، من قضاء وفتوى ، فتسلطوا على دهماء العوام فلبسوا العنائم المكورة والقفاطين الواسعة من الخز والديباج وانهمكوا في جمع الفضة والذهب الوهاج .

ففي ظلمة ذلك العهد سطع نور شيخ الاسلام ابن تيمية ، ومن بعده تلميذه ابن القيم ، فتصدى ابن تيمية لتنبيه العلماء للقيام بواجبهم تجاه ملتهم وأمتهم بعصية لا تعرف للهوادة معنى ، لأنه كان ثائراً بطبعه ، ناضل وجاهد بسيفه وقلمه طوال حياته ، يقينا منه بأنه إذا صلح العلماء أجبروا الامراء على الاصلاح فتصلح معهما الامة بكاملها .

يظهر هذا جلياً من رده ونقضه لآراء فطاحل العلماء ، وكان في جميع ردوده تتجلى فيه شخصية العالم المستقل . وهذا ما حدا ببعض علماء السوء للسعي لدى الامراء (الاعاجم) للنيل منه ، وتصويره خطراً يهدد سلطانهم حتى حبس مراراً ، وحبس معه تلميذه ابن القيم بسبب مناصرته للحق الذي كان يتجلى في كلام شيخه وآرائه .

أما الامام ابن القيم رأى أن هذا السبيل لا يمكن سلوكه إلا بصباح التهذيب الروحي للامة ونشر العلم ، لدى الجمهور فسلك سبيل الارشاد والاصلاح بهوادة ولين ، متوخياً اصلاح جمهور الامة أولاً ، لأن الجمهور أسلسل قياداً وألين انقياداً لمن يعرف كيف يخاطبهم ، ويضرب على الوتر الحساس لمصالحهم ، سواء أكانت دينية أو دنيوية تلك المصالح ، لهذا نرى اسلوبه الكتابي ينحو فيه نحواً أدبياً روحياً بعبارة سهلة خالية ، من تعقيدات الاصطلاحات العلمية ، وقوانين المناطقة والمتكلمين ، وحذقة المتفهبين ، حتى في ردوده على الفرق المنحرفة (أهل الكلام) يظهر هذا جلياً من اختياره لعناوين كتبه ، كاعلام الموقعين . والطرق الحكيمة . وزاد المعاد . ومفتاح دار السعادة واجتماع الجيوش الاسلامية . الخ

فهو يخاطب القلوب أولاً ليسهل على العقول الاحاطة بما ما يريد يستثنى من ذلك ما كان خاصاً بالرد على الفرق الضالة . من جهمية وقدرية ومعتزلة . فهو في هذا لا يخرج عن منهج شيخه ابن تيسية في الشدة على أهل الزيغ والضلال .

وخلاصة القول : إن الكتابة عن هذا الامام العظيم واستعراض آرائه وتحليلها لا يتسع لها هذا الكتاب الذي وضع خصيصاً لجمهور القراء فالامام ابن القيم استوعب من العلوم

ما تفرق عند كثير من الأئمة ، فهو فقيه ، أصولي ، مجتهد ، مفسر ، متكلم نحوي ، محدث ، مشارك في غير ذلك (١) .

وقال ابن رجب : تفقه في المذهب ، وبرع وأفى ، ولازم الشيخ تقي الدين وأخذ عنه ، وتفنن في علوم الاسلام ، وكان عارفاً بالتفسير لا يجارى فيه ، وبأصول الدين ، واليه فيه المنتهى ، والحديث ومعانيه وفقهه ودقائق الاستنباط منه لا يلحق في ذلك ، وبالفقه وأصوله ، وبالعبودية وله فيها اليد الطولى ، . . .

وكان عالماً بعلم السلوك وكلام أهل التصوف وإشاراتهم ودقائقهم . له في كل فن من هذه الفنون اليد الطولى (١) .

فهذه النواحي المتعددة من شخصيته التي تظهر من خلال كل فن ألف فيه لا يمكن الاحاطة فيها في مثل هذا الكتاب ، الخاص بجمهور القراء .

فالغاية التي أرمي اليها من الكتابة عن ابن القيم ابراز شخصيته كأديب ومرشد ومصلح اجتماعي مجدد ، أما النواحي الأخرى من شخصيته فلا تزال مبهمة غامضة تنتظر من يجلوها سواء أكان بهذا الأسلوب الذي ارتضيته لنفسه ، أم بأسلوب تحليلي ، أو مقارن ، فلكل كاتب منهجه الخاص وأرجو أن أكون بذلك أرضيت روحه الذي قدمت كتابي إليه .

(١) ابن رجب ج ٢ ص ٤٤٨ .

وختاماً أرفع خالص شكري وتقديري لأخي وولي في الله
سيادة القاضي الاستاذ سعدي أبو جيب ، الذي تفضل
مشكوراً بالاطلاع على الكتاب ولفت نظري لبعض الأمور التي
قد يكون شت فيها الفكر وانساب فيها القلم فأسهبت في بعض
المواضيع ، وأكثر النقل من كتب الامام ، وكان يرى اختصار
النقل وكثرة التحليل وهذا في رأيه الصواب (وأعترف بذلك ^(١))
لو لا أنني ذكرت في مقدمتي منهجي والغاية التي أرمي إليها مع
العلم ان ما ذكر في المنهج لم تتح لي الفرصة ولم يتسع الوقت
لتحقيقه ، وإني لأرجو أن يوفقني الله تعالى للكتابة عن بقية
ما ورد في المقدمة في كتاب آخر (ملحق) •

هذا وقد ذكر الاستاذ الكريم في المقدمة التي قدم بها
الكتاب ما ينبغي أن يكتب عن هذا الامام العظيم ، فعسى أن
يلهم الله المحبين للخير والاصلاح ، أن يكتبوا عنه في النواحي
التي برز فيها من فقه ، وحديث ، وتفسير ، وتصوف ،
و (توحيد) وهذا مهم جداً وبهذا تتجلى شخصيته بأبرز
معانيها ، فهو فقيه ومحدث ومفسر ومتصوف وموحد من نمط
آخر غير ما عرف عن الفقهاء والمفسرين ، والمحدثين ويظهر
آنذاك أن ابن القيم علم الاعلام لا من أعلام الاسلام فحسب
والله ولي التوفيق •

(١) لمن أوزاد أن يكتب عنه فقيهاً أو مفسراً أو محدثاً أو
متكلماً •

الفهرس

٥ تقديم القاضي سعدي ابو جيب

١٩ المقدمة

الباب الاول

٣٣ عصر الامام ابن القيم

٣٧ استرداد بيت المقدس بهمة صلاح الدين

٤٠ خروج الصليبيين من بيت المقدس

٤٦ نتائج الحروب الصليبية لدى المسلمين والصليبيين

٤٧ غزو التتار للبلاد الاسلامية

٥٠ تنصيب خليفة في القاهرة

٦٤ اثر هذه الحروب في نفوس المماليك ومواقف العلماء

في إعادة النهضة

٧١ انتصار العلماء على الامراء، وتزلف الامراء الى الشعب والعلماء

٧٤ موقف امراء المماليك من العلم والعلماء ومساهمة العلماء

في إعادة النهضة

٧٧ دور التعليم

المؤلفات	٨٥
التخصص في العلوم	٩٢
الحفاظ	٩٢

الباب الثاني

مولد ابن القيم ونشأته وحياته	٩٧
كيف كان تلقي العلم في زمن ابن القيم	١٠١
شيوخه	١٠٢
تلاميذه، وأقوال العلماء فيه	١٠٣
محنه	١٠٦
ثقافته	١٠٩
مؤلفاته في العلوم الإسلامية	١١١
اقتباسه من غرر الشعر	١٢٣
اقتباسه من القرآن والحديث الشريف	١٢٤
معرفته اللغوية والبيان	١٢٦
الفرق بين شخصيته وشخصية ابن تيمية	١٣٢
اعتداده برأي شيخه دون تعصب	١٣٧

الباب الثالث

أدب الامام ابن القيم	١٤١
----------------------	-----

الكلام عن روضة المحبين	١٤٣
مقارنة روضة المحبين بطوق الحمامة لابن حزم	١٤٧
استحباب تخير الصور الجميلة للواصل الذي يحبه الله ورسوله	١٨٦
تعليق الاستاذ احمد عبيد على روضة المحبين	٢٠٣
العفة والهوى العذري	٢١٦
عقاب مرتكبي الحرام	٢٢٤
الشفاعة للمحبين	٢٢٦
الفاية من تأليف روضة المحبين	٢٣٤
الجزاء من جنس العمل	٢٤٢
ذم الهوى	٢٥٣
كيفية التخلص من الهوى	٢٥٦
ما امتاز به كتاب روضة المحبين عن طوق الحمامة	٢٦٠

الباب الرابع

جوانب من شخصية الامام من خلال بعض كتبه

ابن القيم وكتابه الروح	٢٦٥
رأي ابن القيم في الروح	٢٧٦
ابن القيم بين شكره وصبره	٣٠٢
اقسام الصبر باعتبار متعلقه	٣٠٩
تنازع الناس في الافضل من الصبر والشكر	٣١٤

مع الامام ابن القيم في كتابه حادي الارواح الى بلاد الافراح	٣٣٧
ابتداء المسير الى دار الافراح	٣٥٩
معرفة اهل الجنة لمنازلهم	٣٧٢
وصف ما في الجنة من النعيم	٣٧٨
الخاتمة	٤١٠

